www.beniznassen.com

قدور الوطاسي

ذكريات دراستي في فاس

الحلقة الخامسة

من سلسلة

روائع الخالدين

دار الطباعة الحديثة
MAISON D'IMPRESSION MODERNE
53.51 زنقة فيردان - البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيـــم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

« الاهـــــداء »

لقد كانـــت رحلتي العلميـــة من ابركان الى فاس للدراسة على جلة العلماء في القرويين ، من أعز ذكريات شبابي ولما يزل اثناء عقده الثاني .

فلقد تفتح عقلي بالحياة في هذه العاصمة العلمية الحضارية بما استفدته من جلة علمائها الخالدين ، وما اقتبسته من شعاع حضارة فاس الخالدة .

وذلك بعد أن تشرفت بالدراسة العلمية في « معهد وجدة » على أخيار علمائها الاوفياء المتقين .

فالى هؤلاء واولئك العلماء الاجلاء بصفة خاصة والى أهل فاس بصفة عامة ، أهدي هذا الكتيب المتواضع : « ذكريات الدراسة في فاس » .

شاكرا لمشيختي الخالدة الذكر لما اسدته الي من معارف وتربية ، التي بفضلها اثرت حياة الجهـاد الوطنـي في عهـد الاستعمار على حياة الانطواء والعبودية الاستعمارية حتى تكلل الجهاد المقدس بالنصر المبين .

ومهنيئا اهل فاس بما أشاعوه من حضارة عربية اسلامية غير قابلة للتنكر والجحود في هذه الديار العربية الاسلامية التي ستبقى بحول الله وقوته منارا هاديا ، وحصنا للعروبة والاسلام بالرغم على انف الجاحدين والمغرورين والمائعين .

الرباط : قدور بن علي الورطاسي
الحسني لطف الله به
آمين

www.beniznassen.com

www.beriznasser.com

في آخر صباح يوم السبت 5 فبراير 1944 . ولما اعلنت لها عن عزمي على السفر الى وجدة للقيام بمظاهرة نظامنية مع مظاهرات 28 يناير 1944 ، خرجت معي لتودعني قائلة :

« روح » ياولدي لقد وهبتك لله ، قالتها وعيناها مليئتان بدمعة الرحمة والشفقة على اعز ولدها عندها .

وكنت كلما اعتقلت وزارها اقارب ليصبروها أجابتهم بقولها : عوض ان تصبروني عليكم ان تهنوني ، انني ماكنت أطمع في ان يكون لي ولد يجاهد الكفار .

كما انها كانت تطلقها زغردة منفعلة كلما وقع اعتقالي .

وحكت لي رحمها الله : انها كلما اشتد شوقها الي وانا معتقل تغلق عليها حجرتها وتبكي ما شاء الله ثم تجفف دموعها حتى لا يراها احد من الزوار وعليها أثر البكاء والالم

وفي 17 غشت 1953 اعتقل والدي وشقيقي وبقيت وحدها في المنزل فأرسل خليفة المراقب عونا لاعتقالها ولكن « رئيس الدائرة » دالي ، تدارك الامر قائلا لخليفته : انها وحدها في المنزل فكل اعضاء الاسرة معتقلون ، فعقب الخليفة عليه بقوله : انها لا تفتر عن الدعاية ضدنا فاكد له الرئيس عدم اعتقالها وان فعلت ما فعلت توفيت رحمة الله عليها عن سن يناهز 74 سنة ، في صباح يوم الجمعة ثاني (2) غشت 1968 / على الساعة الحادية عشرة ونصف .

والدة المؤلف
حلومة اليعقوبية رحمه الله

فرحمة الله ورضوانه عليك أيتها الام الكريمة وجازاك

www. beni2naseen. com

المؤلف و والده

www. beniznassen. com

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله عليى سيدنا محمد وآله وصحبه

تمهيد :

عشت طفولتي وأوائل شبابي في قرية «ورطاس الوديعة البسيطة ، لا تضاريس في اساليب حياتها ، يطبعها كامل القناعة بما حضر من الماديات : مأكلا ، وملبسا ، ومنزلا ، وفراشا ومركبا ، فكل ما تيسر لسد الخلة ، وستر العورة ، يثير في النفوس الهدوء ، ويشع في القلوب نور السعادة ، كما يطبعها الطابع الديني اينما وليت وجهك .

فمعظم اهالى وادى ورطاس ، اما انهم يستظهرون كامل كتاب الله العزيز ، واما طائفة من السور المطولة ، واما معظم السور القصار ، وقلما قيل : ان هذا لا يصلى ، او هذا يؤخر الصلاة عن وقتها .

لا سيما وان خطيب العيدين يردد خطبة واحدة مكتوبة من اجيال قديمة . تعاد كل عيد : ومن معانى فقراتها تارك الصلاة لا يجوز عليه السلام . ولا يجوز معه الكلام . ولا تجوز فيه الصدقة ، ولا تجوز مصاهرته ، وتختتم بهذه الفقرة : تارك الصلاة كافر ، كافر ، كافر . وعلى كثرة اعادة الخطبة ، تسمع ـ اثناء القائها ـ الشهيق والبكاء مدا وقصرا . وتكرار الاستغفار والتوبة الى الله . اما حين يصل الخطيب الى وصف حالة القبر ، وما يعانى فيها الاشقياء من صور العذاب والوانها ، فتكاد تحس ان الصدور تتصدع من خشية الله .

www.beni2naser.com

وحينما كنت احضر هذه الصلاة والخطبة مع الاطفال ، كنا نبكي بكاء الرجال والنساء الذين يشهدون صلاة العيدين والخطبة ، نبكي وكاننا اتينا من الذنوب ما يئسنا من مغفرته ، ويعود الاطفال الى أمهاتهم واخواتهم يصفون لهن من هول فتنة القبر وعذابه ما يفيض ادمعهن ويحملهن على الاستغفار والتوبة .

مع هذا كله ، تتغير صور حياة القرية فى الاعياد والايام الدينية فترتدى زينة ، وتكتسى صبغة رائعة تنشرح لها الصدور ، وتتفتح لها اسارير الجباه ، وتتاثر القلوب للضعفاء والمساكين والعجزة فتنفحها بما فتح الله على بعضها من خير وسعة .

وكنا حينما نتوجه قبل الفجر الى « المسجد » نشاهد عجوزا او امراة هنا وهناك يقومون بالنافلة على الصخور فى خشوع ، تحسبهم يستقبلون الموت فى كل لحظة من لحظات وقوفهم امام الله فى تلك النافلة .

هذا الى حفظ كتاب الله الكريم يتلونه فى غدواتهم وروحاتهم ، راكبين او راجلين ، وهم يقصدون حدائقهم للسقى ليلا ، او الى محارثهم ليحرثوها ، او الى جهة ما لغرض غير ذلك . فلا يحدث ان تمر بطالب ، او تستقبله ، او يمر عليك ، دون ان تسمعه وتراه يتلو كتاب الله الكريم ، مع ما ترى من اشتغال العامة بالتسبيح ، والسبح فى ايديهم ، ويكاد كل المسنين يكتفون عن الضحك بالابتسام ، لان ما من احد منهم الا ويعرف ان الضحك مكروه لدى الفقهاء ، حرام لدى الصوفية ، لانه يقسى القلب . وذلك ما طبعهم بطابع الوقار والهيبة والاحترام ، وبهذه الخلال ، وبكثير من نظرائها اشتهر آل « سيدى عبد المومن » الذين هم اهل قرية وادى ورطاس بالتقوى والبركة والصلاح .

حتى ان الذين كانوا يمرون على هذه القرية الى قراهم التى تليها

www. benznasser. com

يترجلون فلا يركبون مراكبهم حتى يتجاوزوها اكراما لآل ورطاس .

اذكر ـ كما لو انني ارى الحادثة الان ، ـ : اننا نحن الاطفال ـ كنا نلعب قرب العين ومر علينا رجل راكب بغله ، فتوقفنا عن اللعب جميعا ، وقال له بعضنا : يا خال ، انزل من على بغلك وامش على رجلك حتى تتجاوز قريتنا . هذه هي العادة ، افلا تحترم آل ورطاس ؟ ولكنه ركبه العناد ، فانذرناه وانذرناه ، فلج في العناد ،،، فما كان منا الا أن توجهنا اليه وقلنا جميعا : « طاح » ، تعبيرا عن صوت الرصاص، فسقط بغله فوق حجرة صماء صلداء ، لا زلت اذكر موضعها ، ثم وقف وقال : اسمحولي ايها الشرفاء على ان لا اعود الى مثلها .

والى هذه اذكر ان بعضهم كان يمشي حافيا متى بلغ قرب المسجد الكبير في القرية . وهو يشير بيده طالبا دعاء الخير من كل من يلقاه .

هكذا عشت طفولتي واوائل شبابي في هذه القرية التي تطبعها القناعة والاخلاق الدينية التي تغمر الوجوه حياء ، والالسنة نقاء ونظافة ، والقلوب حنانا وخوفا من الله .

في حين انه لم يكن . داخل القرية ، وبين سكانها ـ تزمت كثير ، فقد كان بينهم تفتح يفسح المجال لان يقف رجل ورجال عزاب مع عذارى يتحدثون عن الزواج وهن سافرات الوجوه ، ويتندر الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال العزب والعازبات ، ويتواعدون على الزواج ، وقد تشترك الامهات والاخوة والاخوات في هذه الاحاديث البرئية ، ويحدث ان يمر الاباء على هذه المجالس ، او الوقوفات فلا يغضبون بذلك ، لما يؤمن به الجميع من براءة القلوب ، وضبط الشهوات ، وسلامة القصد .

وفي سنة 1928 م رحلت الى قرية « البرج » بكبدانة لاجادة كتاب الله العزيز ودراسة مبادىء التوحيد والفقه والتصوف بابن عاشر ،

www.beniznassen.com

والنحو بالاجرومية على اول شيخ لي المرحوم الفقيه الولي الصالح السيد احمد بن عبد القادر الكبداني الزخنيني من قرية قرب ملوية قيادة القائد النبيل السيد الدخيسي الهوارى رحمة الله على الجميع ، وكان هذا الشيخ قد درس في فاس ، ثم رجع الى قريته المشار اليها . وطلبه اهل « البرج » من عمالة الناضور لمسجدهم ، وعلى حسابهم اماما ، ومقرئا ، ومدرسا للطلبة الذين يقصدون هذا المسجد لهذا الغرض ، ويقوم سكان القرية باطعامهم مع اداء حق الفقيه الشيخ .

ولم امكث هنالك اكثر من شهر ونصف ، اى اننى كنت هنالك ما بين عيدى الفطر والاضحى ثم تحولت الى قرية حركات التى وصفت اهلها في ترجمتى للاخ ادريس البرحيلى رحمه الله . ثم الى قرية «اجدير» قرب « ورطاس » حيث مكثت اربعة اشهر ، ثم الى مسجد سيدى موسى قرب « الطرشة » من بنى منقوش ، حيث كنت ادرس منظومة ابن عاشر والاجرومية والفرائض على شيخنا المرحوم سيدى على بن العروسى .

كل هذه الرحلات القرآنية والعلمية كانت فيها الحياة واساليبها متشابهة متقاربة في القناعة والطابع الديني ، والخلق الاسلامي ، فلم اكن اشعر الا بتغيير طفيف في نفسيتي بالحياة الجديدة بعد مغادرتي لقريتي ورطاس .

وكل ما لفت نظرى في هذه الرحلات ، ما كنت اعجب به من اكرام لحفظة كتاب الله واحترامهم كيفما كان خلقهم اكراما لما فى صدورهم من كلام الله .

اما اكبر اعجابى فكان باستاذى سيدى على بن العروسى .

لقد كان عمره يتجاوز الستين شيئا قليلا ، اتصوره الآن . متوسط القامة ، خالطه الشيب ، كثيف اللحية والعارضين ، اعين ، افوه ، ذا عضلات قوية ، على الرغم من تقدم سنه ، جهورى الصوت فصيح اللسان،

www. beni2Nassen. com

صريحا الى الافراط . يقول كلمته بدون اى مبالاة باى احد . مهابا ، ابى النفس ، قنوعا بما يسر الله له ، كان يدعى سيدى على القاضى وان لم يتول خطة القضاء اصلا ، رحل في اواسط شبابه ، او في اول كهولته الى ناحية تلمسان عين الحوت وهو متزوج ويحفظ القرآن فقط ، وسرعان ما اخذ يدرس العلم هنـاك ، مع اشتغاله بالعمل للانفاق على اسرته ، وحكى لنا انه درس « الالفية » في ستة شهور فبرع فى القواعد النحوية ، ثم درس الفقه بالشيخ خليل . فكان نحويا فقيها . ولا علم له بغيـر ذلك الا علم التصـوف الذى كان شغـوفا بـه .

ولما رجع الى قريته « لعرايسة » قرب لكرارجة من بنى منقوش ، استعمله القائد محمد الكروج الصغير كاتبا له . وكان هذا القائد ذا ثقافة شعبية ، اى يحفظ احاديث وحكما واشعارا عن طريق مخالطـة العلمـاء ، وله خـط جميـل .

وذات مرة عاب القائد على الكاتب كلمة « يمشى » فى احدى رسائله، وأمره ان يغيرها بيذهب ، فرمى بالقلم والدواة والقرطاس . وخـرج غاضبا مقسما اليمين على ان لا يستمر في الكتابة لقائد يعيب لغة « بدون قصد التنقيض من لغة القرآن » ، ولو كان ذلك لافتى بكفره ، فانه لا يخاف فى الله لومة لائم . ولم يكن شجاعا ادبيا فقط ، ولكنه كان شجاعا ماديا ، ومتى غضب ، غضبت العامة لغضبه .

ثم اقتصر على خدمة قطعة ارض سقوية واخرى بورية يشتغل فيهما بنفسه حرثا وسقيا وغرسا وحصادا ودراسا وخزنا . مع اشتغاله بالقاء الدروس في الفقه والارشاد مجانا وتطوعا .

فكان اسلوب حياته هذا ، ياخذ بجامع قلبى ، فاى عيب ان يكون الانسان عالما ويشتغل فى ارضه ؟ تلك هى الرجولة ، وذلك هو العلم

www. beniZNASSEN. com

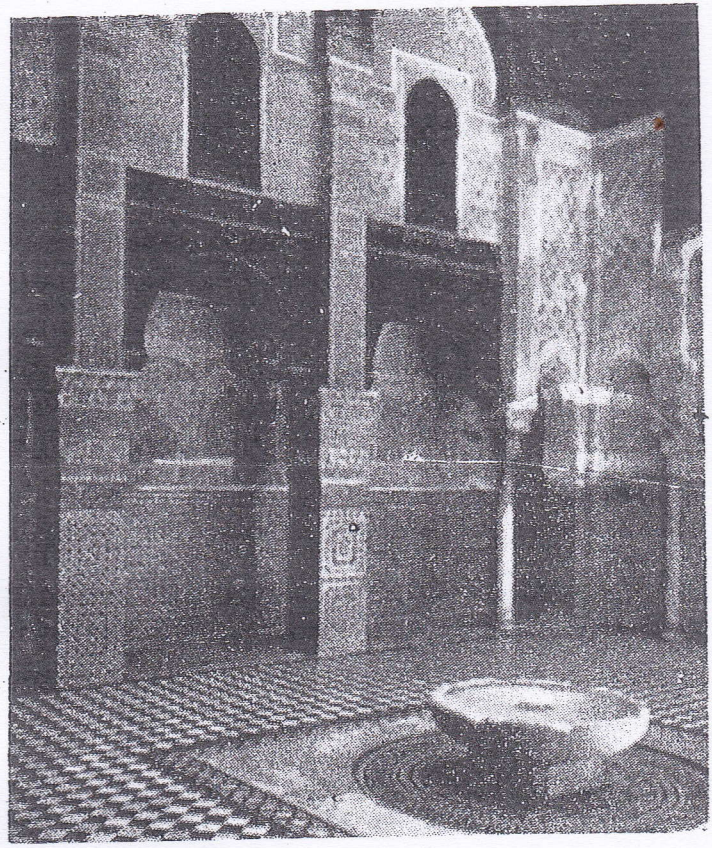

مدرسة العطارين بمدينة فاس

لله ، وذلك هو الاباء ، اما العلم وتملق العامة وخاصة الاغنياء ، فهو الجهل عينه . والذل عينه . وما ينبغي ان يكون هذا شان العلم . فالعلم الذي لا يقوم في الانسان عقيدته ، ولا يقوم عقله ، ولا ينمي في نفسه العزة والرجولة ، ليس بعلم ، وانما هي معلومات دعمت ما في مثل غيره من وضاعة وانحطاط .

هكذا كان يتصور العلم ونتائجه ويطبق ذلك شيخنا المرحوم سيدي علي بن العروسي ، وعلى هذه الاخلاق الطيبة التحق بعالم الخلود في اوائل العقد الخامس (1942) من القرن العشرين ، اذا لم تخني الذاكرة .

اذكر ان احدا ما ، قال له : كيف تاخذ « الورد » عن الشيخ الهبرى وانت اعلم منه ؟ فاجاب اننى اخذت عنه « وردا » لانه اخذه عن اولياء الله ، فلا بد من ان اخذه بهذه الطريقة ، واننى فى شؤونى الدينية اسير وفق ما اعلمه بنفسي من شريعة الله . حتى ولو خالفت الشيخ صاحب « الورد » فاقتنع السائل .

ومن دعاباته رضى الله عنه : كان معنا نحن طلبته فوق سطح مسجد سيدي موسى المذكور نشرب الشاي بعد صلاة العصر في صيف سنه 1930 . فمر ت جماعة من الحصادين ، وهم يغنون ويردون : انا .. انا .. انا . فابتسم رحمة الله عليه وقال : من انت ؟ المنجل فوق كتفك واللبدة فوق بطنك . . « جلدة ، او قطعة ثوب يضعها الحاصدون على بطونهم يشدونها بخيوط مع انفسهم ليتقوا بهم غبار الزرع المحصود » .

انا .. انا .. من انت ؟ لا شى .. قال ذلك رحمه الله فيما بيننا

قلت : قال ذلك وزاد : بنو آدم عجيب ، الفقر بلغ مبلغه وهو يغني : هو يهز راسه تعجبا من انانية البشر .

وفى ذلك الصيف ، صيف سنة 1930 . التحقت بمعهد وجدة ، وكان فى راس ادارته ونظارة الاحباس ، شيخنا العلامة سيدى ابوبكر بن بكرى رحمه الله ورضى عنه .

اما شيوخ المعهد فهم : الولى الصالح . سيدى الحاج محمد المازونى ، كان يدرس مختصر الشيخ خليل . والولى الصالح السيد محمد النكادى النحو ، وانفقه » .

والولى الصالح سيدى الحاج احمد بن التهامى وكان يدرس « تحفة ابن عاصم » .

ومدير المعهد يدرس الالفية بالمكودى .

والولى الصالح سيدى بنسعيد بن عبد الرحمن ، النحو والمنطق .

اما المتطوعون ، فهم امام الظهرين ، الولى الصالح سيدى الحاج عبد القادر بن الكندوز « الفرائض » والشاب الناشىء على عبادة الله . خطيب المسجد الاعظم سيدى عبد القادر بن الولى الصالح سيدى الحاج عبد الرحمن ، النحو بالالفية ، المكودى .

والعلامة المحدث السيد الحاج العربى بن الحبيب «النحو بالمكودى» ، ولا اظنه وصل او تجاوز باب المبتدا والخبر وحال المرض دون مواصلة دروسه القيمة .

الفقيه القاضى مولاى اسماعيل الادريسى « التوحيد » .

ثم شيخ شيوخنا في فاس العلامة الشهير قاضى وجدة بعد القاضى

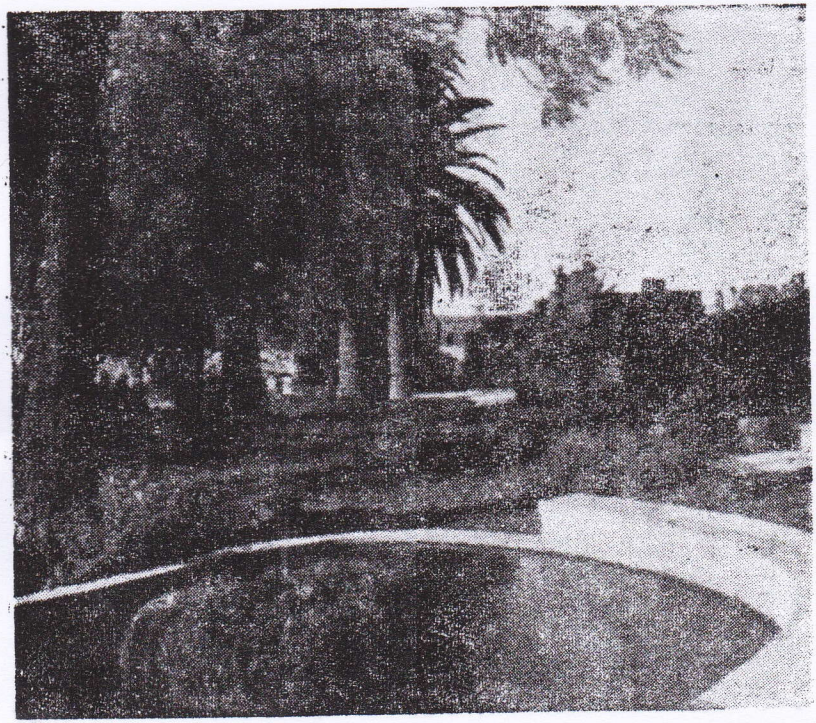

الحديقة العمومية بمدينة وجدة

مولاى اسماعيل المذكور وهو المرحوم سيدى عبد الرحمان الشفشاونى « التحفة » .

والمرحوم بالله الفقيه السيد محمد بن باصو (بشد الصاد) وكان يسكن في القصبة ، ويدرس معنا الالفية بالمكودي .

والمرحوم الطالب السيد احمد الضرير الرجدى «مراجعات فى النحو».

والمرحوم الفقيه المكناسى ، «الفرائض » .

وكـان العلماء يلقـون دروسهم ونحن « خاشعـون » لا مـن يسأل ، ولا من يناقش من الطلبة وذلك يرجع الى امرين : اولهما : ان كثيرا من فقهائنا لم يتعودوا الاسئلة والمناقشة ، فسيدى الحاج احمد بن التهامـى يضطرب عليه املاء درسه متى سأله السيد عبد القادر البوتشيشى ، ولم يكن يسأله غيره ، لانه كان يدرس فى وجدة اولا ، ثم ذهب الى فاس مدة سنتين تقريبا ، ثم رجع الى معهد وجدة . وفى فاس ، تمرن على الاسئلة والمناقشة ، وكان الطلبة يكرهون منه ذلك ، ثانيا الى ان الطلبة فـى معظمهم لم تكن لهم مطالعة مهمة قبل الدرس ، ومن جهة ثالثة لم يكونوا يملكون الشجاعة الادبية للسؤال والمناقشة ، ومن جهة رابعة كان هناك ضعف فى التحصيل فى معظمهم ، ومع تقليد قديم ، ان الفقهاء يملون دروسهم والطلبة يسمعون ليس الا وان المناقشة مذعاة لا زاحة « وقار » الدروس . ووقار الشيوخ ، وءاية جراة الطالب على الفقهاء ، وكان الطلبة يبالغون فى الاناقة والتظاهر بمظهر الوقار ومنهم كثيرون ممن كانوا وقورين ظاهرا وباطنا .

وكانت النظارة تمنحنا اربعين فرنكا فى كل شهر ، ثم خمسين فرنكـا ، زيادة على الحجـرة المشتركـة بين اثنيـن عادة ، وثـلاثة خـلاف العادة ، وكانت المنحة كافية للفقراء المقتصدين .

مع اعتبار ان كل طالب تقريبا يتكرم عليه احد السكان بخبزة يومية

www. beni2nassen. com

يأخذها الطالب من « الفران » من خبز المتكرم ، ومن حين لاخر ، يستدعى بعض الطلبة من طرف السكان ويكرمونهم طعاما ونقودا ، ومن اشهر السكان فى هذا الاكرام ، المرحوم الحاج عبد القادر ابن بوعزة الخضار

صناعة الدباغة التقليدية بمدينة فاس

الندرومى ، والمرحوم عبد الله بن عمر ، والصابونيون ، واهل ندرومة اكثر الناس اكراما للطلبة واجودهم طعاما .

ومن الطلبة الذين عايشتهم فى هذه المدرسة وما زالت اذكر اسماءهم السادة : احمد بن حمدان الخالدى ، المرحوم محمد بن علي البوعمالي « بشد الميم » والمرحوم قدور البوعمالي ، والمرحوم علي البوغنمي رفيقي في الحجرة ، والحبيب المعسكرى رحمه الله ، والمرحوم

بوجمعة الصحراوى ومحمد الورسوسى ، والمصطفى ابن الطيب اخ زوجة شيخنا السيد بنسعيد ، والميلودان المهدى الخالدى الدراى ، وابن عمه الميلود « بوشنافة » والمرحوم الحسين الدراري ، والمرحوم عمرو الخالدى الزيانبى ، وعبد الله بن قدور الدراري ، وابراهيم المريمى ، والخثير ابن عبد العزيز من السعدية « هو الان عدل » وابنا خالتى عمر وبن الحسين الوكوتى ومحمد بن الحاج احمد اليعقوبى ، اقويدر بن بومدين المنقوشى الشحفلافى : والاخوان : ابراهيم والمختار الوكيليان ، والحسين بن عبد القادر الوكيلى . وعبد الغنى البيدرى . ومحمد بن عمر والوريمشى القنينى بشد النون الاولى وكسرها رحمه الله . وعبد القادر البوتشيشى ، ورابح العزاوى ، ومحمد المزوار العزاوى « عدل » وعبد الله الوشكرادى ، ومحمد بن عبد الله الحافى القائد الممتاز بخميس الزمامرة اقليم الجديـــدة .

ويبدولى الان ، اننى اتيت على كل اسمائهم .

ومن العادة ان يعطى الطالب الجديد خمسين فرنكا للطلبة اول يوم التحاقه ، ويهيأ عشاء جماعى نتناوله فى قاعة الدراسة الخاصة التى كنا نطلق عليها «البيت الكبير» وكان السيد الحسين بن عبد القادر الوكيلى المذكور مقدم الطلبة والقيم على « العشاء » يساعده فى ذلك المرحوم السيد الحبيب المعسكرى وتمضى سهرة بريئة طيبة نقرا فيها القرآن من حين لآخر وقد نستدعى لها بعض المقرئين والفكاهيين . ومن هـــؤلاء الطالب السيد بنيـــونس حسون (بشد السيـــن) المهملـــة وكان احـــول مقبول الفكاهة والنكتة .

الحالة الاجتماعية فى وجدة فى ذلك العهد :

اغلب الوجديين الاصلاء ضعفاء وقليل منهم المتوسطون ، والاغنياء اقل ، وكانا الضعفاء والمتوسطون منهم ومن جرى مجراهم من غير الاصلاء

لا يفرشون بيوتهم بالصوف كشان الفاسيين ، وانما هو فراش خفيف ولهم أغطية وجدية مع لحافات قد رتبت ترتيبا دقيقا في ركني المنزل الذى يدخل اليه الضيوف وطعامهم قليل بالنسبة للفاسيين ، واثاث المنزل والمطبخ بسيط جدا لا يلفت الانظار ، وقلما راينا « الدجاج » من جملة الطعام نحن الطلبة . وليس الاكمية متوسطة لا تعدو 1000 اكرام من اللحم في كل صحن مع الزبيب او البرقوق ثم الكسكس ، ولا فاكهة قبلا ولا بعدا ـ وانما هو الشاى بدون حلويات .

والنساء ملثمات ، الا عينا واحدة منذ بلوغ الفتاة عشر سنوات ، او تزيد قليلا ، وقلما ترى المراة بعد الغروب الا بعض العجائز .

وبهذا تختلف المراة في وجدة اذ ذاك عن البادية التى يراها الشباب سافرة قبل الزواج وبعده في الجملة من صغرها الى شيخوختها ، فالمراة البادوية تطبق قول ابن عاشر .

ومـا عدا وجه وكف الحرة « يجب ستره كما في العوره » .

اما الوجدية فلا يرى منها الا عين واحدة ، والمراة الوجدية ـ في عمومها ـ تطبعها الرشاقة والنحافة المتوسطة لانها تشتغل في منزلهـا واقفة ، او جيئة وذهابا ، وتناولها للطعام تناولا متوسطا . اما عن اقتصاد واما عن خوف البدانة مع قوة جسمانية ، فهي قريبة من قوة الجزائرية ، فليس كل رجل يقدر على اخضاعها بالقوة ، فكثيرا ما تصرع رجالا يظنون انهم رجال ، ولذلك فهي مهابة في الشارع ، ولسرعـة ثورانهـا اثـر مهـم على قلة بدانتها .

وقلما تجد الليونة تغلب على الوجدية فالغالب عليها مظاهر القوة ، فلسانها متوازن مع قوتها الجسدية في الغالب ، والصالحات منهن يعرفن حتى بالخطوات التى لا تثنى فيها ، ولا صنعة ، وهن الاكثرية الساحقة ،

والمتشنى والصنعة ، من شأن خادمات الاوربيين واليهود ، او من الطارئات ، اما الوجدية الاصلية فقلما تعرف عليها غير رحمها ومحرمها ، ومع ذلك فهي اكثر خبرة بما يجرى ويتجدد من اساليب الحياة فى مدينتها ، فالتزاور المتبادل . والحمام ، والولائم ، والمآتم هي بمنزلة « تلم الاستعلامات » لا سيما والمراة – في عمومها – اكثر استطلاعا وبحثا عن الجديد . والوجدية لا توخذ – فى حياتها الزوجية الا بالليل . ولا تعير العنف اى اهتمام وان تحقق لديها الطلاق .

ويختلف سكان وجدة عن سكان البادية ايضا فى ادخار المواد .

فالوجدى لا ينفق الا ما يكفى اليوم من المواد اليومية ، فلكل يوم نفقته ، وسيما السكر والشاى والنعناع . فقد يوخذ ذلك صباح مساء .

اما اهل البادية ، فبالعكس عن المدن ، فانهم يدخرون المواد التى تكفى الاسبوع على الاقل .

وذلك – في عمومه – راجع الى ان الحضريين لا يغفلون المستقبل من حسابهم . فهم يسيرون فى نفقاتهم سيرة الحذر والاحتياط ، على عكس البدويين « اشبعنى اليوم ، واقتلنى غدا » فالبدويون ينطلقون من فكرة « حصر التفكير فى الحاضر ، والمستقبل بيد الله » والحضريون ينطلقون من «اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا» .

ويساعد البدويين على فكرتهم تلك ، ما هم معروفون به من ضبط احوال بعضهم بعضا ضبطا دقيقا ، فاذا قال البدوى : اننى فى حاجة الى شىء ما ، فان ما قاله مطابق للواقع ، ورقابة البداوة، تشهد له بذلك . هذا من جهة .

ومن جهة اخرى ، فالبدوى مستعد – بمقتضى اساليب عيشه التى هى اقرب الى الفطرة ، مستعد لكل نعيم وتقشف وبؤس ، لذلك لا يهمه الا الحاضر .

وعلى عكس الحضرى ، فان اسلوب حياته يفرض عليه ان يحتاط كل الاحتياط حتى يحافظ على توازن عيشه ، وليس في استطاعه ان يتحمل مستوى النزول عن مستواه العيشى المالوف لديه ، بل انه يفكر دائما فيما هو اعلى من مستواه .

والبدوى كذلك يفكر فى تطور اساليب عيشه ، ولكن بدون ان يحسب الحساب الذى يحسبه الحضرى ، ثم ان الحضرى اذا ما افتقر الى مادة من المواد ، فلا بد من شرائها .

اما البدوى فان حياته بين المزارع وحقول البقول والفواكه وما الى ذلك . تساعده على اقتناء بعض المواد من اقربائه واصدقائه بدون مقابل وبدون بذل ماء وجهه .

فالبدويون اشفق على معايشيهم فى البادية من الحضريين فيما بينهم .

نعم ، تطبع الوجدى الاصيل والملحق به : ببساطة الملبس ونظافته، مع الاحتفاظ بملبس على الاقل لايامه القومية والدينية .

وسكان وجدة من « ندرومة الجزائرية » اشبه بالوجديين بنوعيهما فى الملبس والنظافة ويفترقون عن الوجديين فى توفير انواع الاطعمة كما وكيفـــا .

والتلمسانيون ارق حضارة كما وكيفا فى جميع المرافق .

اما الفاسيون . فهم فاسيون اينما حلوا وارتحلوا فى كل ما فى فاس من حضارة .

غير انهم فى وجدة ، قد تاثروا بطبيعة المناخ والسكان من حيث التخلى شيئا ما عن ودعتهم الفاسية . فتراهم فى ثورة لاقل شـــىء كالوجديين ، او كسكان « فاس الجديد » فهوءلاء في مستوى ثورة سكان شرق المغرب ، بل حتى من ناحية استعمال القوة .

www. beniZNassen. com

اما بسكان « فاس المدينة » فانهم ودعون باستثناء ذوى المهن «الخرازة والدباغة والنحاسين » فهؤلاء اشبه بسكان شرق المغرب في اللجوء الى القوة عند الحاجة .

واذا ما استوطن اهل فاس الجديد وذو المهن من فاس المدينة ، اذا استوطنوا شرق المغرب تضاعف فيهم اللجوء الى القوة .

فحذار ان يهين احد كرامة الخرازين ومن اليهم فى فاس المدينة ، او سكان فاس الجديد على العموم ، فانهم اسبق الى الضربة الاولى واقسى فالنظرة العامة على الفاسيين انهم ودعون ، نظرة خاطئة لا مخطئة فقط .

اما الفجيجيون فى وجدة ، فالودغيرى(I) وديع لين فى الظاهر ، والزناكى سريع الغضب بادىء التوتر ، وبقية القصوريين هؤلاء واولئك. والكل متعلق باخلاق بيئته حتى خارج فكيك ، وهم فى جملتهم بين الرفاهية والتوسط ، وكلتا الحالتين لا تبتعد ان عن عموم الاخلاق التى الفوها فى مدينتهم

وقد تحدثت فى شىء من التفصيل عن اخلاق الفكيكيين وطبائعهم في كتابى « فكيك المجاهده » نعم كان للفاسيين ، والتلمسانيين ، اثر كبير على تطور اساليب الحياة في وجدة على الخصوص .

فالفاسيون نقلوا الينا حضارة فاس فى جميع مجالات الحياة .

فحياتهم فى وجدة عبارة عن « فاس مصغر » مرونة فى التجارة . وتسامح مع الاسرة ، وما هو معروف من اخلاقهم وطبائعهم في فاس . واخذوا من البيئة الوجدية حظا لا باس به من حيث « الحدة فى الطبع » .

والتلمسانيون فى وجدة ، عبارة عن « تلمسان مصغرة » اناقة فى الملبس ، وخفة روح ، ورقة فى العيش من حيث الكيف .

والمعسكريون نقلوا الى وجدة الجو العلمي المعسكري ، الذى دعموا به الجو العلمي الذى كونه في شرق المغرب الزناتيون وخصوصا من حوالى عهد المرينيين والزيانيين .

فالعالم ، عالم فى حد ذاته ، ومحافظ دينى متطرف .

اما العنصر اليزناسنى والزناتى والصنهاجى فهو متقارب الاسلوب فى الحياة ، ويطبعه سرعة التقليد العام غير المتكامل للعنصر الفاسى .

واما عرب انكاد ، والمهاية فانهم محتفظون بلهجاتهم وعوائدهم مع تقليد العنصر الفاسى من حيث تاثيث المنازل فى الجملة .

واقرب الناس الى تقليد التلمسانيين العنصر الوجدى الاصيل .

والعنصر الفاسى على الخصوص ، والتلمسانى ، هما اصل الحفلات الحضارية فى وجدة ، اعنى الاطعمة المتنوعة كما وكيفا مع تفوق الفاسيين ، والاجواق الموسيقية ، مع استقلال كلا العنصرين بنوعية طرب بيئته .

وكل ما كان من انواع الحلويات هنالك ، فمن العنصرين الفاسى والتلمسانى .

(I) الودغيرى نسبة لواد غير بكسر الغين بصحراء المغرب كما تحققت بذلك بعد طبع كتاب «فكيك المجاهدة» المؤلف .

وتجتمع العناصر الفاسية والتلمسانية والوجدية فى المغالاة فى تشوير العروس ، وكل وجدى كان يميل الى التخلى عن «تزمت الوجدى» يتزوج من الفاسيين او التلمسانيين ، ولكنهم قليلون الامن كان منهم غنيا ، فاسلوب الحياة الفاسية بالخصوص ليس بمتيسر لكل واحد حتى نفسانيا خصوصا من حيث الكم ، وفيما يخص التلمسانيين من حيث الكيف .

(I) انظر كتابى : « معالم من تاريخ وجدة » .

ومن عدا هذه العناصر ، فمقلد للعناصر المذكورة ، اوبان على عاداته التي عاشها قبل التحاقه بحاضرة وجدة ، واسرع بني يزناسن الى فنون الحضارة ، اهل عين الصفا وخصوصا بني «مريسن» بفتح الميم وكسر الراء وفتح السين وسكون النون و «لكعاوشة» بفتح اللام وسكون الكاف والواو، وبني خلوف .

وعين الصفاء و«صفرو» هما مساكين بني يزناسن الاولى(I) ، غير ان بني خلوف هم من «زناتة» وليسوا من بني يزناسن . وقيل انهم ادريسيون .

واذا بحثت في اوساط وجدة ، تجد هذه العناصر الآنفة الذكر ، اكثر عناصر الوجديين الاصلاء او القدماء باضافة عنصر «الابصارة» ، وعنصر بني موسى ، وعنصر حركات او رسلان مع اسر متعددة من كل بطن يزناسني تقريبا .

وباستثناء الفاسيين والتلمسانيين ، فتقاليد كل العناصر متقاربة الا في بعض الصور والالوان كاختلاف مخارج الحروف بين اليزناسنيين ذاتهم . وبينهم وبين العرب ، واختلاف اللهجات الشلحية مع امكانية التفاهم جدا .

ولا شيء في وجدة غير الفلاحة والتجاره ، الا صناعات تقليدية تافهة النتائج وليس لحاضرة وجدة حواشي كحواشي الحواضر المغربية من قرى صغيرة فيها مقاه ومطاعم . الا تلك الواحة الصغيرة ، سيدي يحيى ولها مقاه بين بدوية وحضارية .

وبعد هذه التفصيل المختصر عن عناصر اساليب حياة سكان وجدة فان الكل يطبعه طابع واحد ، سرعة الثوران ، والتحدي لابسط الاشياء ، ويغضبون دفعة واحدة ، ويرجعون دفعة واحدة ، وتكاد لا تعثر على التوسط الا نادرا . وهو طابع شرق المغرب كله .

من هذه البيئة انتقلت الى البيئة الفاسية لطلب العلم . وشمرت لاول خطواتي على تربة فاس ، كاني انتقلت من امة الى امة او على الاقل ، من شعب الى شعب ، كل له مظاهر اساليب حياته الخاصة . وان كان الكل سواء في العناصر الاساسية للامة المغربية .

وذلك ما جذبني جدا الى الاعجاب بالاساليب الفاسية في الجملة واثر اهتمامي واكباري للحياة العلمية والادبية والفنون الجميلة وخفة مئونة «الفضول».

ولو لم تكن الا الاخيرة ، لاثرت ان اعيش في فاس كل حياتي ، فطبعي ينفر من الفضول كل النفور ، ومن اجل تلك السنوات القصيرة التي قضيتها في فاس حبب الى ان اكتب عنها مذكراتي هذه اكراما لتلك المدة القصيرة التي قضيتها هنالك ، والتي هي في الحقيقة اكرام واعتراف لما للحضارة الفاسية على تكويني الفكري والخلقي من فضل .

وما غير ذلك اردت ، والله اسال المغفرة فيما عسى ان اكون قد اخطأت فيه سبيل الادب امين . . والحمد لله رب العالمين

قبل التحاقي بالقرويين(1)

نظرة عميقة ، او عابرة على البيئة العربية سواء في الجاهلية ، ام في الصدر الاول من الاسلام ، او عهد الخلفاء الراشدين ، وبادئ تعبير من وفاته عليه الصلاة والسلام الى سنة 41 هـ ، قلت نظرة على تلك البيئة ، ندرك ان طابع العروبة البارز هو الصراحة ، فالعربي في احاديثه المتنوعة وتصرفاته المختلفة لا يسلك المسالك الملتوية كان ذلك شعرا او نثرا ولا تجد للرمزية والغموض أثرا في حياته ، باستثناء أسلوب الكهانة والسحر في عهد الجاهلية ، وأساليب الرمزية والفقر والغموض وما الى ذلك ،

اساليب طارئة على البيئة العربية جاءتها اولا من وراء حدود الجزيرة العربية شرقا ، ومن ورائها غربا . والوضوح فى الشخصية العربية وليد البيئة العربية كما ان الغموض وما فى معناه وليد البيئات الملتوية فى غير الجزيرة العربية .

فبساطة اساليب الحياة فيها فى الجاهلية والى نهاية عهد الخلفاء المنعكسة عليها ، من صميم طبيعة صحرائها واجوائها الواضحة ، جعلت من العرب شعبا واضح المعالم ، واضح الصور نجد ذلك متجليا فى جميع جوانب الشخصية العربية .

وبناء على ذلك ، ستكون هذه السلسلة من ذكرياتى في فاس في عهد الدراسة فى القرويين .

واصدق القارىء فاقول : اننى ـ شخصيا ـ خلقت هكذا صريحا قبل ان ادرس الحياة العربية من جميع جوانبها ـ او كما يخيل إلى اننـــى درستها .

قبل التحاقى بالقرويين ، كانت مخيلتى ، او حافظتى مليئة بشتى الصور الباسمة والمفزعة عن « الغرب والغرابة » .

وكنا قبل ، ندعو « الغرب والغرابة » : من وراء تازة .

وبكل صراحة ، فان الصور المفزعة كانت اكثر من الصور الباسمة فى مخيلاتنا او حافظتنا اوهما معا .

وبكل صراحة ايضا ان الفاسيين الذين استوطنوا وجـدة ، وابزكـان خففوا كثيرا من الصور المفزعة من حافظاتنا ، وجعلوا حدا ما ، لسبحات مخيلاتنا . فلطافتهم التى لا عهد لنا بها ، كانت بمثابة الضوء الاخضر تحملنا على اقتحام حياة ، او عالم «الغرب والغرابة» من وراء تازة .

فنحن كنا فى المغرب الشرقى بين عالم ما وراء تازة «المرعب» وعالم

غير ان هذا الثاني كان ايسر على نفوسنا ، فعلى الرغم من عدم خبرتنا باستعمال « المطرك » اعنى العصا أثناء الحاجة ، فاننا نلتقي مـع الجزائريين في وضوح اساليب الحياة ، ولا نقل عنهم شجاعة ومغامرة . ويعد هذا العامل الوضوحي من الاسس التي حملتنا في مختلف مراحل حياتنا على الميل الى اقتحام ما وراء « زوج ابغال » او «زوج فاقو» كما تدعى اليوم اى عهد الثورة الجزائرية .

وعلى العكس من ذلك فيما وراء تازة . فقد كان الرعب جدا مما كنا نتصور من التواء الدروب في اساليب حياتهم .

وكلما سمعنا احاديث عن « هركمـة » و «الخليع » و « الكفـة » الا وتصورنا انها من اللحوم البشرية التي يغرر بها بذلك الأسلوب الملتوى الجهنمي ، ظاهره لطافة وحلاوة ، وباطنه خداع ، ومكر و « جناوة » للذبـح والتقطيع ، ثم « هركمة » و « الخليع» و « الكفتة » .

فكان يخيل الينا ان احدا منا لا يستطيع ان يثبت اقدامه على هذه الأرض المليئة بالالغام . ولو كانت الغاما مادية ، لما اكترثنا بها ، ولكن ـ يا حبيبي ـ من ذا الذى يخيـل اليه ظن السوء في شخص يعانقـك ، ويهش ، ويبش ، ويسألك ـ بكل حرارة ـ عن احوالك واحوال الاسرة ـ وهو يتحين فيك الفرصة للانقضاض على ذات روحك .

هكذا كان يخيل الينا ، او الى على الاقل ، اذا كان هناك من لا يشجع على الكلمة الصريحة يعبر به عن نفسه .

اذن ، كيف أجرؤ انا في اوائل الشباب على التحاقي بالقرويين ؟

وبكل صراحة ايضا اقول : ان الفضل الاكبر في تقوية عزمي على ذلك : يرجع الى استاذى مقرئى الاول سيدى على بن البشير بن علـى الورطاسى اعنى والدى اطال الله حياته وسلامته .

ففى ذات يوم ما ، افضيت اليه بعزمى ، وتخوفاتى ، فابتسم رضى الله عنه وقال : اننى اتشخصك ، بحق ، سريع الادراك - فكل ما فى الامر : عليك ان تقتحم حياتهم بحذر الغريب عن بيئته كشأن كل غريب عن بيئته ليس الا ، وانا كفيل - يقول والدى - بانك ستصبح « غربى » لايام قلائل هناك ، وخصوصا انك مارست معى اساليب التجارة منذ الطفولة وقلما يخدع التجار عن فرنكات من اموالهم فضلا عن ارواحهم .

وبرغم اطمئناتى الى توضيحات والدى ، سألته : ولكن ما شأن : هركمة ، والخليع ، والكفتة ؟

فابتسم ايضا وقال : الاولى - يا ولدى عبارة عن ارجل البقر تهيأ مع الحمص والقمح والروز ... كطعام فى يوم الجمعة عادة ، وهو طعام يطال نضجه حتى يكون فى مستوى « الصابون البلدى ، وما الذه واحلاه ...

والخليع ، عبارة عن لحم من البقر ، او الابل الفتية ، يملح ويعرض على حراره الشمس فاذا يبس طبخوه طبخا خاصا ، ثم وضعوه فى خواب كطعام مدخر ، ينالون منه عند الحاجة .

وعند ذبح عجلة ، أو جمل لذلك ، تقام حفلة عائلية تدعى - « حفلة الخليع » ويمر يوم كاحلى ايام حياتهم ، اطعمة متنوعة ، وبخور ، وزهور ، وورود ، و « سماع » اى اغانى فى راسها : لاله الا الله . ويدعى لها الاحباب ، والاصدقاء ، وهكذا - يا ولدى ، يخلق « لغاربة » الفرص لحياة المتع والملذات ، وبذلك تتقارب ، او تمتزج مشاعرهم ، وعواطفهم ، وتقوى روابط الاخوة والمحبة بينهم ولا سيما اهل فاس .

قلت : عجيب ، ما احلاها من اساليب المتع والملذات ، اما الكفتة فهى عبارة عن لحم من بقر غالبا يدق ، او يطحن . ثم يمزج بالابازير والقزبر ، والمعدنوس ، والثوم والبصلة فيطبخ او يشوى على قضبان .

www. beni2naasen. com

قلت : لماذا كل هذه الالوان من الطعام ؟ فهم يخالفوننا كثيرا . نحن: سكسو وطجين بسيط ، بغرير : لمسمن (1) ، شواء . وهل لهم أطعمة غير هذه التي شرحت لي ؟ فقال : انواع كثيرة .. وسترد فتعرف ما تعرف ، وما لا يمكن ان تعرف ..

فقلت : لماذا الهركمة ، والخليع ، والكفتة ؟

فقال : ان منازلهم مليئة بالمدخرات السنوية ، وقد تجد عندهم الطعام الذى يكفى لسنتين مثلا ، ذلك انهم عاشوا قبل الحماية فى عهود تتخللها الفتن ومن حين لاخر يغلقون ابواب مدنهم فى وجوه المهاجمين ، فيلجاون الى تلك المدخرات ، على عكسنا نحن ، نلجأ الى شواهق الجبال وما لنا من غابات ، ونعتمد ـ اذا جعنا ـ على الغارات .

فالاسلوب الحضارى غيره فى البوادى ، ومن ظروف الحياة تتكون اساليب حياة الشعوب والامم والافراد ..

ثم ان معدهم ، وامعاءهم غير معدنا وامعائنا ، فبقدر ما تتحمل امعاؤنا من خشن الاطعمة بقدر ما لا تتحمل امعاؤهم التى لينتها الحضارة .

هنا زفرت زفرة اندهش لها والدى ، وقلت : آه يا والدى ، ان امعاءهم غير امعائنا ، هنا تمكن مصيبة ولدك قدور .

فنحن على الرغم من تحمل امعائنا لخشونة الطعام ، نكتفى بنوع منه، وهم فى حاجة الى انواع ، ومن الانواع ان يكون « لحم ولدك » ، ولا اخال ان ذكائى وسرعة ادراكى يمكن ان ينقذانى من صيرورتى خليعها او كفتة .

---

(1) لمسمن بفتح اللام والسين وسكون الميم الاولى وشد الميم الثانية مع الفتح وسكون النون هو عبارة عن «رغائف» الحاضرة والاول اكبر منه حجما .

فعلى اى حال ، فقد خففت على كاهلى بعض العبء ، ووالله لئن شممت ريحة خداع او مكر «لاقاتلن» بعصاى هذه حتى اموت ، دون ان ارى نفسى اقطع اربا ، اربا .. للخليع والكفتة . « كنت فى اول الامر ، استحم وعصاى امامى اقفز اليها لابسط نظرة مريبة ولا ارد التحية الا اذا تحققت من صاحبها » ...

« الى فاس » (2)

قبل ان اعزم على السفر الى فاس بقصد الدراسة : كاتبت الاخ المرحوم ادريس بن عبد القادر اليزناسى البرحيلى فرحب بى معه فى حجرته رقم 6 ، الطبقة السفلى بالمدرسة العنانية ،

وكانت هذه المراسلة فى شهر شعبان عام 1351 هـ .

فما كان منى الا ان اخبرت والدى بذلك فقبل وانشرح صدره وقال : « لقد كنت يا ولدى دائما اتمنى ان تدرس فى فاس . فقلت : لماذا ؟ فقال : ان وجودك فى فاس يفيدك علما وتكوينا فلقد عرفت اهل فاس منذ اعوام، فعرت فيهم الذكاء واللطافة والمرونة : واريد ان يكون ولدى متكونا على هذه الاسس . وكن مطمئنا بالرحلة الى فاس بعد عيد الفطر المقبل ان شاء الله.

كانت لنا بقرة غراء حلوباء وهى اجمل واحسن ما عندنا فباعها والدى رضى الله عنه باربعة وسبعين ريالا ، وسلم الى الثمن كله .

وكم كانت فرحة والدتى رضى الله عنها بذلك : برغم حبها لتلك البقرة ، فلقد احبتنى حبا خاصا : وكانت ترى كل شىء رخيصا فى سبيل رغباتى . ولا سيما منها : العلم ، وفي صباح الثلاثاء وهى عاشر شوال 1351 هجرية الموافق 21 فبراير سنة 1932 م. ودعنى والدى فى المتجر الذى لا يزال يتجر فيه الان بشارع الجزائر بابركان .

وكانت له رغبة في ان يصحبني خوفا علي . ولكنني قلت له : دعني اسافر بمفردي ، فان نجحت فتلك اية رجولتي : وان لم انجح ، فما لك من حاجة في ولد لا يستطيع ان يسافر الى فاس ، ويدافع كل مكروه عن نفسه .

فضحك وقال : كثير من الناس قالوا لي : لا تدعه يسافر وحده ، وكثير قالوا لي : لا ترسله الى فاس فانه سيكون « عصريا » اى وطنيا. ولكن يا ولدي ، لا ابالي باي ما قيل ، فارحل على بركة الله وصوف لا يصيبك اى ضرر بحول الله .

خرجت مفردا – من ابركان في حافلة اسبانية واديت ثمن الركوب من ابركان الى وجدة ، اربع فرنكات

وكان طبيعيا – ان أزور أساتذتي وأزورهم طالبا منهم دعوات الخير .

فالتقيت بهم وهم العلماء الشيوخ السادة : محمد المازوني ، محمد النكادي ، الحاج احمد بن التهامي ، الحاج عبد القادر الكندوز امام المسجد الاعظم ، بنسعيد بن عبد الرحمان الوشاني اليزناسني الخالدي ابو بكر بن زكري الناظر ومدير المعهد .

وباقي شيوخي كانوا صاروا الى رحمة الله .

وفي يوم الاربعاء الموالي ، اخذت ورقة الركوب في حافلة « زكار » سبعة وأربعين فرنكا وخمسين سانتيما بالضبط . وأديت فرنكين ونصفا عوض « الصندوق » الذي فيه كتبي وكسوتي لحمله الى الحافلة من المدرسة الى سوق الخميس .

وكان موعد السفر الساعة الثانية صباح الخميس رابع عشر شوال 1351 هـ ، 23 فبراير سنة 1932 وكانت ليلة مقمرة كانها اللجين وصهر معي الاخوان المرحوم السيد عمرو اليزناسي الخالدي الزياني ، والسيد اتويدر

ابن بومدين اليزناسني الشحلافي ، ولكن هذا الاخير غلبه النوم فاسلمنا الى حين موعد الذهاب الى الحافلة بسوق الخميس .

وفي الساعة المحددة ركبت « حافلة زاكار » وودعني هنالك الاخوان المذكوران .

لا استطيع ان اصف ما خامرني من خيالات على مدى طول الطريق . فقد كنت نهبا لشتى الصور الخيالية المفزعة ، وحينما انقلق جدا اتلوا كتاب الله فاجد برد الراحة ، ثم لا تلبث الصور المفزعة ان تعود لتحطيم اعصابي ، وقد فعلت ذلك طول طريقي من وجدة الى فاس .

وكم تزعزعت معنويتي وقلت آه . . لماذا لم اترك ولدي يصحبني فكلما ابتعدت عن وجدة ، شعرت بعميق الالم لمفارقتها ، ثم قلت في نفسي :

اين مني سوق الخميس الذي يعج بالغادين والرائحين في المساء ترويحا عن النفس وتمتلىء مقاهيه بالرواد، وهم يتجاذبون اطراف الاحاديث المسلية طورا في همس ، وطور برفع اصواتهم ؟ اين مني مني مقهى الدحماني باسطوانتها الجزائرية الممتعة ؟

اين مني سيدي عبد الوهاب بهرجه ومرجه ؟

اين مني سيدي ادريس الذي كنا نتمرن في طرقه على ركوب الدراجات مساء كل اربعاء ، ولا نرجع الا والدماء تسيل من ارجلنا ، والثياب ملطخة بزيت التشحيم ؟

واين مني السيد احمد احجيرة الفاسي وهو يؤجلنا نحن الطلبة بتادية ثمن ثيابنا الى اجل غير مسمى . طورا يسجل ذلك في كناش ، واخر ينساه ، فمن كان له ضمير ادى له ذلك ، ومن لا اكله .

واين مني الحاج احمد بن المصطفى التلمساني الحوتي « والد بوتفليقة

ولطافته معنا فى البيع مع شىء من الغلاء فى القسارية ؟

واين منى واحة سيدى يحيى ونحن الطلبة فى نزهة ، وعلى حساب المرحوم السيد عبد القادر بن بوعزة الندرومى « عقيم » وهو يكرمنا غاية الاكرام رحمة الله عليه ؟

واين منى حياة المعهد مع الطلبة : رقة خلق ، ووفاء واحترام ، وسهرات بريئة فى القاعة ، قاعة الدلوس ، قرب مساكن الطلبة ؟

واين منى ؟ .. واين منى ؟

وصلت الى فاس ، ودار الدبيبغ بالضبط ونزلت من الحافلة ولم اجد اخى ادريس البرحيلى فى انتظارى . والاولاد « يتهاوشونني : ابغيت كوتشي .. ابغيت طاكسى .. احمل معك .. تريد اوتيلا ؟ الى اين تريد الذهاب ؟ من اين انت ، من اين جئت ؟ الى غير ذلك من الاسئلة المزعجة .

واحتد ، واغضب ، فاحمل على الجميع بعصاى « خنزرانة » ويتفرقون بسرعة وهم يضحكون فامطرهم وابلا من السباب والشتم .

ثم اقول فى نفسى : لا احتاج فى الدفاع عن النفس هنا فى فاس الا الى مثل هذا التخويف فلو كنت فى وجدة لحطم الاولاد عصاى على راسى ، انهم مشاغبون اشداء ، اما هؤلاء فيتفرقون بسرعة وهم يضحكون، وفيما يتعلق بالكبار فلا داعى لمخالطتهم ، دروسى ، وحجرتى ، والسلام . ثم اذكر حديث والدى معى : انهم لطفاء مرنون ، فيعاودننى الخوف من هؤلاء الشياطين ، وبعد استراحة قليلة ذهبت الى صاحب عربة للخيول وركبت معه الى «باب ابى الجنود» بثلاث فرنكات ونصف .

ولما وصلنا الى حى الملاح لاحظت حافلة طويلة مليئة بالركاب وهم يركبون بسرعة ، وينزلون بسرعة ، فخشيت من هذا المنظر الغريب ،

وقلت في نفسي : لابد ان حريقا وقع ، والناس يفرون بجلودهم ، وكدت انزل من العربة وافر معهم ، ولكن الى اين ؟

فسألت صاحب العربة عن هذا المشهد الغريب على نفسي فقال : انه الاطوبيس والناس يركبون وينزلون في مختلف المحطات ، فحمدت الله على ذلك ، وحينا تذكرت انني قلت لصاحب العربة انى اعرف فاسا « تضليلا له » ، ولكن سوءالى له عن الاطوبيس يكذب ادعائى ! غير انني قلت : انه لم ينتبه لذلك ، ثم تذكرت ، اللطافة والمرونة فقلت : ومن يدرى انه تفطن لذلك وكتمها في نفسه ؟ !

ولما وصلنا الى فاس الجديد رايت الشارع مسقفا بالقصب ، والناس في ازدحام لم اعهده ، فقلت لصاحب العربة : لماذا هذا السقف ؟ فقال : اتقاء للمطر ، وهكذا فاس .

اتقاء للمطر ؟ ! بل انه من اجل تكوين الظلام للذبح فالكفتة ؟ !

ولكنني استسلمت وشجعني الخروج من ذلك الجزء المسقف فرايت الشمس مشرقة والناس يتماشون ويضحكون ، فرجع الى بعض الاطمئنان.

ولكن تعبى من السفر من وجدة الى فاس جعلني اعتقد ان « باب ابى الجنود » ربما تقع في جبل «قاف» فسألت فاين بوجلود ؟ فقال هو قريب جدا . ثم قلت في نفسي : آه ، كم تناقضت مع صاحب العربة : ولكنه الرعب من العالم المجهول ، فذلك هو عذري .

نزلت من العربة فاحاط بى جمع من « الشياطين » فما شعرت الا وانا في وسطهم كصاحب الازليات ، وانهالوا على بمثل الاسئلة السابقة ، ففرقت جمعهم بعصاى ، فتفرقوا وهم يضحكون ، فقالت : يا رب ما امهر هوءلاء الاولاد وارزنهم ، اضربهم بعصاى فيتفرقون وهم ضاحكون .

وهنا تقدم الى شاب برزانة وقال : انت طالب ؟ هل تريد البوعنانية؟ قلت : نعم ولكن اذهب الى المدرسة وادع الى السيد ادريس البرحيلى من الحجرة رقـم 6 .

فعاد ليقول لى : ليس موجودا هنالك ، ولكن السيد احمد بن على زعنان البدرى يقول لك انت فى امان الله وحفظه . فحمل صندوقى وانا امشى خلفه مستعدا كل الاستعداد للانقضاض على اى احد يرمقنى رمقا مشبوها فيه .

ومن سوء حظى اننى وجدت الزنقة فى الطلعة الكبرى القريبة مـن المدرسة مسقفة بالقصب ، ولاحظت « الصابون البلدى » والخليع ، والقوق المشوك ، ولملوخيا ، فعاد الى فزعى : ولم يطل كثيرا حتى شاهدت السيد احمد المذكور واقفا بالباب وهو يرحب بى . فتنفست الصعداء وقلت : اين ادريس ؟ فابتسم وقال : ذهب لاستقبالك ، وسيرجع ، هيا الى حجرتى رقم 34 وبسرعة فائقة كان الشاى والسفنج مهيأين ، ثم رجع ادريس وهو يبتسم وتبادلنا قصة وصولى ، وقصة استقباله لى . واخذنا نضحك جميعا من تلك الخيالات التى ساورتنى منذ خرجت من وجدة الى العنانية .

وقد تناولنا طعام الغذاء عند السيد احمد المذكور « اللحم والزبيب » وكتبت على ظهر محفظتى : « دخلت الى المدرسة العنانية يوم الخميس على الساعة الثامنة صباحا رابع عشر شوال عام 1351 هـ .

الى حلقات الدروس «3»

قبل ان يحين وقت تناول الطعام فى الحجرة 34 صباح وصولى الى العنانية ، ذهبت لالقى نظرة عامة على الحجرة التى ساسكن فيها مع صديقى

ادريس البرحيلي رحمه الله . كانت في الطابق السفلي وضع في أعلى عتبتها من الخارج رقم 6 لم تر نور الشمس منذ بناء المدرسة .

فالرطوبة ترحب بي اينما وضعت قدمي ، او وصل اليه نور بصري، والبصر لا يستطيع ان يتبين الاشياء داخلها بوضوح .

وعلى الرغم من النظافة المتناهية التي كان الرفيق مبتلى بها الى حد الحمق ، فان فضائل العناكب كانت مخيمة هنا وهناك ، وكأنها كانت بمثابة خزينة المدخرات لجيوش البق ، والحرش التي لو اعترضت جيوش المغول على ضفاف نهر « جحون » لما استطاعت ان تصل الى بلاد الرشيد والمامون لتحطم ما بنياه من الحضارة العربية التي كانت مورد الشرق والغرب . ولو اصطفت على نهر الفراتين لما كلفت المصريين تلك التضحية التاريخية لايقاف زحف المغول بصفة نهائية نحو العرب. ولكفت عالمنا الخالد الذكر عبد الرحمن بن خلدون مونة السفارة التي قام بها بين مصر والمغول في تلك الظروف .

واننا نحمد الله على ان المدرسة حينذاك ، لم تكن مضاءة بالكهرباء ، فقد كنا نستضيء «بنور» الغاز .

فالبق والحرش ، اى جيوشهما لا تتمحل ضوء الكهرباء ، اذ يصيبها سعار جنوني به فتجدها تتسابق ، وتتلاحق في شبه كوكبات ، فكانه وقع حريق مريع في خيامها فلا ينجو منها شيء ، ولا احد ، فهي في الثياب المعلقة ، في الطعام في الماء ، في كل شيء فيصبح جسدنا ، وكأن « نكافة » ماهرة بالحناء قد زخرفته ببراعة متناهية . أما الفراش المتواضع جدا والموضوع فوق حصير « السمار » فاننا نجده في الصباح ملتصقا بالارض . وتكاد تعصر منه الماء الكافي للظمآن .

وليت المصيبة وقفت عند هذا الحد ، فبمجرد ما نطفيء مصباح

الغاز ، تبتدىء فرق الفيران فى المسابقة الرياضية مشيا على « الاقدام » وتابى فراخها الا ان تشاركها فيسقط بعضها علينا تارة ، وداخل « سطل الماء البعد للشرب تارة اخرى ... وبينما نحن فى معاناة هجمات الفيران، والبق والحرش ، اذا بضفدعة او اثنتين يرجعان الحانهما المعتادة ، ولا يحول غداوءهما الذى هو تسبيح الله وتقديسه دون اذايتنا بمتنوع الاذايات ، مثلهما كمثل المنافقين الذين تراهم ينفاون قبل الصلاة وبعدها، وحتى بعد صلاة العصر ، وقبل ان تصعد الشمس الى السماء قيد رمح . ولكن تلك النفيلة لا تحول بينهم وبين اذاية الاسلام والمسلمين .

سألني صديقي ادريس رحمه الله ـ وهو يبتسم ـ : ما رأيك في هذا المسكن ؟ لم اكن اذ ذاك قرات كتاب البوءساء ليفيكتور هيجو. والا لاكتفيت بقولى : لو كان صاحب الكتاب حينما نفته حكومته الفرنسية الى «بايجيكا» 16 عاما ، وهناك الف كتابه ، يعلم مثل هذه الحجرات التى يعيش فيها الاجيال الذين سيطردون قومه من المغرب العربي لاختار المغرب ليحجز حجرة مثل هذه ليكتب اولا عن الشقاء فى منتهى قساوته من جهة ، وليطمن ابناء قومه على عدم خلودهم فى المغرب العربى من جهة ثانية فان من يعيش في مثل هذه الحجرات يفقد صحته واتزانه قبل ان يصبح عالما . وكان ينصح بنى قومه على مداراة ابائنا ريثما ينتهوا ويخلفهم جيلنا المتضعضع ماديا ومعنويا .

ومع ذلك ، فان الالطاف الالهية رات الا ان تغمز هوءلاء الطلبة لتهيىء منهم قادة اوفياء للاسلام والمسلمين ، فكانوا طليعة التحرير الوطنى .

ولكننى اكتفيت بقولى : نحن درجنا فى البادية ، ومثل هذه الاتعاب قد الفناها او الفنا ما يشابهها ، فلن يكون لها اى اثر على همسنا، وعزائمنا، ومطامحنا . وسنتغلب عليها فى النهار بالمكث فيها لحظات الضرورة ، ثم

نخرج منها إلى حيث النور ، والهواء والجفاف ولا نبالي باقتصاصها منا في الليل ، فاليوم لنا والليل لها . ولا تهتم بمن يلجئون الى المخادعة في الليل ويجبنون في النهار ، فاستغلال «الظلام» جبن والمواجهة في النهار شجاعة ، ولن تكون العاقبة لغير البطولة ، فليل الجبناء المخادعين كايالى الصيف قصيرة ، والبقاء للبطولة لا للجبن والمماكرة .

نعم درسنا برنامج حياتنا في هذه الحجرة ، فقلت له : انت غير خبير بشراء المواد وغير خبير بطهي الطعام ، فماذا تقوم به «رسميا» ؟ فاجاب : اكفني ما وراء الحجرة ، واكفيك ما في الحجرة ، انني لما ازل ـ وقد مرت على ثلاثة اشهر ـ اعاني من اقتناء المواد لانني لاافهم بسرعة لهجتهم السريعة المقتضبة الممزوجة بالايماءات ، والاشارات ، والنكت المتنوعة . فما خرجت لأقتني شيئا ما ، الا ورجعت محطم الاعصاب ، فانني اشعر كانهم كلهم يهزؤون بي ، ولا سيما حينما يفهمون من لهجتي : انني « واسطى » ـ يا اخي هنا ؟

رافقني لاشتري « لبدة خضراء بفرنكين و50 سنتيما ومحفظة كتبت عليها بما يقارب حرفيا : دخلت المدرسة العنانية في فاس صباح الخميس على الثامنة ونصف ، تاريخ 14 شوال عام 1351 هـ . ثم امتحنني المرحوم العلامة سيدي عبد الواحد الفاسي ، والد الرئيس علال الفاسي والتحقت بالسلك الابتدائي . لقد كنت جريئا في كل موقف الا امام العلماء .

فلولا خجلي لما الحقت بالسنة الثانية من الطور الابتدائي ، فلقد كنت احفظ « الالفية » وافهمها عموما ، ودرست ج ل من الشيخ خليل ، والتحفة التي كنت احفظ الثلثين منها واتقن الفرائض والمناسخات .

ولكن خجلي افقدني ذاكرتي .

ولم تمض على دراستي بضعة اسابيع حتى كان اساتذتي يعجبون

www.BenIZNASSEN.com

من وجودي في الطور الابتدائي وفي السنة الثانية .

فكان المرحوم سيدي عبد العزيز العراقي شقيق استاذي «في خليل» العلامة سيدي عمر العراقي يحيل اسئلة التلامذة علي ، فاجيب : اعني في النحو عن كل سؤال ببيت من الفية بن مالك الجياني .

ومن عادته ـ رحمه الله ـ ان يقول لي : أجبهم أيها الطالب الذكي .

مكثت في هذا الطور شهرين ، وتبين لي ان بقائي فيه ضياع للوقت فقط . وكل ما استفدته هو تمرني على مناقشة الاستاذ والطلبة . اعني انني اكتسبت شجاعة ادبية كنت في حاجة ماسة اليها . اذ هي التي حالت دون ان الحق بالطور الثاني.

لذلك جعلت ادرس حرا بعد المهلة التي اعطيت للطلبة الآفاقيين وهي ثلاث سنوات ليلتحقوا بالنظام اجباريا .

فكان برنامجي ، ان ادرس النحو والصرف والبلاغة مع حفظي لديوان ابي تمام ومقامات الحريري في سنة واحدة، وصممت العزم على عدم قضاء العطلة بين أهلي، فأتابع الدروس الصيفية التطوعية. وقبل ان يدور العام كنت انتهيت من دراسة ذلك . فمنذ سنة 1933 لم ادرس النحو والصرف والبلاغة على احد ، الا دراسة بضعة اسابيع على شيخنا العلامة سيدي محمد بن عبد الرحمان العراقي والمرحوم الفقيه السيد جلول اليوسي اللذين كانا يدرسان معنا الالفية « المسرودة » .

واهم دراستي ، النحو والصرف على اساتذتي العلماء السادة : مولاي العباس الامراني ومولاي رشيد الدرقاوي ، وبنسعيد المكناسي .

اما الاول فقد كان درسي الاول عليه : «جمع الذي الالى ، الذين معهما ،وبعضهم بالواو رفعا نطقا ، »الى النداء والثاني من النداء الى النهاية ، والثالث لامية الافعال بحرق الكبير ، ثم الشافية لابن الحاجب ،

والبلاغة والمنطق كان بين الثاني ، وسيدى العربي الشامي ، والفقيه السيد محمد الحبيب «الصوفي» .

اما الفقه ، فكان متن « خليل » الاجزاء الثلاثة على المرحوم سيدى الحسن الزرهوني او العمراني كما ينتسب ولده اليوم ، اما في القرويين فلم يعرف الا بالزرهوني ، و «الاجارة» على المرحوم الامام السيد ادريس الضرير المراكشي ، اما التوحيد ، فعلى الشيخين السيدين محمد الطاهري ، ومحمد بن عبد القادر الصقلي ، ودروسا على شيخنا الماهر الفصيح البليغ سيدى عباس بناني بموءلف الشيخ الطيب بن كيران على عقائد ابن عاشر

وكان كل هذا في سنة 1934 م

اما الحديث « البخاري » فعلى سيدي بنسعيد المكناسي في جامع العنانية ، وكنت السارد ، ودروسا على أبي شعيب الدكالي والقاضي سيدي محمد السايح رحمهما الله .

وهناك دروس لم تدم كثيرا على اشياخي العلماء السادة : وهم مولاي احمد العمراني وسيدى ابو الشتاء الصنهاجي ، وسيدى الحبيب المهاجي ، وسيدى محمد بن سودة الخطيب ، وسيدى عمر العراقي ، والعلامة الوقور سيدى عبد الرحمن الغريسي ، والمرحوم الخطيب سيدى الهادى بن المراز الخطيب بجامع العنانية اذ ذاك .

« من خلال سني الدراسة » (4)

اول ما لفت نظري داخل حلقات الدروس ، ان جل الطلبة يسألون الاستاذ ويناقشونه في بعض الاحيان دون ان يبدى ازاء تكاثر الاسئلة والمناقشات اى اشمئزاز او ضجر فاسأل ما شئت ، وناقش ما شئت ، وعارض ان شئت والشرط الاساسي ان تكون هادئا ، وينبغي

www.beni2waseen.com

سؤالك عن عدم تفهمك مع بذلك جهودك فى المطالعة والمراجعة .

وفى بعض الاحيان ، ومع بعض الاساتذة تتخلل الدروس فكاهات ونكت اما من جانب الطلبة ، واما من جانب الاستاذ ، وقد يكون هذا شيخا كبيرا ، لكم كنت اولا مندهشا من هذه « الجراة » على الفقهاء ، ثم تحول اندهاشى الى سرور عظيم .

فانغلاق الشيخ ، او الاستاذ يحول كثيرا دون نشاط الطالب وانبساطه للاخذ والرد على الشيخ ، او الاستاذ فى ادب طبعا .

وكان سبب اندهاشى الذى تحول سرورا : اننى كنت ورفاقى ، الفت الصمت خلال حلقات الدروس فى معهد وجدة .

وكان يبدولى ـ وانا فى معهد وجدة : ان ذلك راجع الى شيوخنا الوقورين جدا ، ثم اننى رجعت عن هذا الراى الى راى عللته بان طلبة المعهد فى وجدة لم يكونوا يبذلون جهودهم الضرورية للمطالعة والمراجعة ، ولا يسال ، او يناقش ، او يعارض الا من مهر درسه كامل طاقته ، فسال لانه لم يفهم ، او ناقش او عارض لانه فهم فهما صحيحا وتناقض له مع ذاكرة الشيخ او فهمه .

ثم رجعت الى راى آخر وسط . فتقصير الطلبة ، ووقار الشيخ كانا كخشبتين اختنق بينهما السؤال والمناقشة ، والمعارضة ، وهذا ما اعتمدته، وما زلت اعتمده فى رايى فرقا بين دراسة معهد وجدة وفاس ، وتبعا لذلك ، فقد كان طلبة شرق المغرب فى فاس يبدون فى شرق المغرب امام طلبة معهد وجدة كانهم اساتذة ، حتى الذين دخلوا الى القرويين فارغين وخرجوا فارغين ، ولم يتفطن لهم طلبة معهد وجدة الا بعد حين .

ثم ان طلبة معهد وجدة كانت مطالعتهم لا تتجاوز الدروس القائمة ، فاذا بطلبة القرويين يطالعون فوق ذلك كتبا بعيدة المواضيع عن الدروس

القائمة فتراهم اما يحفظون الشعر من مختلف الدواوين ، واما يتابعون قراءة الصحف والمجلات الشرقية ، واما يقرضون الشعر ، او يتناشدونه الى غير ذلك من الموضوعات الجانبية ، وذلك كان من الفائدة بمكان .

وفى ايامى الاولى لفت نظرى تلك المتاجر المكدسة بمختلف الكتب امام احدى ابواب الجامعة ! فتسالت : هل من الممكن ان يقر الانسان كل تلك الكتب ؟ وهل للدراسة العلمية نهاية فى الجامعة ؟

وحيناجاءنى الجواب واضحا ففهمته ، وتذوقته جدا . . .

ان الاسلوب المتبع فى الدراسة حينذاك فى القرويين اسلوب عجيب ، لو انك تريثت قليلا ـ يقول مجيبى عن اسئلتى ـ لادركته ، الامر الذي لا يلجئك الى مثل هذه الاسئلة الصبيانية .

فقلت : وكيف ؟

فقال : كثيرون من شيوخنا هنا يدرسون معنا مختلف العلوم ، وبعضها لم « يختموها » على شيوخهم ، واخرى لم يدرسوها قط على شيخ من الشيوخ !

قلت الان .. ضاعفت من عجبى ، واندهشى ، علوم لم « يختموها » واخرى لم يدرسوها ، فكيف يفهمون اواخر ما لم يختموا ؟ او ما لم يدرسوا ؟

وكانى قلت فى نفسى : انه عالم عجيب تورطت فيه لتحكيمى العاطفة ، واهمالى جانب المنطق .

فلعل هؤلاء خلقوا موهوبين للعلم ، ونحن خلقنا للاندهاش والتعجب منهم واخذ شيوخنا الصينية عنهم كما ياخذها العوام بواسطة اسئلة مختلفة الازمنة والامكنة ، والاسباب والحاجات ؟ ...

وكانى ، او انى التقطت انفاسى ، وقلت لصاحبى : ايه بكسرة

www. benizNasser. com

واحدة ، فقال ان كل فن من فنون هذه العلوم يخضع الى قواعد معينة ، ومصطلحات خاصة ، فالفن الواحد مرتبط بعضه ببعض اولا ، ووسطا ، واخيرا ، ويمكنك ان تتعب في اوله ولكن لا صعوبة في وسطه وأخره ، اذ اصعب الاشياء عند ابتدائها . ومما فهمت وتذوقت البداية ، الا وسهلت الاوساط والنهاية .

وبعبارة أخرى : اذا كنت تقرأ النحو بالالفية ، فانك ستلاحظ أنها مقسمة الى ثلاثة اقسام الاولى التعريف بالمفردات ، وينهى بباب المبتدا والخبر ، والثانى يتعلق بالجمل ويبتدىء بباب المبتدا والخبر وينتهى بباب الصرف ، وهذا ، هو القسم الثالث .

فمن تفهم ، وتذوق القسم الاول سهل عليه وتذوق القسم الثانى ، وحين يجتمع القسمان تكون دائرة الفكر قد اتسعت بالمعلومات ، وقابلة بكل سهولة لتفهم القسم الثالث من الالفية .

ومهما تفهمت وتذوقت القواعد النحوية والصرفية من الالفية الا وكان كل ما الف فى ذلك سهلا يسير الموءونة عليك . حتى ولو كانت هنالك ملايين الكتب فى القواعد النحوية والصرفية .

والذى انت فى حاجة اليه بعد ذلك ، هو ان تدرس غير « الالفية » للتمرن على الاسلوب الذى يستعمله الشيوخ فى التفهم والتلقين . وبضعة دروس تكفيك لتتفهم وتتذوق وتمتلك المنهاج الدراسى . فلا داعى للاختتام، افهمت ؟

فوقفت صائحا احمد الله على هذه اللحظات ، سوف لا يكفينى الا بضع سنوات للدراسة واصبح عالما ، ولو لم احصل على « الاجازة » فستكون معارفى هى «الاجازة».

فربط على كتفى ، وقال : على رسلك .. فسازيدك ايضاحا ،

فقلت : هات هات بالله عليك لا حاجة بى الى درس العاشرة صباحا .

ان الـذين يـدرسون بدون فكرة مسبقة عن الدراسة ، لا يقـل تيههـم عن تيه بنى اسرائيل فمعرفة المنهاج اولا ، ثم الدراسة ثانيا . ومن حين البداية فى الدراسة يكون الطالب عالما بالقوة ، وان لم يكن بالفعل . ايه .. ايه .. بكسرة واحدة .

فاستانف حديثه قائلا :

تبعا لما سبق ، فان الشيوخ وان كانوا يدرسون معنا بداية الفن ، فهم يجـولون فيه كله وفي كل درس يلخصون ما سبق اولا ، ثم يتابعـون الدرس القائم ثانيا . فنحن نعيش المدروس كله ولما نزل فى بدايته .

وتمكينا لذلك ، وضعوا « قصة السـرادة » فحينما ينتهون من تفهيـم الدرس لنا يأخذ احد الطلبة الاذكياء في تلاوة المقروء في « ماية ولحن خاصين » ، واثناء ذلك تقع بعض الاسئلة والمناقشات تارة مع الشيخ ، واخرى مع الطالب السارد الذى اخطأ ربما فى قاعدة نحوية اثناء السرادة او التلاوة ، فيتوسط الشيخ اذا وقع سوء تفاهم او يلوم على السارد ، لانه لم يطالع درسه باتقان . وبذلك يتم ما كان نقص اثناء التلقين .

هنا قلت له : حسبى ، وقدنى ، لقد فهمت كل شيء .. وحاولت مفارقته فقال : اجلس يا الورطاسى ، انكم ابناء شوق المغرب «اسخان» جدا . ومن هنا اخشى عليكم ان لا تمكثوا فى القرويين حتى النهاية .. فما زال الحديث لم يتم بعد ..

ان اخـوف ما اخاف عليك : ان تـدرس ما يكفي لتضعك الاوسـاط العلمية كعالم ، ولكن اذا لم تحصل على « العالمية » فسوف تلاقى اتعابا دون ان يحترمك « العلماء » ..

وبكل تاكيد ، فسوف يكون هناك علماء دون ملكتك بكثير ، ولكنهم علماء لان لهم لهم «عالمية» ولست بعالم لانه « لا عالمية » لك ..

فقلت فماذا يضرنى ذلك اذا ما سلوبتهم ، ولا سيما اذا تفوقت عليهم ، فليكن ما يكون ، فأنا لا أريد بالعلم الا الله أولا ، وانقاذ نفسى من ظلمات الجهالة ، وكفى بذلك شرفا .

فعصر عينيه ، وعض على لسانه ، وتأوه : وقال : ميئوس منك ان تفهمني ، لان نظرتك الى الحياة لما تزل في طفولتها ، والله ليخرجن عليك علماء ، واساتذة ، ليس لديهم غير « الشهادة » ويمكن ان يوقف كل درس منك فى مسجدما ، لانك لست « من ذوى الشهادات العالمية » ... قلت : كفى . كفى من هذه الخيالات فاذا اضطررت الى تلك « الورقة » فما أحد من شيوخى يبخل على بها ، ولقد عرفت ، وساعرف فى حلقات الدروس بقوى الحفظ والذاكرة ، وانى سريع الادراك ، احفظ وافهم ، واتذوق دروسى قبل ان التحق بحلقات الدروس ..

وبرغم مضايقتى له بهذه « الشجاعة » او «الانانية» فكان يقول لى : ان شاء الله . . . ان شاء الله ، ثم يردد : من يعش رجبا ير عجبا وسترد فتعرف ، هيا الى الموضوع .

من خلال سنى الدراسة (5)

قال لافض فوه : ان مفاتح فهم العلوم العربية ، هو النحو والصرف اى معرفة قواعدهما والتمرن على تطبيقهما ، فاذا اضفت اليهما خبرة بعلوم البيان ، والمعانى والبديع ، اى درست قواعدها ، وتمرنت على استجلائها فى الشعر والنثر ، وتمرنت على تطبيق قواعدها بادمان التلاوة لكتب الاقدمين ككتاب المبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وكليلة ودمنة لابن المقفع ، ومقامات الحريرى ، و« الف ليلة وليلة » ... الخ . اذا انت فعلت

www. benizwater. com

ذلك كنت خبيرا باللغة العربية واسرارها ، فكانت لك شخصية العربى القريب من الاعرابى القح ، واى علم يصعب عليك فهمه وتذوقه ، آنذاك ؟

وفجأة سكت ... فرءانى مشدوها فقال : هل اتيتك بجديد ، قلت : نعم . فقال : وهل لك الحق ان تغادر مكانك ازائى قبل نهاية الحديث ؟ قلت لا : واعاهدك : ان استأنف اتصالي بك حتى اسمع النهايـة .

فقال لى : الساعة الان الثانية عشرة ، هيا للمدرسة العنازة لتاكل ، وفى المساء انتظرنى فى هذا المكان بالذات .

فارقته .وكانى اقول في نفسى : رباه ، لو لم تهيىء لى الاقدار هذا الملك الكريم لضعت تيها فى هذه القرويين .

وجدنى فى مكانى بالضبط جالسا على الحصير ، وفرشت له «لبدتى» اكراما له ، ولم تجده معى محاولته اقناعى باخذ لبدتى الخضراء واكتفائه بلبدته الصفراء ، فاستسلم وقال : ان علوم النحو والصرف ، والبلاغة مرتبطة بالعلوم الاخرى كل الارتباط ، واوهى ارتباط ضرورة القراءة بمقتضى القواعد النحوية والصرفية .

قلت هذا فيما يتعلق بالنحو ، والصرف والبلاغة ، وما هو اسلوب دراسة الفقه ؟ هل له قواعد كما تقدم فى غيره ؟ ...

فقال : لو انك عشت قبل عهد الامام مالك بن انس رضى الله عنه مثلا ، لما كان هناك داع لدراسة هذه الالاف من الكتب الفقهية صاحبة المتون ، والشروح والحواشى ، والتقارير ، والتقاييد .

بل كنت تكتفى ــ مهما تضلعت فى اللغة العربية واسرارها ــ بدراسة كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واثار الخلفاء والصحابة فى ذلـك .

ولكن حدث فى عهد الائمة : ان الهمم قصرت ، والعلوم قلت ،

والعربية ضعفت ، او بغيرها امتزجت ، فاخترع الائمة ما دعوه بالمسائل ، وما دعوه بعد « بالفقه » اى القضايا المستنبطة من كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واثار الخلفاء والصحابة . وما ظهر لهؤلاء الائمة ـ بعمق دراستهم لذلك مما هو راجع الى الكتاب والسنة والاثار . او ما سموه : المصالح المرسلة ، او الاستحسان . او المتوسط بين هذه وتلك ...

وبعد هذا العهد ، بل فى عهد الائمة اخذ تلامذتهم يجمعون المسائل فى مؤلفات سموها تارة « سماع فلان » واخرى بكتب الفقه ، وحدث ان اختلفت «السماعات» ونبغ تلاميذ فكانوا مجتهدين داخل مذاهب ائمتهم ، ونبغ آخرون فاجتهدوا خارج المذاهب ، وتدخلت النزاعات السياسية حتى في العقائد ، وتشعب « الفقه » واصبحنا امام هذه الاطنان من الكتب «السماعية» او الفقهية ، وما اليهما .

والكتب الفقيهة ـ يا اخي ـ كما قلت لك ، عبارة عن قضايا ومسائل تدخلت فيها الحواشى وحواشى الحواشى ، والتقارير والتقايد علاوة على الشروح المتنوعة ، فجعلت هذه النوع من العلم صعبا شاقا .

غير ان فهمه هو كذلك خاضع لقواعد معينة ترجع الى علم أصول الشريعة ، فاذا ما انت درست « الاصول » بعد دراستك الفقه ، اصبحت ذا خبرة بكيفية الترجيح والموافقة بين متنوع الاقوال والتأويلات .

وتتوثق صلتك بالفقه اذا ما كنت عارفا بصلة مؤلفه باحد الائمة ، فبعضهم وضع الثقة فى اشهب ، وآخرون فى ابن القاسم ... وهكذا دواليك .

وخلاصة القول ، انك اثناء دراستك تستطيع ان تتاكد من معالمه ، واسلوب فقهائه فى الشرح والحاشية وما اليهما .

فاجتهد ان تكون لك ملكة الفهم خلال التلقى ، والمطالعة ، والمراجعة

.. كان مرشدى وهو يقدم لى نصائحه الغالية حول دراسة الفقه ينتزع من نفسه الكلام انتزاعا ، كانما كان يصعد فى السماء ، وشعرت بانفاسه قد توقفت من حين لآخر . ولاحظت ان شفتيه قد توقف اللسان عن اسعافهما بالريق لينساب حديثه فى يسر وسهولة ، الى جانب ان محياه كان يتصبب عرقا ، وكانما خرج لفوره من الحمام ، وتأثرت نظراته فتحولت من نظرات هادئة الى نظرات شاردة نارية وكانه كان مضايقا بعدة خواطر وافكار تناقض ارشاداته ونصائحه وكانني كدت ان اصارحه : بأن « حديث هذا المساء » لم يكن بنفس الوضوح الذى كان يطبع «حديث الصباح» ولكنى ضغطت على نفسى حتى لا اواجهه بما قد يحط من قيمة التلميذ امام استاذه .

على ان ما لاحظت من حالة عصبية كان عليها الهمنى ان افضل الانتظار على المصارحة ، لعله يكفينى مئونتها بما قد يندى منه من توجيهات واضحة ، وتفسيرات بينة ، ولم يغب عنه قيد لحظة : انى شعرت بما كان عليه من غموض في حديث المساء ، فعلى الرغم من انه كان يقدم الى ارشاداته القيمة ، كان فى الوقت ذاته يتصفح قسمات وجهى ويتابع نظراتى الشاردة ويحس بانفاسى لانتساب بكيفية عادية ، وانني من حين لاخر ابدو ، وثنايا جبهتى تتجمع وتفترق ، وانني كنت - دون شعور - اعتمد على عليهما معا ، واكاد التصق بوجهه لأتفهم حديثه عن كثب . . .

فجأة ، توقف عن الاسترسال ، وتوجه الى بكليته قائلا :

حقا ان فقهاءنا قد قدموا الينا ثروة خالدة من الفقهيات كانت نتيجة جهود قرون متتابعة ، وان خدماتهم الجلى هذه تعرب عما كان لهم من عميق الايمان بالله وبرسوله ، فبرهنوا بها على ذلك الايمان العميق الصادق .

www.beniznassen.com

وان هذه الثروة الهائلة لم تكن مرجعنا فقط ، ولكنها كانت مرجع رجال القانون في غير ديار الاسلام . فجزاهم الله الجـزاء الاوفـى .

فهذه الثروة الفقهية «ايات كبرى على ان الاسلام دائرة معارف غير محددة الطول والعرض من جهة . وغير « مختومة » ـ اى ان ابوابها مفتوحة دائما لتخضع لتطورات الحياة بالزيادة والنقصان على شريطة ان لا تمس من قريب ولا من بعيد جوهرة الاديان أي جوهر الاسلام من جهة ثانية .

اذ تحدث للناس اقضية بقدر ما أحدثوه من الفجور .

فالفقهيات ، او المسائل ، او السمعيات المعللة ، والمسببة ، تتغير بتغير عللها واسبابها ، الم يقل العلماء : الحكم يدور مع علته وجودا وعدما ؟

كما يدل تطور الفقهيات بكيفية واضحة لا غبار عليها على ان هذا الدين ـ باستثناء اصوله الثابتة ثبوت وجود الله ـ صالح لنا زمانا ومكانا ما دمنا دارجين على سطح هذا الفلك السيار .

غير ان هذه الثروة التى كانت بذورها الاولى من اوائل القرن الاول ، اعني عهد تدوينها قد بلغت منتهى الاتساع كما وكيفا .

ويظهرلى : انه «ان لنا ان نحكم عليها بنفس احكامها مع مراعاة ظروف التخفيف ، وبيان ذلك ، انه قد قرر الفقهاء انفسهم : انه اذا تشعبت قضية ما لدى القاضى بكثرة الحجج وطالت عشر سنوات ، فانه من حق القاضى ان يحرق ملف القضية ، ويامر المتحاكمين بتقديم دعواهما من جديد .

وعلى رسلك ، فلا ينبغى ان يطبق هذه الحكم بحذافيره على « فقهنا »، فالراى عندى ان تجمع كتب الفقه كلها ، وتوضع في متحف ، اريد الجنس

ـ اعنى في متاحف تقديرا لجهود فقهائنا وتخليدا ، لافكارهم واعمالهم ، وتكون عبرة اجيالنا لتحثهم على تكوين ثروة فقهية جديدة مثل ثروة اسلافنا الكرام ، او تفوقها .

وربما يحين الظرف الملائم لانجاز « مقترحى » يجب ان تكون لنا مدارس خصوصية يطبق فيها منهج يعيدنا الى اخذ الاحكام مباشرة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واثار الخلفاء والصحابة ، لنكون لنا فقها لا تتخلله الفقهيات التى لم تعد لها اسبابها ، وعللها .

والى هذا ، تكون لنا كتب نطبق عليها : تاريخ الفكر الفقهى الاسلامى ، او بدل الاسلامى المالكى ، والحنفى ، والحنبلى ، والشافعى الى آخر القائمة .

وذلك لتيسر علينا وسائل الاستنباط .

فمن العبث ـ يا اخى ـ يقول مرشدى ـ ان نتعب انفسنا فى كثير من مواد ابواب الفقه وفصوله ، والحالة انه لم يبق بها عمل لاختفاء عللها واسبابها .

ان الرق مثلا ـ قد اختفى بالمعنى القديم فلا معنى لدراسة وتضييع الوقت فيه فاذا دار الزمان دورة تشبه الدورة السابقة ، فلنا فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما يغنينا عن ذلك

فاى معنى لان ندرس ام الولد ، والولد ، والولد تابع لا مه فى الرقية والحرية ، ولابيه فى النسب ؟ . ضياع وقت ، واى ضياع .

وربما يتحقق مثل رأيي هذا ، اقرأ وتوسع ، ولا تنس « علم الاصول » والله يبارك لك فى جهوده ويهيىء لك مستقبلا زاهرا .

« حاشية على ما سبق » (6)

لم تكن جلستى مع « مرشدى » متصلة ، فلقد تخللتها فترات اداء الصلوات : العصر والمغرب والعشاء ، على اننى كنت شغوفا بالاستماع الى الطلبة الذين يقرءون بالرويات والذين يقرءون متن الشيخ خليل ، كالحزب .

وكنت ماخوذا بالشيخ الولى الصالح المرحوم سيدى مولاى على الدرقاوى والد شيخنا سيدى مولاى ارشيد اطال الله حياته ، وهو يقرا مع طلبة القراءات السبع .

اذ انه كان استاذ القرءات والتجويد فى جامعة القرويين ، فلا تزال صورته الموقرة ماثلة امام عينى . وكانى اراه الآن بجلبابه وبرنوصه شبه البدويين .

وطالما تواريت بسارية على قرب منه لاستمع اليه لحظات وهو يملى درسه فى القراءات والتجويد وطالما كانني قلت فى نفسى : لقد صدق المريشال اليوطى فى قوله : « لا اخاف على وضعيتنا الا من اصحاب هؤلاء الجلابيب والبرانص الذين يترددون على القرويين ليتحلق الطلبة حولهم فيبثوا فيهم من روحهم الاسلامية « المتعصبة » قبل ان يلقنوهم دروسا فى الشريعة الاسلامية ، ولقد صدق قول اليوطى ، فمن القرويين كانت الشعلة التى احرقت الاستعمار المادى ، وعلى اجيالنا ان يتمموا احراق الاستعمار الروحى والجديد كما يعبرون اليوم . والا فمن يدرى ان يتشكل الاستعمار الروحى فى صور مادية جديدة تلائم عصر الذرة والصواريخ واكتشاف الاطباق العلوية ؟

نعم ، كنت مع « مرشدى » على موعد فى الصباح دون ان نحدد موضوع الجلسة كعادتنا اذ ان الموضوع بالنسبة اليه كان محدد النقط .

www. beniZNassen. com

السلام عليكم ... وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . حياني فرددتها بأحسن منها ، وقال : يبدو ان حديثي قد راقك ، قلت : وكيف لا ... فكل من لا تصميم له في حياته ، او مبادىء ووسائل واهداف ، فانه مجرد شيء يطفو على سطح خضم الحياة ، فانا اعدك « ملكي » الالهي الذي فتح الافاق الواسعة الواضحة في وجهي لا تبين مواقع اقدامي اولا . ومرامي بصري ، ومطامح افكاري، ثانيا، فاصعب شيء في الحياة التصميم ، ثم الايمان ، اما الانجاز فاسهل مادة وايسرها . ثم قال : ظهر لي هذا الصباح : ان تسأل وأجيب على غير العادة من التحدث اليك وانت مصغ الي .

قلت : انه لشيء عجاب ... كانك علمت ما دار بخلدي ، وحذرت خجلا ـ ان اواجهك به ... فقال حمدا لله الذي ربط شعوري بشعورك تلقائيا فكل منا يحس باحساس الاخر ، وتلك هي خاصية التآلف بين الارواح التي تعد نعمة من اجل النعم .

فانا واياك . على الرغم من تفاوت السن بكثير ـ فاننا قريبو الاحساس والمشاعر . ذلك اننا ردجنا جميعا في بيئة واحدة : بيئة حفظ كتاب الله عز وجل باكرا ، واداء الصلوات باكرا اي في سن الطفولة ، ولكل طبقة من طبقات شعبنا طابعها الخاص ، وميزتها الخاصة ، وقيمتها الخاصة ، فلا صغير يتجرا على كبير السن ، ولا جاهل يتجرا على التحدث في الشؤون العلمية امام العالم ، ولا تلميذ ـ وان كان عالما ـ يتحدث امام شيخه الا باذنه ، وهكذا ، فنحن درجنا في بيئة تنزل الناس على قدر منازلهم . وتلك هي عين حقيقة ما ندعوه بالمساواة .

... وبغتة شعرت بامتقاع لون وجهه ، وكانني احسست برعدة تسري في شريان جسده ، وعلى عادتي من واجب احترامه لا اتجرا ان اسأله

www.beniznassen.com

عن ذلك ، بل تظاهرت بانني لم الاحظ تلك الايات التي فاجاتني فيه .

ثم صعد زفرات نارية وقال :

آه ـ يا سيدى الشريف الورطاسى ، نحن على مقربة من خروج جيل ذى خلق وراء حدود أخصب خيال بشرى ، فبالامس كنت ضيفا على احد الاصدقاء ، فسمعت بنتا له تقول لوالدها : انت هو الكذاب ... وهى لما تزل في طفولتها ، ثم سمعت ولدا يقول له : انا حر ، ولى كامل الحق ان اعبر عن آرائى ، لقد مضى عهد سيطرة الآباء ، الان يجب ان نعيش احرارا ، كفاك ياسيدى « بدل يا ولدى » تعلقا بما درجت عليه من « الاساطير » التى كنتم تتحكمون بها في البنين والبنات والزوجات والاخوات ... انا حر انا حر ...

اسمع ـ يا سيدى الشريف الورطاسى ـ : اذا افتقد الآباء حرمتهم وسيطرتهم الشرعيتين على الابناء والزوجات والاخوات ، فعلى القيم الاسلامية السلام ، والف سلام .

ثم قال : عفوا لقد خرجنا من موضوع الى آخر ... ولكن الحديث ذو شجون ، فاختزن هذا فى ذاكرتك ولناخذ الان فى صلب الموضوع ، قل :

كانت كلمته : قل ، امرا صارما ، وفى صوت الحاكم الظالم . وتعنى ان لا اسأله عن هذه الاعتراضيات لذلك قلت له : لا اناقشك فى خلق الجيل المقبل ـ فلقد كنت تتحدث بجدية صارمة كانها قضايا مسلمة ، فادع الله لى اذا ادركت هذا العهد المفزع ان يلهمنى الصبر والرشاد . فقال : آمين ، قل ...

قلت : حالما يطبق رايك ، او ما يشابهه فى كتب الفقه ، الا يجر ذلك خسارة مادية فادحة على دور النشر ، والكتبيين ؟

www. beniznassen. com

فقال : لا لقد نسيت ـ وما يجب ان تنسى : انني قلت ان تطبيقه يكون تدريجيا ، فالمدارس الخصوصية التي اقترحتها سيتبع فيها منهاج البستاني الماهريري ان غرسته لم تعد لاشجارها الثمار التي كانت في اوائل اثمارها ، كما ، وكيفا . واقتلاعها دفعة واحدة يحيله في عوز قاتل، فهو يغرس اخواتها ويتعهدها الى جانبها ريثما تثمر، وتوتى اكلـهـا ، وحينذاك ياتي على الاشجار القديمة ، فيكون قد تصرف تصرفا يوافق نواميس الكون ، او قوانين الغراس التدريجية . ضربت لك هذا المثل لانك من ابركان بلاد الحدائق والجنات الغناء اذ تصورت انك طالمـــا شاهدت مثل هذه العمليات المهارة من فلاحيكم المضروب بهم المثل في فن الزراعة والغرس ، وبذل الطاقات العجيبة ... هل فهمت ؟ قلت : اللهم نعم .

قلت : حالما تنشا هذه المدارس الخصوصية ، افلا يقع اضطراب في صفوف الحلقات التقليدية ؟ والحالة ان المدارس الخصوصية لا تفي للجميع ؟

فقال : في هذه النقطة نعتمد على سنن الحيـاة ونواميسهـا ، أنظـر ، ان لباسك هذا يخالف تماما لباس والدك ، ووالدك لا يعارضك فيه ، وانت لا تسخر منه ، وريثما ينقضي جيل والدك فانه لا اضطراب ولا فتنة ، فمن شب على شيء شاب عليه .

وفعلا سيتعلق بالمنهج القديم بعض الطلبة ، وبالمنهج الجديد آخرون ، ويتعايشون كما تتعايش انت ووالدك في لباسين مختلفين ، وشيء من القيل والقال لا يضر . وهو ايضا عادي ولو فرضنا ان كل جيل جاء نسخة طبق الاصل للجيل السابق في كل شيء لما كان هناك تطور في الحياة هل فهمت ؟ قلت : اللهم نعم ...

قلت : حينما يتخرج علماء من المدارس القرآنية والحديثية يكونون ياخذون احكامهم مباشرة من كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى عليه وسلم ، واثار السلف ، اى سنة الخلفاء الراشدين . وحينذاك ، فعلى مذهب الامام مالك فى المغرب السلام ؟

فقال : الف سلام وسلام عليه ، وعلى جميع الائمة ، وجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ، فلقد عرفونا اولا بالمناهج التى تستنبط منها الاحكام من الكتاب والسنة والاثار ، ثم قدموا الينا ثروة فقهية رائعة ساعدتنا على حياتنا ، فلنودع هذا النوع من فقهياتهم لناخذ ما يلائم حياة العصر كما اخذوا ما يلائم حياة عصرهم . ولنبق على علوم الاصول وعلم الحديث . اعنى السنة . ولتكن هذه من مواد دراستنا فى المدارس الخاصة .

وبذلك نكون نطبق الاحكام من القرآن والسنة والاثار كما كانوا يطبقونها . وبذلك ايضا نكون جيلا لا يدع للجيل الذى اشرت اليه بالامس مجالا للعبث بالقيم الاسلامية ، وانا كفيل لك باننا اذا تحولنا الى امة تحكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ، ان نصبح امة مهابة الجانب ، محترمة ، مقدرة يترامى فى احضاننا واحضان ديننا القيم ، رجالات ونساء من الشرق والغرب ، الذين هم الان تماما فى مستوى تلك العهود التى انبثق فيها نور فجر الاسلام . فلا يغرنك ما ترى فى الظاهر من زخارف والوان المتع ، فقد كان العجم والروم يتمتعون فى الحياة بما لم نشاهد حتى جزءا منه فى حياة اوروبا التعسة ، ومع ذلك فقد تراموا فى احضاننا واحضان ديننا .

واذا كنا فى صدر الاسلام قد افتقرنا الى الفتوحات ، فعالمنا اليوم لا يحتاج الى مثل تلك الفتوحات ، حيث ان العقل البشرى قد قطع

اطوارا رائعة فى التقدم المادى ، وقد ضجر من الحياة المادية. وهو فى حاجة الى حياة روحية . وسيجدها عندنا حالما نكون امة تحكم القرآن والسنة فى احكامها واخلاقها نتيجة لاحقية عقيدتها .

وانا كفيل لك بان نصبح بالتحاق رجالات الفكر بديارنا الاسلامية ديار الكتاب والسنة احكاما وخلقا ان نصبح امة قوية روحيا وماديا بما تقوم به تلك العقول من نشر مختلف المعارف المادية التى وصلت اليها بعد جهاد قرون .. وقرون ..

وبذلك يكون التاريخ قد اعاد نفسه ، فعير العرب الذين انضافوا الى ديننا وخلقنا ، عادوا على الاسلام والمسلمين بخير عميم ، وستعرف ذلك حالما تدرس تاريخ الدولة الاموية والدولة العباسية .

كان يتحدث الي ووجهه يطفح بالبشر والسرور ، ولم يتلعثم ولا مرة واحدة في هذا الحديث ، فقال لى ، افهمت ؟ قلت : اللهمنعم ، وراني اتململ ، فسال : مالك .

قلت : انت اليوم واضح جدا غيرك بالامس ، وعندى .. ماذا عندك ؟

قلت : عفوا ، هل تسمح لى بالانتقال الى حلقة درس الشيـــخ العباسى بنانى ، اننى معجب بفصاحته ، وقوة ترسله ، فقال : موافق ، والى اللقاء .

« فى حضرة الشيخ العباس بنانى » (7)

منذ أول عهدي بالدراســة في القرويـيـن عــام 1351 وجـدت شيخنـا العلامة المحقق سيدى العباس بنانى لا من علماء القسم النهائى فحسب ، ولكنه شيخ كثيرين من جلة العلماء الذين كانـوا يعلمـون في القـرويـيـن شيخنا طويل القامــة ، مــرح لا تفارقة الابتسامة ، لــم تبــق فــي رأسـه اذ ذاك شعرة سوداء خفيف الروح ، نضيف النكتة والفكاهة ، لين الجانب،

يساعد التلميذ والطالب والتاجر ، والفلاح على الاتصال به (سواله عن شوءون دينه) بما اكرمه الله به من بشاشة وطلاقة . علمه يتزاحم بين شفتيه ، فصيح الكلمة بليغ الجملة ، قوى الحافظة ، قوى الذاكرة ، لاتحس بملل في اسهابه ، ولا بقصور في اختصاره قد يكتفي بالايماءة عن الاشارة، وبالاشارة عن الكلمة وبالكلمة عن الجملة ، وتلك فيه آيات الفصاحة والبلاغة ، تولى القضاء مدة ، ولعله في قرية اشراكة ، عالم جليل ، معلم في النظام متطوع ايام العطل والاستراحة وبين العشائين ، وفي جولاته لداخل المغرب وخارجه ، لا اقول من ذوى الفتيا ، ولكن اقول : انه شيخ المفتين ، فلما يرجع في فتاويه الى المراجع ،وانما يملى ذلك املاء على الكاتبين ، وفتاويه – مع ذلك – تفيض بالاقوال والاراء منسوبة لاصحابها ومراجعها .

اشتهر بتضلعه في الفقه والاصول ، والمنطق ، والبلاغة ، والعقائد ، اما النحو والصرف ، فكانه ما درسهما عن العلماء ، وانما تمرن عليهما بين خيام العرب الفحول وبين واحات الصحراء وكان يقول في مجالسه العلمية : ان قطتي تعرف القواعد النحوية ، شجاعة متناهية ، يقول كلمته ولا يبالي اغضب الناس ، ام رضوا ؟ جهورى الصوت مرتفعه لا يستطع احد من العلماء ان يرفع عليه صوته في مجالس العلم ، عدا المرحوم مولاى عبد الله الفضيلي ، فقد كان في مجالسه العلمية ذا صوت مرتفع جهورى يدوى في ارجاء القرويين دويا هائلا .

سافر الى مصر ودخل الازهر ، واجتمع بعلمائه ، فبهرتهم حافظته ، وذاكرته ، وواسع اطلاعه ، ودقة فهمه ، وسهولة تفهيمه ، وكبير الاعتزاز بعلمه .

حدثنا مباشرة انه اقترح عليه القاء درس هناك ، وفوضوا له في موضوعه ، فابتسم وقال : بل أنا أفوض اليكم في الموضوع ، فاذا اعتليت

الكرسى ، فاقترحوا ما شئتم ، ولا احتاج الى مراجعة قبل الدرس : ولا حاجة لى بما تريدون ان تقدموه الى من مراجع !

فكان درسه موضع اعجاب واكبار ، فلقد اتى فيه من العلوم واسرارها ما جعله فى اعينهم آية من آيات الله فى الافاق .

ولعله لم ينجب الا بنتا واحدة زوجها لاحد تلامذته الذى ما زلت اتذكر شخصه وانستنى محن الكفاح الوطنى اسمه .

نعم : فارقت « مرشدى » على امل اللقاء ، واقتربت الى حلقة شيخنا الخالد الذكر سيدى العباس بنانى : فاعتممت على سارية اسندت اليها ظهرى بضع لحظات استمع فيها اليه وهو يدرس تاريخ العباسيين بمحاضرات الخضرى :

وفى الحقيقة اننى كنت اتملى فصاحته ، وءايات البلاغة فى كلامه واحكام عرض احداث التاريخ فى جزالة وسهولة ، وعذوبة كانها الماء الزلال يتدفق من أعظم شلال ، وأثناء عرضه للاحداث ، واعطاء البيانات الشافية لاسبابها وعللها وظروفها ، وملابساتها : كانت « اللبدة الخضراء » في صراع مع سارده وصهره ، فكلما تزحلقت من تحت الشيخ ردها اليه ، فقد كان ـ اطال الله عمره ـ لاتستقر «اللبدة» من تحته اثناء الدرس لتقلبه من جهة الى جهة ، كانه بطل معركة يتقلب فوق سرج حصانه ، ومن حين لاخر يرد « برنوصه » الرقيق على كتفيه ، كالبطل فى معركة يتلمس سيفه من حين لاخر .

وتحقق لدى بعد مضى الزمن على التعرف عليه ، انه لا يصحب معه البرنوص الا خضوعا لتقاليد العلماء من طبقته ، وبعض العلماء من طبقة تلامذته ، ذلك ان مرحه العجيب ، وتفتحه الكثير ، يابى عليه كل التقاليد.

فلقد لاحظت : ان طبقة الشباب العلماء أخذوا يتخففون من البرنوص في مجالسهم العلمية ، ففي ذلك العهد ، كان العلماء ما بين تقليدي صرف . الجلباب الابيض فوق القميصين والحايك فوقه ، ثم السلهام الابيض فى الحرارة ، والاسود فى فصول الشتاء . وبين متوسط ، الجلباب والسلهام . وبين « متطرف » : الجباب فقط . وهناك نوع قليل ، الحائك فقط فوق الجلباب واقل منه : الحائك فوق « الفرجيات » ثم السلهام .

اما شيخنا العباس بنانى : فما رايته الا فى جلباب فى الاكثر . وعليه برنوص خفيف فى الحرارة ، واسود فى الشتاء فى الاقل . وهو من قلة العلماء فى سنه الذين يتجولون فى الشوارع على ارجلهم .

وغالبا ما يكون برفقته طالب : او طالبان ، منهما صهرة زوج ابنته ، ويرتفق بكتف احدهما ، او بهما معا .

وبرغم مرحه المشهور به : كان اذا اغضب فى درسه لشىء ما ينقلب كانه قطعة من جمر الغظى ، لم يطل اسناد ظهرى على السارية قريبا من حلقة درسه ، حتى صاح بى : اجى يا الطالب ، اجى لتوءانسنا ، كان ثلاثة طلبة فقط فى حلقة درسه .

قمت للحال ، وانضممت الى الحلقة ، فسألنى عن « حالتى المدنية باختصار ورحب بى وقال : اتعرف العباس بنانى ، قلت : ولم لا ، فانت اشهر العلماء عند الناس ، وليتهم ضربوا بك المثل فقالوا : هذا اشهر من العباس ، كما يقال : أشهر من نار على علم ، فضحك ضحكة عريضة وقال : هذا طالب نجيب والله ، اسمع يا الطالب : « من قرا على درسا واحدا كان من العلماء فى فصاحة العباس بنانى ، قلت ، امين يا سيدى، لا اغبط احدا الا على الفصاحة فالتعبير الفصيح عن الافكار ،والاحاسيس، والخوالج ، والخواطر هو المفتاح الاساسى للانسان فى هذه الحياة ...

واقترابى من حلقتك كان للتملى من فصاحتك : وقوة بيانك ، وعجيب عرضك لشريط الاحداث مرفوقا بالعلل ، والاسباب ، والمغازى ... و.. الخ ...

فقال : لله درك من طالب ، وقال لصهره : يانسيبى اسمع ما يعتقد الناس في شيخك وصهرك العباس بنانى .. هل انت مسرور بذلك ؟ فقال : وكيف .. ومن لا يعرف الشيخ العباس بنانى فارس المعارف والبيان ؟ فنزل بكلتا يديه على كتفيه وقال : بارك الله لى فى صهرى .. ثم قال الشيخ : حينما كنت فى مصر طلبوا منى عنوانى ، فقلت لهم : العنوان هكذا : « العباس بنانى فى الجزء اليابس من الارض » !

ثم التفت الى وقال : نحن الان فى دراسة تاريخ العباسيين ، ولكى تتابعنا اختصر لك عرضا عن عهد الرسول ، ثم الخفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، ثم الدولة الاموية التى تخلل صدرها قيام ابن الزبير ، ثم قيام الدولة العباسية .

وهكذا اخذ يختصر تاريخ ثلاثة عهود من عهود الاسلام ، وجزءا مهما من العهد الرابع عهد العباسيين ، ثم استانف متابعة درسه الحالى ، وكان ذلك من التاسعة الى العاشرة صباحا بطبيعة الحال .

شعرت بعد « اختتام » الدرس : ان شيئا مهما يقلق ذاكرتى وحينما صحت : آه .. لقد اقتربت ساعة النخاسة ، او الدلالة فى باب الوفاء اعنى المنحدر القريب من ضريح المولى ادريس الموصل الى ساحة النجارين ، حيث كان الجنرال نوجيس يتعنتر في حوادث 1937 لقد سبق لى ان مررت على الحادية عشرة فوجدت « سوق الدلالة » لبيع السوائع القديمة على الاكثر . والجديدة على الاقل ، ولاحظت اثناء ذلك اشياء ممتعة ، على ان احضرها من اول الامر لادرس واحفظ ما علق بذهنى دون وضوح .

WWW. BENIZNASSEN. COM.

لاننى كنت ارى فاس كلها مدرسة ، فاينما توجهت تتلقى دروسا دينية أو دنيوية ومدرسة الحياة هي التي تشخص بوضوح الآراء ، والافكار والمشاعر ، وبعبارة اخرى هى التى تصور لك الحضارة ماشية على رجليها.

فحياة الطالب مثلا بين افاق الدروس وحدها ، حياة مغلقة الابواب والنوافذ ، فحينما ينتهى من دراسته ويصبح عالما ، يكون هدف الالسنة اللاذعة في مدرسة الحياة .. ولاسيما ، وقد عشت طفولتي تاجرا مع والدى ، فالتجارة كانت من اعز المهن لدى ، اذ اننى كنت تشبعت فى طفولتى واوائل شبابى بروح الحرية والتحرر ، فكنت ارى ، ان ادرس لاقوم لسانى ، وجنب دينى ثم امتهن حرفة ثرية كالتجارة ، حتى لا اتعرض للصدقات والتبرعات والزكاة والعشر . كما يتعرض لذلك بعض العلمـــاء .

وقد ركز هذا الاتجاه فى نفسى اول شيوخى فى العلم المرحوم سيدى على العروسى يوم كنت اتفقه به فى مسجد سيدى موسى ببنى منقوش ، « ابركان » فقد كان رحمه الله يتطوع بالدروس ويمارس شؤون فلاحته بيده مباشرة ، يحرث ويحصـد ، ويـدرس ، ويجمع التبـن ويخزن الحبوب ، ويعمل فى غرسه بيده كذلك مباشرة .

وكان رحمه الله يقول لنا : عزة العلم ، وصيانة كرامة العلماء فى الاعمال الحرة ، فمن يلجا فى حياته الى الناس ، لا يستطيع ان ينشر علمه بين الناس ، البطن الخاويـة ، تحـور العلـم مـن التملـق ، والتـزلف للسقوط فى الهاوية .

حدث ان كان يدرس زرعا فى بندره ، فجاءه فلاح وقال له : يـا سيدى علي ، دعنى انب عنك فانت فقيه اشيب ، والفقهاء ضعاف القوى

لايستطيعون ممارسة مثل شئون الفلاحة ، وعوض ان يجيبه قائل : يا عبد الكريم .. يا ولدى « احضر طعاما لخالك فلان » لعله في حاجة الى طعام ، ثم التفت الى « خاله » وقال : ان علمى من العلوم التى نمت في نفسي العزة والرجولة . فلست من اولئك الذين تعلموا لطلب ما فى ايدى الناس . والله لا تمد يدك الى شيء من عملى ، كل ...وتفرج ... وان شئت فنم فى ظلال تلك الشجرة التى غرسها فقيهك هذا بيده وتعهدها حتى اتت اكلها .

لم انس ، ولن انس ابدا تلك الجواهر الغالية التى كانت تنساب من شفتى اول شيوخى سيدى على العروسى رضى الله عنه .

انتقلت فورا الى باب الوفاء وكان هناك «دلال» عجيب استأثر بكل شعورى ، حتى كدت ان لا ارى ... ولا اسمع غيره .

كان فى يده « ساعة » وهو يقول : 16 د البليون .. اتلاث د الزيادات .. الراشى البالى ، اشر ما شافت عينك ... من تم ، التم(I) ودعوة البكم » ..

لما حفظت كلامه هذا ، لم استطع ان اكتم ضحكاتى التى كانت كالالغام في رئتي فلقد انفجرت بالضحك بشكل ألفت أنظار العموم .

لقد اوقعنى ذلك الضحك المتواصل فى حرج امام الناس ، حتى خشيت ان يتفضل احدهم باستدعاء طبيب من مستشفى «سيدى فرج» ما تشتريه معيبا .

دلال قصير القامة ، اشيب ، سريع الخطى ، كانه فى يفاع

(I) يعنى بقوله : من ثم الثم : من ثم الى ثمة ، اى لست ضامنا لك

الشباب ، فصيح اللسان ، كأنه جالس الشيخ العباس بناني سنين طوالا ، واقتبس من فصاحته ، وهو الى ذلك : يقول عن البضاعة : « الساعة » انها مهشمة ، غير صالحة ، ولا عهدة على البائع .

ذكرني - فورا - بذلك الدلال الاسطورى الذى كان « يمرح على حمار اليهودى الضائع » كان يقول : يا عباد الله ، من شاف حمارا قويا برذعة جديدة لا مثيل لها . والكل في ملك «اليهودي» فكان اليهودي يهمس الى جانبه بقوله : غرق يا سيدى المسلم .

قلت من يشترى هذه الساعة ولماذا يظهر عيوبها ، وعهدى ان البائع دائما يثنى على جودة بضاعته ، وان كانت ادنى البضاعات .

وتداركنى الله بلطفه فسالت احدهم فقال : يقول خليل : ووجب تبيين ما يكره ، ويقول عليه الصلاة والسلام ، من غشنا فليس منا ، واجمع الفقهاء على الرجوع بالعيب والدرك بشروطهما ثم ان المخزن « يعاقب كل مدلس ، وآل فاس كثيرا ما يتمثل علم القرويين فى تصوفاتهم حتى صار لهم طباعا وتقاليد . فلا تعجب .. ولا تضحك ، فعالم فاس عالم العلم والحضارة والتقاليد الكريمة .

فسألته : هل سبق لك ان درست فى القرويين مثلا ؟ فقال : كطالب لا .. ولكن كمستمع حر فى الدروس التطوعية التى تلقى فى كثير من مساجد فاس ، واهمها « القرويين » ومولاى ادريس . اننى رجل عامي أي أمي لا أكتب ولا أقرأ ، ولكنني استغل تلك الدراسة المتواضعة للتفقه فى شؤون دينى .

ففارقته بعد شكره على « بيانه » وصحت : ويلى ! اميوهم خير من بعض علمائنا استغفر الله . وكنت تعلمت فى فاس ان اردف كلامي باستغفر الله ، والالما قلتها اذ ذاك .

صعدت عقبة الطالعة الكبرى وانا فى شبه غيبوبة مما سمعت ، ورأيت .. ولم أعرف التفاتا الى حجج ذلك الامي : صاحب البيان في « باب الوفاء » هل ما رواه عن الفقهاء والرسول صلى الله عليه وسلم بالنص ، او بالمعنى ، فلم يهمنى ذلك ، انما الذى اهمنى ، هو ان ارى مشهدا يمثل الفقه الاسلامى تمثيلا حيا ، ولا عهد لى به الا فى فاس .

وكاننى كنت اعرف قول عمر رضى الله عنه ، لا يتجر فى سوقنا من لم يفقه ، او كما قال رضى الله عنه . لم اكد ادخل الحجرة رقم 6 حتى صاح بى ادريس : الا تزال تجلس الى « مرشدك » ؟ قلت : اليوم المرشد» والعباس بنانى . ودلال باب الوفاء ، لست ادرى ويلى استغفر لله ، ا اتابع دروسى فى القرويين ، ام ادرس حياة اهل فاس ؟ فالكل يغرينى على حد سواء ، فقال : دعك من هذا ان عندى اخبارا مفزعة قلت بالله عليك ان تخليني ومتعتى الصباحية قليلا من الزمن ، ثم هاتها من « الشفر الى النعل » .

من الحجرة : 6 الى الحجرة 34 (8)

استعدت انفاسى كعادتها من جراء صعود الطالعة الكبرى فى سرعة خطى اهل فاس . وصحت بصديقى ادريس البرحيلى رحمة الله عليه هات ما عندك من « أخبار مفزعة » ومن الشفر الى النعل ،، و « الظفر الى الشفر » هيه ...

خلاصة اخبارى : اننا سنغادر الحجرة رقم 6 برغم انفنا .

ولماذا ؟ لقد « غلط » المقدم العام للمدارس سيدى عمر بن المرحوم سيدى احمد بن الخياط حينما سلم الى الحجرة 6 ، فابن خالتك السيد محمد بن الطيب احق بها من حيث القاعدة المتبعة فى متسلسل الارقام عند المقدم العام . وهو يطالب بها بالحاح ، وفعلا قضى له بها وقد جاءنى

« مقدمنا » : مبارك وابلغ الى الامر بالافراغ عاجلا ، ثم ابتسم المرحوم ادريس ووضع يده على فمه كعادته .

لم يغب عني مغزى إبتسامته ، والحق ان الصدمة كانت عنيفة ولكن بسرعة البرق تصورت كان ذاكرتي استحالت الى صورة مادية ، اعني الى شخص يتحرك وينطق ، وانها اطلقت من شفتيها أيضا ابتسامة عريضة ، لم يغب عني مغزاها أيضا .

لذلك قلت له : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .

والان ، ما العمل ؟

فقال : الامر سهل ، بفضل بركتك « علي يا الشريف » ها نحن سنغادر هذه المغارة التي كانت تفتك بصحتنا الى حيث الشمس ، والهواء والضياء ، فانت الى ابن عمومتك الفقيه السيد احمد بن الفقيه السيد علي البدري في رقم 34 ، التي تناولت فيها اول فطور واول غذاء ، وانا الى ابن عمومتي الفقيه السيد محمد بن الخضر الميموني ، والحجرتان متقابلتان ، وقد عرضت ذلك على الفقيهين فرحبا بنا ايما ترحيب فنتناول طعام الغذاء عاجلا ، وليلتحق كل بحجرته الجديدة . وهنيئا لك . فلم تقض في هذه الحجرة الا خمسة عشر يوما ، اي نحن الان في تاريخ 29 شوال عام 1951 وفي يوم الجمعة بالضبط .

وسوف لا تنسى هذه الحجرة 6 التي حفظت فيها متن لامية الافعال عقب صلاة الصبح من كل ايام الحفظ القليلة ، ولا تنس ايضا ان لا تعين اي اهتمام لموقف ابن خالتك الذي وقفه ازاءك كابن خالة ، فانه جاء الى فاس ورفقته السيد البشير الجزائري وهما في ضيق مع مضيفيهما وقد يكون الدافع الاساسي لذلك الموقف ، كون السيد البشير في منزلة ضيف على ابن خالتك وعلى كل حال تصور كان شيئا لم يقع ، وابق على علاقتك العادية به . فانه من ذوي رحمك على كل حال .

ما اطيب نفسك يا ادريس ، فرحم الله تلك الروح الطيبة ، اين منا مثل اخلاقك يا ادريس ؟ والله لو اعادك الله الى دنيانا لكنت ادهش واعجب من عيسى بن هشام ، ولسألت من الله ان يردك الى دنياك الثانية لاول ساعة تعيشها معنا اليوم ...

فاين منا هذه الاخلاق الاسلاميةالعميقة ، فى عهد الحرية والاستقلال؟!

وبطبيعة السبق الزمانى الى المدرسة استحق ادريس الحجرة 25 قبل ان استحق الحجرة 21 اما مدة انتظارى فكانت اربعة اشهر ، ومدة ادريس تنقص عنها بقليل .

ولم اغادر الحجرة 21 الى ان غادرتها نهائيا ، اى بعد ثلاث سنوات وايـــام .

نعم ، انتقلت من الحجرة 6 الى 34 حيث الشمس والهواء ، وضياء ، القمر والنجوم ، ومن حيث استطيع ان اقرا حزبى الصباح والمساء قرب النافذة .

كان شيوخى اذ ذاك هم العلماء السادة ، عبد العزيز العراقى ... قواعد اللغة العربية ومحمد الطاهرى ، « الخريدة » في العقـائد ، ونسيـت اننى حفظتها فى الحجرة 6 وشرح ابن ابى صالح على رسالة ابن ابى زيد القيروانى ، على المرحوم الولى الصالح سيدى مولاى احمد العمرانى ، والحساب على سيدى بنسودة الخطيب فى مسجد سيدى احمد الشاوى رحم الله الجميع ، ولامية ابن الوردى ، على المرحـوم بن هاشـم العلـوى . واطواق الذهب ، واطباقه على الفقيه المرحوم السيد الرسموكى ، وجلست الى بعض دروس السيد ابى الشتاء الصنهاجى وكان يدرس الالفية بابن الناظم .

دام ذلك من يوم دخلت القرويين شهرين كاملين .

خلال هذين الشهرين رجعت مطورا اعوج الناس فلقد تأثرت برفقائى الشباب الفاسيين الذين دشنوا عهد الجراة على الشيوخ ، اعنى بعض الشيوخ ، وكانوا « يعوجونهم » اى يقلدون اسلوبهم فى الدراسة ، ففقتهم فى ذلك التقليد ، اذ كنت اولا من القلائل الافاقيين ، الذين اختلطـــوا بالشباب الفاسى ، فقد كانت هناك نفرة ظاهرة بينهم وبين الامدارسية وثانيا اننى كنت اقلد آل فاس فى اللغة واللهجة ، وارتدى الثياب كفاسى تماما ، وكان لا يعرفنى كمدرسى الا القلائل ، فلقد تحولت الى « فاسى » على مخه : جسدا ، وسرعة الخطى ، وسرعة في الكلام والاكتفاء بالايماءة والاشارة ، ومختصر القول وافيده ، وتخلل ذلك بالامثال والحكـــم ، واللطائف مع شىء مهم من موسيقاهم العذبة المنبعثة من خلال لهجاتهم .

لذلك كان بعض رفقائى من الشباب الفاسى يتحلقون حولـــى ، ويطلبون منى ان اقلد درسى العالمين سيدى عبد العزيز العراقـــى ، وسيدى ابى الشتاء الصنهاجى رحمهم الله ورضى عنهما .

وذات ليلة افقت اثناء الليل مذعورا فزعا ، ورفيقى السيد احمد بن على المذكور يسألنى فى دهشة : مالك ؟ ... مالك ؟ .

قلت : كدت اصبح جثة هامدة والله ، لقد رايت فى نومى سيدى عبد العزيز العراقى اولا ، وقال لى : الى م تنتهى من تقليدى والسخرية بى ، فاجبته : وليكن .. انك قليل العلم وو ، الخ.. فضحك وارتد عنى، ثم جاءنى سيدى ابو الشتاء وسألنى فى غضب ووضع فى يده خنجرا كتلك الخناجر الطويلة العريضة التى يستعمل الجزارون «البوشية» ونزل بها على حلقومى وليس بين حدها وحلقومى الا قراغ لا يتجـــاوز سانتيما واحدا ، فقلت له : « اعدلوا هو اقرب للتقوى » فابتعد منى قليلا وقال : « والله لولا هذه الآية الكريمة لقطعت وتينك » تب الى الله ،

واياك والعودة .. فقال رفيقي : دع لحوم العلماء ، ولا سيما وهم شيوخك ... فقلت : استغفر الله وقسما بالله ان لا اعود الى مثلها ابدا.

وحل عيد الاضحى فقضيت يومه لاول مرة خارج اتق اسرتي ، ونبهني رفيقي في الحجرة 34 الى ضرورة اداء سنة صلاة العيد في « باب الساكمة » حيث سيكون هذا المكان ، مكان الصلاة الرسمية فان الخليفة السلطاني مولاي المامون بن مولاي الحسن سيوءدي هنا صلاة العيد في مهرجان رائق ، وسيكون الامام الخطيب العلامة العضو في المجلس العلمي سيدي عبد الواحد الفاسي ، فقلت : فرصة ثمينة : ان ارى لاول مرة موكبا سلطانيا ، واستمع الى خطبة والد الزعيم علال الفاسي فاجمع بين معرفة الوالد والولد ، وسيكون ذلك من غر ذكرياتي .

لشد ما اخذ مني العجب مأخذه وسيدي عبد الواحد الفاسي رضي الله عنه يملي خطبته في هدوء ، وفصاحة لا عهد لي بمثلها ، وهي اولى مرة في حياتي استمع الى خطيب بدون اوراق ، واستمع الى موضوع لا صلة له بمواضيع خطباء فقهاء البادية ، الا انهما يتفقان في هدف الوعظ وبين الاسلوبين والموضوعين ما بين الضب والنون .

وكانني قلت في نفسي : عجيب ـ والله ـ ان يكون والد بهذا المستوى العلمي والبياني ويكون الولد فوق هذا المستوى بكثير .

وكانني قلت : فعهدي بالامام مالك رضي الله عنه رجل مذهب ، وامام امة ، ولكن لم يخلفه في مذهبه وامامته اي ولد من اولاده ، ثم كانني قلت : ولكن الله سبحانه اراد خيرا بهذه الامة ، فكان هذا الولد من ذلك الوالد ، انها لعظمة متاصلة الجذور .

فلقد كنت استمعت الى بعض دروس السيد علال الفاسي كعالم ، واديب ، وشاعر ، وزعيم ، فاخذ مني العجب ماخذه ، ثم فسر لي اخي

ادريس البرحيلي معنى تلك العظمة فاسترحت الى الحقائق التي لا تاتي عليها الاحداث دهر الداهرين .

ولا اكتم القارىء : انه على الرغم من تملي هذه المتع الروحية في اول عيد اقضيه خارج اسرتي فانني شعرت بضيق الغربة عنها.

فاين ما الفته في اسرتي وقريتي « ورطاس » ؟ : الملفوف عقب الذبح ، والراس والارجل في المساء والدوارة في صباح اليوم الثاني ، ثم لحم الاضحية في مساء اليوم الثاني ، عرف لا احد يتجرا على خرقه ، ونسيت : ان اقول : ان مساء اليوم الثاني يطبخ الكتف الايمن.

وأين مني «سونة» وعي العاب فلكلورية ممتعة ، وضيافات هنا وهناك ... ثم لحم القديد من بعد ، حقا لقد شعرت بالم ممض .

ولكن نفحات الله وامداداته لا تنقطع عن عباده ، وخصوصا غرباء العلم

فلقد كان هنالك في فاس الجديد رجل يدعى : السيد غنام (I) « رحمه الله » وهو «واسطي» تعود ان يستدعي الطلبة الواسطيين فقط في العيد ذاته او في اليوم الثاني ، وانا من الواسطيين ، فالل وجدة يعدون «منهم» وان كنت قد تبت الى الله ، وخجلت من حمل عصاي معي أينما ذهبت حتى الى الحمام ، كما تبت من «تعويج» العلماء ، ومن اسلوب كلامي الواسطي ولهجته . وتقبل الله توبتي ، فقلما تعثرت في كلامي ولهجتي الا ان اصطنع ذلك لضرورة ما ... وكم استفدت من ذلك « الاصطناع » .

لاول مرة أرى « اللحم المبخر » وعدة دجاجات في صحن واحد .

فنحن في شرق المغرب كنا الفنا شواء كبش باكمله ، وبقرونه وهذا هو اعلى طعام كما وكيفا عندنا هنالك .

(I) غنام بشد النون .

اما «طواجننا» فهي متواضعة وان كانت متنوعة .

واننى احمد الله على اننى كنت لما ازل اجهل « البسطيلة » ولمحمر والمروزية ولو قدم الى دفعة واحدة لقلت ان بصاحب المنزل جنونا ، اذ كيف يقدم الى الضيوف فى اكلة واحدة ما يوكل فى شهر لـــدى العائلة الكبرى ؟

وعلمت لاول مرة فى حياتى : ان كثيرين من اهل فاس ، والذين من غيرهم على تقاليدهم يضحون بعدة اكباش على عكس ما الفته مـن التضحية بكبش واحد . وهذا بالنسبة الى « الاغنياء » .

ولو كان سيدى بوغانم او غنام رحمة الله عليه ، لا يزال على تقاليده الجزائرية لقدم الينا شربة ، وصحنا من اللحم لا يتجاوز الكيلو ، وصحنا صغيرا جدا من «السفوف» أي السباعيـة عشر معلقات ، أو تزيـــد قليلا من الطعام المدهون بالزبدة وفوقه سكر مطحون .

فالضيافة عند الجزائريين اذ ذاك « حرمة وتكبير » لا شبعة ، بل كل فى منزلك ، وتوجه الى «هذه التكبيرة» حتى ولو كنت فى البادية وقدم اليك «المصور» اى المشوى ، فلا تتناول الا ما تتناوله العروس(I) عندنا فى ليلة الدخول بها . اعنى مقدار خمسين اكراما من الطعام على الاكثر . اما فى فاس ، فكل حتى تحمل على « حمـار » او تـوضـع «فى ساقية» .

حتى اننى شعرت بعد الانتهاء من الاكل بان البطن استحال الـــى خابية خليع ، وجاء دور اطباق الحلويات كعب اغزال ، لبريوات ، لمخرقة، لغربية ، والكل فى صحون او اطباق تكفى كوكبة من الجيش ، واثناء ذلك ، ماء الورد ، والزهر ، والمباخر ، وتارة التملى بالمستمعين .

هذا الى خادمات مثل العرائس ، اى عرائس الاحلام يقدمن فى لطافة متناهية انواع الحلويات والطعام ، فى هدوء تام ، لقد انقلب انقباضى الى سرور تام ، لولا ان « شيطانا » من الطلبة همس فى اذنى : ان الطلبة الافاقيين سيشنون اضرابا لاجل غير مسمى على النظام .

«اضراب الطلبة الاقليميين عن نظام القرويين»(9)

كان من مظاهر السلفية الاسلامية التى اطل فجرها على الشعب المغربى منذ سنة 1925 ، وخلع عليها رداء الوطنية سنة 1930 م ، ان صدر ظهير شريف بادخال النظام على جامعة القرويين .

وخلاصة هذا النظام تبدو فى توزيع الزمن الدراسى ، وتحديد المواد المدروسة وجعل مراحل التعليم للحصول على العالمية فى ثلاثة مراحل : الابتداء ،، والثانوى ، والنهائى ،

والى جانب ذلك تكوين رقابة ضابطة للطلبة والعلماء على السواء فيما يخص استعمال الوقت ، والحصص المدروسة .

ثم مع هذا رفع رواتب العلماء بصفة محترمة .

وكعادة بروز كل جديد يخالف مألوس الناس ، سواء كان حقا او باطلا ، او بينهما ، فقد نشا اضطراب لا في صفوف الطلبة فحسب ، ولكن حتى في صفوف بعض العلماء .

وكان على قادة السلفية ، وهم على وفاق تام مع جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه ، ان يعالجوا كل اضطراب او ما اليه بكل حكمة ورحابة صدر . لانهم اولى من كان يعرف ويؤمن كل والايمان.

(1) العروس : الرجل والمرأة ما داما في عرسهما .

ان كل خارج عن المألوف من شأنه ان يهز النفوس هزا عنيفا ، ولمعالجته حتى يصبح مألوفا يجب التذرع بالصبر ، والحكمة .

فماذا شق على بعض العلماء في النظام ؟

وماذا شق على الطلبة ايضا في النظام ؟

مسبقا اقول : ليست هذه السلسلة من ذكرياتي هادفة الى التحليلات العميقة لاحداث التاريخ ، وحصر عللها ، واسبابها بكل ضبط ودقة .

فما لهذا قصدت : وانما هدفت فقط الى ابراز بعض مظاهر الحضارة الاسلامية في فاس بكيفية شبه خواطر عابرة .

وتلك هي طبيعة كتابة الذكريات ، أو المذكرات في الغالب .

لذلك ، وقد اعتذرت للقارىء الكريم ، فاني سابرز من علل الاحداث واسبابها مااراه ضروريا ، ولا يخل بمتعة تتبع الحلقات التي احررها بهذا الصدد ، مجتنبا العمق تخفيفا على القراء من جهة ، ولعدم الخروج عن طبيعة « المذكرات » من السلاسة والربط بين الاحداث والسهولة التي لا تتعب الاذهان ، ولا تثقل على الاحاسيس والمشاعر من جهة ثانية .

وفيما يبدولي ، او فيما اذكره قد حدث : ان ما حمل بعض العلماء ، على مقابلة النظام بحذر ، او انقباض ، كان يرجع في مجمله الى العوامل الآتية :

كانت نوايا العلماء في التدريس بجامعة القرويين تهدف في مجملها الى انهم ورثة الانبياء ، عليهم ان يبلغوا شريعة الاسلام ، وما كان لهم من المعارف التي تعين على تفهمها تادية لواجب الرسالة الملقاة على عاتقهم ، او التي حملهم اياها رسول رب العالمين ، وان ما يتقاضونه من

« اجور » ليس كاجور لاعمالهم التى هى من صميم عناصر عقيدتهم وانما هى « شبه اكرام » لهم ليس الا .

فاذا اضيف الى « شبه الاكرام » ماكانوا عليه من اكرام العامة والخاصة اكبارا لهم وتقديرا ، وما كان لبعضهم من مرافق وموارد خاصة، فذلك « يكفيهم » لضروريات حياتهم ، فالعالم الاسلامى الذى يظل على وضوء من الفجر الى ان ينام على وضوء واوراد ، قلما اقترب منه مس للنهم في هذه الحياة .

فهو يشعر ان جسده يتغذى باغذية علوية لا تفتقر الا الى شيء قليل من الضروريات المادية .

واسرة العالم الذى يعيش كل حياته على وضوء ، تشاركه بافكارها، ومشاعرها فى هذه الاغذية الروحية ، وتاخذ نصيبها معه من الاكبار والاعظام .

فمن ذا لا يجل زوجة العالم وابناءه وبناته ، ولا يكرمهم لوجه الله حسبا ومعنى ؟

كان خرق هذا الاطار النبيل يعد من الشواذ فى حياة العالم واسرته.

وهذه النظرة الشعبية الى العالم واسرته ، مع ضروريات الحياة المتواضعة من اعز ما كان العلماء يعتزون به .

ومتى اخذ العالم فى النظام راتبا عاليا نشا اضطراب فى وضعية الاسرة ، فلم يبق بعد ذلك أي عذر لسيد العالم يعتذر به في الانفاق الواسع اكثر من مبلغ راتبه .. وهذه واحدة ، ثم ان النظرة الاعظامية من طرف الناس الى العالم تنقلب راسا على عقب ، وهاذه ثانية . وهى ادهى وامر من الاولى .

فما كانوا يعدونه : وقارا على سيدى العالم ، يعتقدونه ـ بعد الرفاهية ـ انانية واستكبارا ..

فقد الفت العامة ، ان معنى العالم : العلم ، والتقوى ، والفقر ، ومهما إستغنى ، غيروا نظرتهم اليه .

والمألوف : ان الطلبة من طبقة حفظة كتاب الله العزيز ، واغلبهم بالنسبة للغرباء ياتون الى القرويين ، وقد فرغوا من حفظ كثير من المتون ، وفهم بعضها .

واثناء مرحلتهم ما قبل القرويين ، يكونون على جانب عظيم من احلال العلماء منازلهم المحترمة والمحبوبة معا .

فهم يجلسون اليهم ، وكانما على رؤوسهم الطير ،اما هيبة ، واما احتراما ، واما خجلا . وكان كل ما في العلماء يحمل على التقديـــر والاجلال .

فلا يتجولون في الشوارع ، ولا يمشون بسرعة ، وانما ينقلـــون خطواتهم في تؤدة ووقار ، مطرقين اما في تفكير علمي ، واما لصون اعينهم من النظر الى المحارم .

والخلاصة : انهم ملائكة يمشون على الارض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما ، وكم كان يستوقفني منظر عالم يمر امام الناس وهم يفسحون له الطريق . ويحيونه ويسلمون عليه في اكبار عجيب . روعة ، وأي روعة – – أن ترى العالم في هذه المشاهد الخالدة ،

ومن طبيعة « النظام » ان يلتحق به شباب من المدارس العصرية ، اقل بكثير خلقا من نوع الطلبة المشار اليهم قريبا .

ومن شان ذلك : ان يفقد العلماء تلك التجلة شيئا فشيئا حتى في أوساط الطلبة التقليديين بعامل العدوى ، وهذه هي الثالثة .

وهذه متفرعة عن الاولى . لقد الف العلماء الشيوخ بطبيعة البيئة : ان يتساهلوا في ضبط الوقت ، فالعالم يعدك باعطاء درس عقب صلاة

الصبح ، او الضحى ، او بعد الزوال ، او بعد صلاة العصر ، او بين العشاءين ، فلا ذكر أبدا السادسة ، والثانية الخ .

واذا حصل عذر ما للعالم ولم يحضر فما احد يتجرا على محاسبته، ويكفى في بعض الاحيان : بان يسأل الله ان يكون المانع خيرا ، فلا يزيد العالم على ان يهمهم ويدمدم ، ولا احد يجرؤ على طلب التفسير ، ومن طبيعة النظام « الوقت المحدد بالضبط ، وخمس دقائق تحمل «المراقب» على سؤاله في حزم ، وابتسامة مصطنعة عن سبب التأخر ؟ يسأ له في جرأة لم يألفها بقوله : انعام يا سيدي مرت خمس دقائق ؟ ونحن ملزمون فى الدقيقة الاولى من التاسعة مثلا بالالتحاق بالدرس الثانى والاسجلت مخالفة فى سجلاتنا النظامية الشخصية ، ثم فى سجل المراقب العام ، ثم في سجل المجلس العلمى ثم يؤدى ثمنها عند الامتحان .

ان سيدنا العالم قد يكون تاخر الخمس دقائق لا فى المنزل ، ولكن اثناء طريقه الى القرويين ، اذ ان الناس تعودوا ان يحيوه ويسلموا عليه . ويسألوا عن « الاحوال » ، ولقد بذل كل طاقته ليخفف من تلك التقاليد النبيلة بالرغم عنه ، لان ساعة النظام تستحثه ، ومع ذلك فقد تاخر خمس دقائق ، فاذا ما سمع هذه المحاسبة الدقيقة من المراقب والتلاميذ ، وقد يستدعى من اجلها الى المجلس العلمى اذا تكررت : وما ادراك ما رئيسه المرحوم مولاى عبد الله ،

قلت : اذا سمع ذلك ، شعر ان نفسه تقول له : مالك ولهذه الوضعية التى ضاعفت راتبك الشهرى مرات ، واضعفت قيمتك مرات ، وهذه هى الرابعة .

انه كان من المألوف تقليديا ، ان العالم يسلم له « قرار وزيرى للعدالة » فور تسلمه للعالمية ، او بعدها بقليل ، المقصود انهما كانتا متلازمتين .

فهو يعطي درسه او دروسه في اوقات لا تضايق « جلسته » في سماط العدول ، او في منزله ، وطبيعة النظام تابى عليه ذلك ، في حين ان بعض العلماء لم يكونوا يمارسون العدالة للعوض فقط ، ولكنهم يمارسونها كمظهر من مظاهر تقديرهم ، او لاسداء الخير للقرباء ، والاخلاء وذوى الحاجات ، وهذه هي الخامسة .

ان الانشاء من جملة المواد التي يحتويها النظام ، وفن الانشاء نجد الطالب ينمو ويترعرع ، ويبلغ اوج نضجة عن طريق ممارسة اللغة العربية في ميداني النثر والشعر ، وكان بعضهم اعنى العلماء يومن بقوله عليه الصلاة والسلام لان يمتلئ صدر احدكم قيحا ، خير من ان يمتلئ شعرا ، وكتب الآداب القديمة التي تعد من امهات الاداب العربي ، المبرد البيان ، والتبيين ، وكليلة ودمنة ، البخلاء الاغاني ، وما اليها لاتدرس « رسميا » في القرويين ، والصحف والمجلات الشهرية كان يتناولها بعض شباب العلماء ، والكثير يعتبرها : مجرد « اكوازط » فمن اين لبعضهم بفن الانشاء ؟ وقد قيل اذ ذاك : ان احد العلماء كان لا يستطيع أن يحرر رسالة تهنئة او تعزية الا اذا حررها له احد تلامذته من ذوى «الكوازط» .

فلم يكونوا في معظمهم يحفظون غير طائفة من الاشعار التي تتعلق بشواهد النحو ، او البلاغة ، فلا حفظ من الكتب الادبية المشار اليها قريبا ، ولا من « المقامات » ولا من دواوين ابى تمام ، والمعرى ، وابى العتاهية ، وامثالهم من مشاهير الشعراء والكتاب .

فاذا ما عجز العالم عن تمرين الطالب على مادة الانشاء ، فيصغر في عينه ، وهذا ما ياباه سيدنا العالم ، وهذه هي السادسة .

ان مثل الكتب الادبية ، والدواوين الشعرية ، والمقامات ، من مواد « سيدنا النظام » . وكما سلفت الاشارة ، فان بعضهم لم يدرسها ، انه

يفهمها جيدا ، ولكن ما هو منهج تعليمها ؟ وما هو الاسلوب المتبع فـــى دراستها ، الله اعلم وحده بذلك .

واذا ما اضطرب منهج العالم واسلوبه ، صغر فى عين الطالب ، وهذا ما ياباه سيدى العالم . وتلك ايضا هى السابعة .

وخلاصة النقطتين الرابعة والخامسة اننى لم اجد فى ذلك العهد من بين العلماء امثال عبد الحميد الكاتب ، واشباهه كالجاحظ ، وابن قتيبة . فالانشاء المتداول فى ذلك العهد ، الوثائق واسلوب الفتاوى ، وطريقة انشاء الاحكام الشرعية ، واسلوب الشروح ، والحواشى ، والتعاليق ، والتقارير .

والى جانب ذلك المنظومات الفقهية ، والحسابية ، والفرضية الخ ...

ودراسة الآداب شعرا ، ونثرا ليس في حاجة فحسب الى فهم معانى القصيدة والمقامة مثلا ، فذلك ما لم يكن يجهله اولئك العلماء ، وهو ادنى معاناة للافاق الادبية .

وليست فقط فى حاجة الى خبرة بالمناهج والاسلوب ، وقد علمت ما اخبرتك به من قبل ، وان كانت هذه من الاسس الضرورية لدراسة الاداب العربية .

فالمهم ايضا هو ايضاح مظاهر المدارس التي ينطلق منها الشعراء ، والكتاب ، وايضاح بعض الابيات من القصيدة على انها ماخوذة من بعض ابيات شاعر او شعراء اخرين ، او مقتبسة منهم ، او منسوخة ، او مسلوخة ، او مسروقة بجسدها وثيابها ومعانيها .

ويتخلل كل ذلك ،ذكر المناقضات الشعرية ، ووصف المجالس الادبية شعرا ونثرا ، وما كان لذلك من اثار في الاوساط المتنوعة ، وكون الشاعر المدروس يغلب عيه ، الفخر او المدح ، او الغزل ، او الهجو ، او انه خبير

بوصف الأجواء ، او وصف الابل ، او غير ذلك من المميزات التي يتميز بها كل شاعر ، ومثل ذلك = تقريبا يقال في الكاتب ، هل هو من اصحاب السجع او الترسل ، او ممن يؤثرون الكلمة المتينة على المعنى اللطيف، او من يطبع كتاباتهم فن البديع اعتناء بزخرفة كتاباتهم ، او غير ذلك مما يكون من مميزات كل كاتب يطلق عليه هذا اللقب بحق ، كما يطلق لقب الشاعر على صاحبه بحق .

وهذه الدراسة الأدبية على مثل هذه المبادىء او بهذا المنهج في حاجة جدا الى الاطلاع الواسع والحفظ الكثير ، والحاسة الدواقة الموهوبة ، والتمرين المستمر المتواصل .

فالمجال الادبي باختصار ، في حاجة الى موهبة ، ثم الى حفظ ، ثم الى ذوق دقيق ، ثم الى حس مرهف ، والى ذاكرة قوية ، وبداهة كالبرق الخاطف ، علاوة على الخبرة الواسعة بالتاريخ وفلسفة التاريخ ، ودراسة البيئات المتنوعة .

وهذا ما لم يكن لبعضه اثر في جامعتنا القرويين اذ ذاك الا شذوذا.

وهناك عنصر مهم في تكوين الاديب عادة ، ذوق في الموسيقى ، و « حياة ادبية » تقتضي كثيرا من التضحية بالاخلاق ، وعلماؤنا اذ ذاك ، من الخجل الى التقوى ، ومن التقوى الى الورع ثم الزهد ، فلم يبق للادب منفذ يتسرب به اليهم .

ولذلك سمعت احد شيوخي مباشرة يقول : انني لا ادرس للطلبة في النهائي الكتاب الفلاني ، الا بعد ان ادرس « الحصة » على العالم الفلاني .

وانني اعرفهما معا وكلاهما من شيوخي ، ولكن تابى على المروءة واجلال شيوخي ان اذكر اسم احدهم ولا يزال حيا ، وثانيهم وقد صار الى عفو الله .

ولولا امانة التاريخ ما اتيت بهذه الاشارة ، فمعذرتى الى شيخى الحى واطال الله حياته ، وشمله بكامل العافية ، والى المتوفى ورحمة الله عليه ورضوانه .

وهناك عامل متفرع عن العنصر الاول ، ولعله اهم من الجميع .

فما هو ؟

نعم ، هناك عامل متفرع عن العنصر الاول ، ولعله اهم من الجميع .

فما هو ؟

انه الايمان العميق ، والمتوارث بقيمة الامانة العلمية التى طوق بها العلماء ، ألا وهي تبليغ العلوم الاسلامية الى الخلف بالمناهج التي من شانها ان تكون خير خلف لخير سلف وخلاصة المنهج اذ ذاك ، ان يتدرج العالم بالطالب مرحلة للوصول به الى الغاية الاولى المستهدفة من طلب العلم الاسلامى على الخصوص .

الا وهى استكمال الطالب عناصر « الملكة العلمية » اى ايصاله الى مرحلة يكون فيها قادرا على تفهم العلوم بما تمرن عليه من اسلوب التفهم والتذوق الصحيحين السليمين .

فالطالب بطبيعة الحال ـ يتدرج من دراسة المبادىء العلمية الى الثانوية ، ثم الى العالية ، والمرحلة الاولى هى اشق المراحل وافيدها ، اذ نقطة الانطلاق هى الاساس للفوز او الاخفاق .

وكانت نقطة الانطلاق ، او نقطها ، ان شئت ، عقائد ابن عاشر وفقهه ، وتصوفه ونحو الاجرومية ، وصرف لامية الافعال ، وما فى مستوى هذه المدروسات من المؤلفات ، وكان من المسلم به سلفا : ان الطالب لا يطلب العلم الا وقد اتقن حفظ كتاب الله العزيز. المالوف ان يكون عمر الطالب على وشك نهاية العقد الثانى ، وقد يكون ما بين

الثاني والثالث ، فالعالم يتحدث - حينذاك مع بالغ ، راشد ، يتوفر على رغبة اكيدة لطلب العلم ، وكثيرا ما يكون حافظا متقنا لمتون مقروءاته في المرحلة الاولى قبل ان يشرع في دراستها .

وبمستواه هذا يتوفر على طاقة تركيز عقله فيما يدرس معه .

وكان للعلماء اسلوبان اثنان في الدراسة .

فمنهم من يرى : الرفق بالطالب ، فيلقنه قواعد المرحلة الاولى بدراسة سطحية ، او شبه سطحية ، لاعداده لدراستها مرة ثانية بعمق .

ومنهم من كان يرى : ان الطالب غير مفتقر الى هذا الاسلوب ، بل يجب ان يمرن من اول مرة على دراسته باسلوب عميق ، وانه سيالفه بعد دروس قلائل ربحا للوقت .

وعلى اي الاسلوبين ، فمهما انهى مرحلته الاولى بما يجب ان يكون عليه من معارف ابتدائية مهمة ، الا وسهل عليه جدا : ان يقطع المرحلة الثانية ، ثم العالية .

وفي هاتين المرحلتين : الثانية والعالية ، يكون من غير الضروري ان ياتي على مدروساته من اولها الى اخرها من حيث التلقي عن العلماء .

بل يعتمد على نفسه في اتمام دراسة ما لم يدرسه على شيوخه .

فرسالة التلقين تنحصر في تكوين « ملكة الادراك » لا في حشو الادمغة بالعلوم ، الذي هو من اختصاص الطالب .

فاثنان في اثنين أربعة ، يقيس الطالب عليها : أربعة في أربعة ستة عشر وهكذا دواليك .

ثم ان الطالب لا ياتي الى العالم وهو يجهل ما هو الدرس الذي

سيلقنه ، بل انه يكون على علم تام بموضوع الدرس ، لذلك يسهر ليله على تفهمه مباشرة ، او بواسطة طالب اعلى منه مستوى فى « الملكة » ، او بهما معا .

فيكون الطالب المجتهد ، اما انه فرغ نهائيا من فهم كامل درسه ، ولم يبق له الا ان يحضر الى العالم ليتعرف على اسلوب الاداء للتمرن عليه .

واما ان يكون : بين ... بين ... فيتمم النقص ، ثم التعرف على اسلوب الاداء ، وهذه الطريقة فى تلقى العلوم تصاحب الطالب فى جميع مراحله الثلاثة .

وهكذا يتكون الطالب فى المراحل الى ان يصير عالما .

هذا من حيث التلقى والتلقين .

اما من حيث التكوين الدينى ، فالعالم منظور اليه كمثال للتطبيق الدينى .

وبالتلقين والتطبيق من طرف العالم ، يتكون خلفه على نهجه فى ذلك ، وهذه هى الغاية الثانية السامية من دراسة العلوم الاسلامية وما تفتقر اليه من الوسائل ، التى هى من مشمولات الواجب ، اذ ان كل ما يفتقر اليه الواجب ، فهو واجب ،

لكن ماذا كان يتخوف منه العلماء فى « النظام » بالحذر ؟

اولا انه من المحقق ان نواياهم كانت سليمة ، واهدافهم سامية ، وانا ـ شخصيا ـ لا استطيع ان اعقب على آراء شيوخى او شيوخ شيوخى .

ولكن هذا لا يمنعنى ، ولا اعده من التنقيص بتقديرى ومحبتى

لهم في الوقت ذاته ، ان اقول : ان كل اصلاح عام ، لابد فيه من التضحية بالنظريات الخاصة المحترمة ـ والا لما تحقق أي اصلاح ما ، أو تطور شيء في الحياة .

« فالنظام» كان نتيجة لتفكير عميق ، مرفوق بالنوايا الصادقة ، والنظرات البعيدة ، ومراعى في انشائه عناصر لا يجب أن يكون كل الناس أدركوها في عمقها وأبعادها ، وحسبنا هذا فيما يخص العلماء الحذرين من « النظام » .

« اضراب الاقليميين عن النظام » (10)

اما فيما يخص الطلبة الاقليميين فاختصره فيما يلي :

1 ـ انهم درجوا في البادية والقرى الحضرية الصغيرة ، واستخدام الزمن بكيفية مضبوطة مما يتنافى وما درجوا عليه من عدم الاكتراث به .

2 ـ كان منهم من تقدم في السن ، ومعلوماته ضعيفة ، الامر الذى سيضعه في المرحلة الاولى مع شباب دون العقدين ، وهذا يخجله ويزرى به في نظره .

3 ـ كان منهم من يدرس علوما خاصة ، وما به من حاجة الى غيرها، اما ان ذلك راجع لعدم تذوقها كلها ، واما لانه اراد ـ مثلا ـ ان يكون في سلك العدول ، او القضاء ، فيكفيه النحو والفقه ، ولذلك كان بعضهم يقول : ان بيتا واحدا من منظومة التحفة ، يساوى : كبشا : اى اما فتوى، او عدالة ، او قضاء .

4 ـ ومنهم من كان ذا معرفة طيبة ، ولكنها لم تكن مستوفية جميع مواد المراحل في النظام، فمثلا اذا كان ينقصه « الحساب » فقد يرجعه ذلك الى مرحلة يتعلمه فيها ، ولكنها تتنافى مع سعة معارفه في غيره .

وحسبنا هذه المعالم فيما يخص الطلبة الافاقيين لنتحدث قليلا عن نتائج رفضهم للنظام ، فلقد قرروا شن اضراب عن النظام لاجل غير مسمى ، واختاروا ضريح مولاى عبد الله للالتجاء والاعتصام ، وفى الوقت نفسه ، شكلوا وفدا منهم للاتصال بالخليفة الملكى اذ ذاك ، المقدسة روحه مولاى المامون ، على ان يشرحوا له اسباب الاضراب ، ويلتمسوا منه رفع عريضة الى المغفور له جلالة محمد الخامس ، ويعينهم على نجاح طلبهم ، بان يتركوا واختيارهم للمواد العلمية التى يرغبون في دراستها ، ولقد كنت من أعضاء هذا الوفد امثل طلبة المدرسة العنانية ، وبالضبط ، امثل طلبة «الواسطة» .

وفى عمقى لم اكن انوى ان اتحدث مع ما كان لى من الشجاعة الادبية على ذلك :

لانى لم يسبق لى – اذ ذاك – ان تحدثت بمحضر امير ، وكانت رغبتى ان اطلع على الاسلوب الذى يتحدث به مع الامراء ، وكيف يتحدث الامراء .

والى حد الساعة لا يزال ماثلا امام عينى ذلك المشهد العجيب ، وانا دون العقد الثانى من عمرى قليلا ، فلقد استقبلنا الخليفة مولاى المامون رحمه الله ، استقبالا كريما ، واستمع باهتمام كبير الى التفسيرات التى قدمها بعض الطلبة اليه ، وواعد ببذل كل الممكن لتبليغها .

ويؤلمنى جدا اننى لا اذكر ولا جملة واحدة مما قال لنا رحمه الله فلا اتصور الا ذلك الاستقبال الذى كان فى غاية من السماحة واللطف. واذكر هدوءه وفسح المجال للمتحدثين معه حتى كانما كان كالوالد الكريم ينصت الى اولاده .

كما انى اذكر اخلاقه : انه كان رحمه الله يشترك مع المولى عبد الحفيظ رحمه الله فى اكرام الطلبة والدفاع عنهم ، كما كانوا هم كذلك يحبونهما حق المحبة والتقدير .

واذكر للمولى عبد الحفيظ رحمه الله كما روى لى اذ ذاك : ان وفدا من المجاورين لبعض المدارس فى فاس ، اشتكى له من الطلبة الذى يعتدون على « حرماتهم » فسالهم – رحمه الله : كيف يفعل الطلبة ؟ فقالوا يشيرون اليهن من فوق السطوح بايديهم : ان تعالوا .. فاجابهم : قولوا ان يشرن اليهم وبأيديهن اشارة النفي ، وكان هذا الجواب ختام استقبال الوفد .

ونفس هذه الروح الطيبة اذكر جيدا اننا لمسناها فى الخليفة الملكى مولاى المامون رحمه الله .

وكان من نتيجة ذلك ، ان صدر الامر المولى باعطاء مهلة قدرها ثلاث سنوات للطلبة على ان يدرسوا اختياريا ، ثم الالتحاق بالنظام اجباريا ، فكان الحال كما صدر الامر .

اما العلماء فاجبروا على الدروس النظامية من غير مهلة .

واثناء هذه المهلة اذكر هنا احدى مظاهر مضايقة النظام لبعض العلماء الا وهو شيخنا العلامة المفتى سيدى الحسن الزرهونى رحمه الله.

وكيف كان ذلك ؟

« مع شيخنا المرحوم سيدى الحسن الزرهونى » (11)

حينما صدر الامر باعطاء الطلبة مهلة ثلاث سنوات يكون الالتحاق بالنظام بعدها اجباريا ، كنت من الذين شملتهم هذه المهلة ، لان الذين يلتحقون بالجامعة ولم يحضروا يوم صدر الامر بما ذكر يجبرون على النظام فلا يستفيدون من تلك المهلة .

ولذلك وضعت لنفسي « خطة » للدراسة ، فكانت باختصار هكذا :

السنة الاولى النحو من مختلف كتب قواعده المعروفة اذ ذاك ، الصرف كذلك ، العقائد ، مبادىء الاصول ، والمنطق ، ومصطلح الحديث ومبادىء علم البيان والعروض .

والسنة الثانية ، الفقه بمختصر الشيخ خليل والتحفة والجوهر المكنون ، والسعد .

والسنة الثالثة ، الحديث والتفسير ، ومطالعات متنوعة وحفظ ما امكنني حفظه من دواوين الشعر ، ومطالعات متنوعة ايضا .

وكان شيخنا سيدى الحسن الزهونى رحمه الله يقوم بتدريس ثلاثة اجزاء من مختصر الشيخ خليل : العبادة في التاسعة ، او الثامنة ، البيوع فى العاشرة ، الذكاة فى الثانية .

اما الاجارة ، فقد كنت ادرسها فى اخر ساعة على الامام المرحوم سيدى ادريس المراكشى الضرير ، وكان قانون النظام يجبر العلماء على تبيين معانى الكتاب المدروس بدون توسع او تعمق .

لذلك كان شيخنا المفتى سيدى الحسن الزرهونى رحمه الله يقتصر على ما تدعوا اليه الضرورة ويحدده قانون النظام .

وكانت ، المهلة المذكورة تسمح لكل من استفاد منها ان يحضر دروسه فى الفقه كما يحضر من شاء من غيره .

وكانت الدروس الفقهية مما يتحلق حولها اكثر عدد من الطلبة .

فكانت حلقات سيدى الحسن الزرهونى من اوسع حلقات الدروس.

وخصوصا ان شيخنا هذا كان يجمع الى التضلع فى الفقه : الفتوى، والعدالة ، فهو فقيه عملى .. وكثير من الطلبة غير الاهليين يطمحون الى « خطة العدالة » او « القضاء » وشيخنا هذا افيد لهم فقها وتطبيقا .

وذلك علاوة على انه اذا كان على « خاطره » يخلل دروسه بنكاهات ونوادر تخفف من عبء الدراسة الفقهية ، وخاصة فى يوم الاربعاء ، فانه كان ينطلق بكيفية ملحوظة ، ويبتسم رحمه الله ويقول : « ايو الخ .. انه يوم اربعاء » يعنى لاباس « بالتحميض » .

وحدث ان طالبا افاقيا كان يدعى : « الحجاج » اخذ يسأل الشيخ عما يشعر به من تخالف الفقه مع الحديث النبوى الكريم .

وكان الشيخ يفسر له ذلك باختصار .

ولما اكثر « الحجاج » من هذه الاسئلة ، ثار الشيخ ثورة خرج فيها عن هدوئه المالوف ، ومما اذكره له ملخصا وباختصار ، قوله له :

« نحن الان بصدد مقروءات محددة ، وممنوعون من اى توسع او تعمق ، او مقارنة ، وللفقه منهاجه وللحديث منهاجه ، وكل يدرس على حدته ، وليس هناك اى تناقض بين الفقه الاسلامى والسنة النبوية الكريمة .

غير انه قد اختلف المجتهدون الائمة حسب تكوينهم ، وبيئاتهم ، وما وصل اليهم من السنة والاثار . وكل امام من ائمة المسلمين وضع لمذهبه الاجتهادى قواعد بنى عليها مذهبه ونحن الان ندرس فقه المذهب المالكى ، وهنالك احاديث لم ياخذ بها . وموضوع مناقشتها الدروس الحديثية ، وقد علمت اننا مجبرون على دراسة ما هو محدد لنا كما ، وكيفا ، فليس من حقك ابدا ، ولا من حقى ان نتجاوز ذلك ، فعوض ان تراجع درسك ـ يقول الشيخ ـ تترك الدرس وتذهب الى مطالعة الحديث ؟ فهذا تلاعب صريح .

واسمع ـ يقول الشيخ ـ آخر جواب حول الفقه المستنبط من السنة مباشرة ثم صار يملى ما لم نستطع متابعته ، كل ذلك وعيناه

تتقدان كالجمر ، والريق ، يتطاير من شفتيه ، وهو يتحرك على كرسيه بكيفية تعتقده انه يحاول القيام والتوجه الى « الحجاج » لـ ... ثم قال له اخيرا ، انذرك بالطرد من درسي ان حاولت ذالك مرة اخرى ، واراد الحجاج ان يتعذر فلم يفسح له المجال لاى كلام .

ولقد لفتت ثورته هذه ، العلماء والطلبة فى جميع الحلقات ، حتى انه ربما كان الجميع قد وعى كل ما قاله الشيخ رحمه الله .

وبالمناسبة اقول : انه كان فى القرويين بعض الشيوخ مثل شيخنا هذا ، يثورون ثورات عنيفة كلما شعروا بتعنت ، او تيه ، او ... او ..

اذ كانوا يغارون كل الغيرة على شخصيتهم العلمية ، فهم وديعون امام الاسئلة المستفيدة ، ولاكنهم ثائرون امام كل تعنت واكثار غير محمود .

ورثوا ذلك عن بعض شيوخهم الذين ورثوه شيخا عن شيخ الى امام الائمة مالك بن انس رضى الله عن الجميع .

فلقد كان الامام مالك رضى الله يقسم تلقين العلوم الى قسمين : الحديث ، المسائل ، اى الفقهيات ، وكلما تجاوز احد حدود الادب امر بسحبه من المسجد النبوى الكريم على وجهه كما كان رحمه الله ، اى الامام مالك لا يجيب من يسأله عن مستنده حديثا وفقها ، وكان يقول : « انا لا نروى الا عن ثقة » او ما يشبه هذا الجواب ، وكان «سفيان» يقول : اذ قال مالك بلغنى فهو اسناد قوى .

وهكذا كان بعض الشيوخ المتضلعين فى الشريعة الاسلامية يستنكفون من الاسئلة غير الموءدبة ، على ان « مالك » رضى الله عنه ، افتى بعدم جواب المعاندين والمتعنتين ، ولشيوخنا اسوة به . نعم : بهذه المناسبة اتحدث عما علق بذاكرتى من عهد الدراسة عن شيخنا سيدى

الحسن الزرهوني ... اذكر انني علمت ان الشيخ من « مدينة زرهون » وانه كان طالبا في القرويين ثم اصهر اليه المرحوم رئيس المجلس العلمي سيدي احمد بن الخياط .

ومما حكى لنا – اذ ذاك – ان الشيخ على الرغم من سعة علمه ، وقوة « ملكته » : غلبه الخجل ساعة اختباره لنيل الشهادة العالمية . ولكن لدقة اطلاع شيوخه على سعة علمه ، وقوة ادراكه ، اجمعوا على تسليمه الشهادة العالمية ، ولو ان خجله المحقق اوقفه موقف العاجز. هكذا رووا لنا حينذاك .

وقد ادركته وصورته وهندامه كما يلي : طويل ما ، شيء من السمن ، قوي العضلات خالطه شيب كثير ، وكافي اذكر انه كان نصف اشيب ، كث اللحية والعارضين ، غير طويل شعر اللحية والعارضين ، افوه ، اعين ، يمشي وكانه في زهو .. ولكنه كان يمشي على الارض هونا ، انيقا في منتهى الاناقة ، حييا ، لين الجانب ، تعلو وجهه هيبة ووقار ، ولا يثور الا أن يلمس عنادا أو تعنتا .

منبسطا في دروسه من حين لآخر ، حاضر النكتة ، حاضر الجواب ، قلما اجاب بعد تامل فكانما الاجوبة المتنوعة ترابط بين فكيه، نعم حينما يكون الجواب طويلا ، كثيرا ما يرفع بصره الى السماء ، ويغلبه يمنة ويسرة ، حتى لتعتقد انه كان يقرؤه في ورقة محررة .

ومن فكاهاته في دروسه قوله :

عليكم ، وانتم تقطعون شارعا ما ، ان تمشوا مطرقين فلا تلفتوا يمنة ، ويسرة ، وخلفا ، لان ذلك يذهب بوقاركم ، ولكن عندما تكونون في رأس الشارع ، أو الزنقة ارفعوا رءوسكم ووجهوا أنظاركم الى من معكم لتتعرفوا ، سريعا – على من يكون هناك من اشخاص واحداث ،

ثم تابعوا مشيكم في وقار فان ذلك افيد لعقولكم وكرامتكم .

وفي بعض الاحيان كان يقص علينا بعض قصص « جحا » ويرويها لنا بالفاظها الصريحة ، فنضحك كثيرا ، ونفرح كثيرا ، ونعجب كثيرا ، فشيخنا : برغم وقاره المعروف يروى لنا قصص « جحا » بالفاظها الصريحة ، كان مما يبعث فينا الضحك والفرح والعجب .

واذكر انه في يوم اربعاء لاحظ ان الطلبة في الحلقة كلهم وجهوا انظارهم جهة المحراب فوجه نظره هو كذلك ، وقد لاحظ ان الحلقات كلها على هذا الحال ، فقال لنا ـ وهو يبتسم : انخ .. لقد جاء ، وبه اليه قال : يعنى بذلك المرحوم الشيخ ابا شعيب الدكالى ، الذى كان من المقرر ان يلقى درسا بين العشائين ، وجل العلماء يحضرون درسه .

وكانت فرصة ثمينة لى حضرت هذا الدرس ، وما زالت بعض الجمل ترن في اذنى الى الان اذ كان يقول : « الصبر هذا ينشأ عنه الحلم ، الصبر هذا ينشأ عنه الجود والكرم ، هذا ما اذكره ، ولا زلت اطيق تقليد لهجته رحمه الله .

ومما كان يحدثنا به شيخنا سيدى الحسن الزرهونى : الاخبار المتعلقة بـ « بوحمارة » فكان من حين لاخر يروى لنا منها الشيء الكثير ، وهو يبتسم كثيرا ويضحك قليلا ، ثم يقول : ايوالخ .

وكان رحمه الله محبوبا كل المحبة عند الطلبة ، ومحترما ومحبوبا لدى العلماء ، ولفصاحته وقوة بيانه كان الاذكياء من طلبته في غنى عن « المطالعة » على ان كثيرين من العلماء كانوا بهذا المستوى او ما يقاربه ، فدروسه ايسر الدروس علينا .

فرحمة الله عليه رحمة واسعة ، ورضى عنه اكمل الرضاء امين .

« مع شيخنا الخطيب سيدي الهادي ابن المواز » (12)

شيخنا هذا اذكر انه يبدو في سن الشيخوخة ، اعني في اوائلها ما بين الستين والسبعين ، متوسط القامة يميل الى القصر ، يغلب بياض شعره على سواده ، فوق عينيه نظارتان ، حييا بفيض وجهه نورا ، وبشاشة ، يوءثر التبسم على الضحك عملا بتعاليم الصوفية الذيـــن يحرمون الضحك ، والفقهاء يكرهونه لان الضحك من اية قساوة القلب عند الصوفية ، ومذهب للوقار عند الفقهاء ، وكان العلماء اشد اعتزازا بشخصيتهم العلمية ، ولا ينطلقون الا امام اندادهم ويترفعون في مروءة عن العامة ، ولا ينزلون الى ممازحة السفهاء .

وشيخنا هذا ــ علاوة على انه من العلماء ، ومن بيت علم ، ، ووجاهة ، ونفوذ ، كان غنيا ، فساعده غناه على الاحتفاظ بشخصيتـــة بكيفية اقوى ، وكان انيق الملبس التقليدي ، ولا تشعر بما يمس من اناقته ، يمشي في الشارع ــ كسنة العلماء ــ مطرقا ، يتلقى التحيات ، والانحناءات باستمرار ، ويرد عليها باحسن منها . فاذا وجد ازدحاما يقف ولا يطلب من احد ان يوسع له وبمجرد ما يعرفه شخص او يشعر باخر به بسبب هيئته العالمية ، يوسع له المجال ، وكعادة العلماء ــ فانك ترى شفتيه تتحرك دائما ، اما لقرءان يتلوه ، او لاوراد التزمها ، او يحلل مسالة علمية ، او يتعوذ من منظر ، او يدعو بخير خاص او عام.

كان ذلك في شهر ذي القعدة الحرام عام 1952 حيث التمسنا منه : « الفية مسرودة » وكان من عادته ان يقيم لطلبته مادبة قبل ان يشرع في دروسه ، واخرى في اختتامها ، او ايقافها لسبب من الاسباب ، واهم الاسباب ان صحته لم تكن تساعده على مواصلة الدراسة ، ولا تسعه الا لاعداد خطبة الجمعة في مسجد المدرسة العنانية .

استقبلنا فى باب منزله بالطالعة الكبرى ، وقريب من المدرسة العنانية ، ولا اذكر من رافقنى بالضبط الا المرحوم السيد ادريس بن عبد القادر اليزناسنى البرحيلى ، والسيد المنور اليزناسنى الزعيمى ، وفى لحظات ، قبل طلبنا واستدعانا لطعام العشاء ، ولعله فى مساء غده.

كان منزله من المنازل الفاسية التقليدية ، عبارة عن قصر كبير تعطره حديقة منزلية فيها انواع من الاشجار المثمرة ، الى جانب انواع من غروس الازهار والرياحين ، يشتمل فيما اذكر على طبقة سفلية وفوقها « منزه » : حجرة ربما كان طولها عشر متراث فى اربع ، او خمس عرضا، وكان الى جانبها المقابل للحديقة اسوار رقيقة ، وكله بمنزلة نافذة دون باب ، ويرتفع بناء هذا الجانب الى الصدر قليلا ، يتكئى عليه الانسان فيطل على الحديقة الغناء فيغمره النسيم العطير ، كما يمتد البصر الى فضاء واسع .

دخلنا اولا الى حجرة ربما كانت عن يسار المدخل ، ومنذ دخلنا وهو يجول بنا فى مختلف المعارف : حديث ، تفسير ، اخلاق ، سيرة .

وكان لحديثه حلاوة تنفذ الى القلوب بكامل اليسر نفاذ النسيم العليل مع مسام جسم الانسان ، وكنا : الطلبة ، واولاده نستمع اليه في وقار وخشوع ، لا نسأله ، وانما نكتفى بتتبع احاديثه العذبة وتلك كانت تقاليد الطلبة مع العلماء يوءثرون الاستماع للاستفادة على المناقشة وابداء الآراء الرخيصة التى لا تنطلق من منطلق علمى ، فكان الراى الذى لا يعتمد اساسا من الاسس العلمية يعتبر مجرد تطفل ووقاحة ، واغلب العلماء كانوا يجعلون فورا حدا لذلك ، ومنهم من كان يشذب هذا النوع من الطلبة تشذيبا ، ثم يقول له : ما دمت غير ذى باع فى علم فلتكتف بالاسئلة المحترمة ، اما النقاش ، واما الجدال ، واما الافتراض فليكن بين اقرانك .

ثم تسمع العالم يقول : الحافظ حجة على من لم يحفظ ، والنص الصريح اولى من التاويل ، والواضح اولى من الغامض ، والمبين اولى من المشكل . والعلم لا يوءخذ بمطلق الراى وانما بالنص او القيـــاس او الاستحسان وما الى ذلك ، وذلك من خصوصية كبار العلماء ، والاجتهاد مطلق كما الشان فى الائمة الكبار ، ومقيد كما هو الشان فى مجتهدى المذاهب ، العلم يوءخذ بالوقار ، لا بالوقاحة والجدال العقيم ، وقد افتى العلماء بان المجادل المعاند يعرض عنه فلا يجاب ، وتسمع احاديـــث الوعيد في الذين يعطون ءاراءهم في الدين بغير علم . وتسمع نظائرها من الآيات القرءانية ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون وامثالها ، كقوله تعالى : افرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة الخ .. ،

وهكذا كان علماوءنا لا يفسحون للطلبة المجال لاعطاء الراى بدون علم ، ولا لمجادلة شيوخهم او من فى مستوى شيوخهم بغير الاكبار والتقدير .

من اجل ذلك ، ونحن طلبة ـ كنا نخشى ان نناقش بدون علم ، ونخشى ان لا توفق الى اسلوب احترام العلماء . فنؤثر الانصات على كل شيء ، حتى اذا كنا بيننا نناقشنا باى اسلوب اردنا ، كشان العلماء فيما بينهم . فلكل مقاله ومقامه .

وبذلك كنا موضع احترام علمائنا لنا ، وموضع ادعيتهم الصالحة ، اذ كنا نعتبرهم ، ءاباءنا يوم كان الآباء آباء .

كان شيخنا هذا يتحدث فى وقار ، مسترسلا لا ينقطع حديثه ، مع بشاشة وانطلاق ، وتبسم من حين لآخر ، وكان اولاده الحاضرون معنا ،

وبعضهم متزوج فى حالة وقار وخشوع لا يحدثون والدهم الا همسا ، او ما يقارب الهمس ، وهو كذلك لا يناديهم ، ولا يخاطبهم الا سيدى فلان

وكان موقف ابنائه بروورا لا خوفا منه ، اذ ان شخصيته مغناطيسية، علاوة على رحمته وحنانه واكرامه لهم . فهو اعنى الوالد شيخنا ذو شخصية تفرض نفسها فرضا ، واستغنت بذلك عن اسلوب التقطـــب والزجر ناوامره نافذة ، وان كانت فى اسلوب طلب والتماس .

وذلك شأن الاباء اذا ما راعوا حق الرعاية واجباتهم وحقوقهم ازاء الابناء ، موءثرين الرفق او جانب الواجبات على الحقوق ، وسلوكهم المستقيم يعفيهم من كثير من الاتعاب .

وشيخنا رحمه الله ورضى عنه ، كان كاغلب العلماء ، فعلى الرغم مما يبدو من « شبه عزلتهم عن الحياة وتطوراتها » كانوا على اطلاع واسع بكل تطور ، وبكل الاحداث العالمية .

وذلك ناشىء عن منهج دراستهم الذى كان يعتمد امهات الكتب فقها، وحديثا، وادبا ، وسيرة ومنطقا ، وفلسفة .

فليس بينهم من لم يدرس العهود النبوية ، والخلفائية ، والاموية ، والعباسية ، والاندلسية وغيرها من العهود الاسلامية .

فكما انهم كانوا يدرسون المجالات الدينية ومجالسها ، كانـــوا يدرسون المجالات الادبية ومجالسها وكانت مثل كتب ابن اسحاق فى المغازى والسير ، والاغانى والمبرد ، وكليلة ودمنة والبيان والتبيين ، وادب الكاتب وغيرهم من امثال منابع السير والآداب ، مما تزدهر به خزاناتهم وآفاق افكارهم .

ولكنهم لا يتحدثون فى مجالس الطلبة ، والعامة الا الاحاديث

www.beniznassen.com

التي لا تخرجهم عن اطار الوقار ، في حين انهم فيما بينهم يتجاذبـــون المجالس الادبية باسلوب لو استعملوه في غير مجالسهم ، لحط الطلبـة والعامة من قيمتهم التي يحرسون كل الحرس عليها من الابتذال .

خذ لك مثالا .

لقد شاهدنا في غير هذا المجلس ان احد ابناء شيخنا كان يدخن، ولكن طال المجلس ما يقرب من ساعتين ولم يستطع واحد منهم ان يخرج من الحجرة ليدخن ، فضلا عن ان يدخن بمرآى من والده ، بل لاحظنا انهم كانوا لا يقتربون منه حتى لا يوذوه برائحة التبغ .

ولم يكن شيخنا والدهم يجهل ذلك ، غير انه لا يثير اى حديث حول التدخين ، اكراما لهم هم الذين يبتعدون عن مكانـــه حتـــى لا يـــوءذوه .

مفاجاة غريبـــة :

بينما نحن نتملى حديث الشيخ اذ دخلت علينا فتاة في مقتبل العمر ، تقارب العقدين او تزيد عليها قليلا ، سافرة الوجه ، على اطرف شعر راسها المنسق « سبنية لا بسة عباءة » و «صدرية» و « دفينة » وسروالا الى الكعاب ، ومنطقة حريرية ، نقية يبدو مـن تصرفاتهـا عقل راجح ودربة على العمل المنزلي كاملة ، هدوء كانها تمارس اشياء وحدها ، تتكلم همسا ، او قريبا منه . تفهم اشارة الشيخ واولاده بكامل السرعة ، طورا تجيب : بانعام سيدى ، واخر تنفذ التعاليم مستغنية عن الاجابة ، يخاطبها الشيخ : او احد اولاده بكل احترام ، وتجيب بغاية الاحترام ويكادالتخاطب يختزل اختزالا ، ولا نفهم جيدا الا بالتطبيق .

ناولتنا « الطاس » والمنديل على كتفها ، كانها تناول ذلك اخوتها ، فلا خطوات ، ولا نظرات تريبها ، واستمرت محتفظة بتصرفاتها البريئة

الى ان ودعنا الشيخ على وعد بافتتاح الدروس فى بهو باب منزله الواسع، وهو يدعو لنا في حين كنا نقبل يده وهو يجذبها منا .

اين المفاجأة الغريبة ؟

حينما دخلت الخادمة ، تصبب وجهى ووجه صديقى المرحوم ادريس البرحيلى عرقا ، خجلا واستغرابا ان نرى فتاة كهذه سافرة الوجه والراس على تلك الاناقة ، وذلك الحسن ، وتلك التصرفات الهادئة البريئة .

فتاة سافرة الوجه والراس فى المدينة ؟ شىء غريب !

اننا درجنا فى البادية ، والنساء والفتيات يعشن فى قراهن سافرات الوجه والراس فقط ، ولا تغطى وجهها امام الغرباء الا الشريفة.

ولكن فى المدينة كان هذا المنظر بالنسبة لنا شيئا فجائيا غريبا.

ففى هذا العهد لم نكن نرى من الفتاة ما بلغت العقد ، او قليلا الا العينين وطرفا من الجبهة ، اما فى وجدة فلا نرى الا عينا واحدة ، وكثيرا ما تكون هذه « العين فى وجدة مكتحلة اما فى فاس ، فقلما لاحظنا التكحل .

فالحائك كان يلف المراة من العقد الاول الى نهاية حياتها لفا كاملا ، فحتى الرجلان ملففتان فى الجوارب ، لا يبقى الا العينان وطرف من الجبهة ، وكان الجلباب قليلا الا فى الطبقات الثالثة اى الاروستوقراطية او فى بعضها ، اذ كان يعد من الترجل والملعون شرعا.

وبقدر ما كان الرجل يتباعد عن الملابس الانثوية كانت المرأة اطلاقا تبتعد عن ملابس الرجال ليحتفظ ذاك بمميزات رجولته ، وتحتفظ هذه بمميزات انوثتها ، مع ايمان هذه العميق بفائدة الحجاب دينا ودنيا. دينا لان التبرج من مخلفات الجاهلية ، وهو منهى عنه نهى التحريم

الا الوجه والكفين بنص القرءان الصريح ، ودنيا لانه يعرض السافرة الى الابتذال فتفتقد مستقبلها مع الزوج كانت متزوجة او غير متزوجة ، اما التى شاب قرناها ، فان الخجل والمروءة يمنعانها من السفور .

وكان من فوائد هذا الحجاب ، واعظم بها من فوائد ذلك الزواج الباكر ذكرا وانثى . وذلك ما يقلل من مجالات « العبث » ومن شان ذلك ايضا ان تنمو الرجولة وتباكر الرجل وهو فى اوائل شبابه ، لما يشعر به ويراه من مسئوليات الزواج التى لا تفسح المجال « للعبث » ، وبالنسبة للمراة فقلما قيل : ان هذه عانس ، مضافا الى ذلك ان القران كان ينعقد بين متفقى البيئة ، او متقاربهما ، ومتفقى الحسب والنسب ، او متقاربهما .

وكثيرا ما يقع ان تكون المراة دون الرجل حسبا ونسبا . اما ان تكون المراة اشرف نسبا من الرجل . فذلك ما لم نعرفه فى هذا العهد وبعده بكثير ويمكن لنا ان نحدده باوائل عهد الاستقلال.

وكم نتجت وتنتج عنه من مشاكل استعصت عن الحلول فى كثير من الحالات ، فادت الى الطلاق بالخلع والافتداء ، فيأس المطلقة من الحالة الزوجية : فالارتماء في احضان الرذيلة .

وفوق ذلك كله كانت هنالك اسس عامة فى الاخلاق والتقاليد تتحكم فى الزوجين .

وبناء على مثل هذه الاسس العميقة الجذور ، كان الطلاق قليلا ، وتقع الاصابات فى الطبقة الوسطى واقلها فى الطبقة السفلى .

نعم ، ان مادبة العشاء كانت على جانب من الاهمية كما وكيفا ، الشيء الذى لم نكن نألفه ان يقدم للطلبة .

فالصحون الكبيرة ، كانت مليئة باللحوم والدجاج ، بينما كنا

ثلاثة على صحن ، ومن هناك عرفنا سر تلك القفاف التى كانت تملا لحما من الجزار ، وتلك الاسراب الدجاجية المكتوفة بين يد سيدى الفاسى ، وكنا نعدها لطعام الاسبوع على الاقل ، فاذا هى لمأدبة واحدة ! (I).

وقلنا فى انفسنا : الله يحسن عون الزوج الفاسى فى هذه النفقات الباهضة ، ثم قلنا : ولكن فى سبيل امراة انيقة عاقلة تتسارع ولو بالاشراف على تلك الانواع من الاطعمة ، فلا قيمة لاي تعب في سبيلها ، فمثل اولاء النساء اللواتى تدل على عقلهن وحكمتهن وناقتهن هذه الخادمة ، اولى ان يكون لاحداهن الزوج خادما امينا ، وزوجا كريما .

ثم قلنا : فاذا كانت الخادمة على هذا المستوى من الاحترام المتبادل، فالزوجة اسمى مستوى في ذلك ، وهذه الزوجة هى التى تسكن النفس اليها، والتى تكون بينها وبين الزوج المودة والرحمة ، ثم قلنا : لسنا فى حاجة الى زواجنا المقبل الى اى شيء ، فحسبنا ان يسود الاحترام .

وليس معنى هذا ان الاقليم الشرقى كان محروما من الحياة الزوجية السعيدة ، فالمرأة فيه متعبدة وفية ، محبة توءثر زوجها على نفسها وتتوفر على كثير من الاوصاف الحميدة ، والزوج كذلك ، ولكن بالدلال ، او العزة ، او بالجفاء ، تدعوه : هو ، ويدعوها ، هى وتناديه : بالمخلوق

(I) قيل ان تلمسانيين زاروا اصدقاء لهم فى فاس فلما رجعوا الى مدينتهم، سئلوا عن الحالة فى فاس ، فاجابوا : اما ما يقال له الدجاج فى فاس فقد جاءت عندهم منه «صابة» بفتح الباء ، أي أن صيفه قد ازدهر اذ انهم لم يألفوا خمس او ست دجاجات فى صحن واحد ! «المؤلف».

او « مولى الدار » وينداديها : يا لمخلوخة ، او ياهذيك ، او يامولاة الدار ، ولا يذكرها كناية الا مقرونة باعزك الله ، او اكرمك الله .

فهذا الاسلوب المتباطل لا يستسفيه الا من كان يجهل الاساليب العذبة المستعملة بين الزوجين فى غير هذه الجهات وكم ينشأ عن ذلكم الاسلوب الجاف من فراق موقت ، او دائم ، وقد يكون احدهما او كلاهما يبكى على الاخر بعد الفراق .

هكذا كنا نتحاور : أعنى نفسى والمرحوم ادريس بينما كان الشيخ مسترسلا في أحاديثه الممتعة ، وكلنا ءاذان على الرغم من تحاورنا .

فرحم الله شيخنا ابن العواز ورضى عنه .

وما دمنا نتحدث عن « الالفية » فليكن حديثنا المقبل مع شيخينا : مولاى العباس الامرانى ومولاى ارشيد الدرقاوى ، اطال الله حياتهما فى كنف الله وحفظه .

«مع شيخينا السيدين: مولاي العباس الامراني ومولاي رشيد الدرقاوي»(13)

كنت اسكن الحجرة رقم 21 ، وكان الفقيه السيد المنور الزعيمى فى حجرة 20 فى المدرسة العنانية وكان ذلك فى فصل شتاء 1352 هـ . دخل جارى هذا على وقال :

هل لك رغبة فى دراسة الالفية لابن عقيل على عالم اشتهر بتضلعه في العلوم العربية ، وابرزها النحو والبلاغة ، واشتهر بأسلوب سهل لا يكاد ياخذ فى تقرير مسألة ، الا وتتصورها قبل ان ياتى على اخر عناصر تصويرها ، وساعة الدرس هى السادسة صبحا ، وفى ضريح سيدى احمد الشاوى ، واذا لم تستيقظ قبل الساعة تلقائيا ، فساوقظك بعد رجوعى من قراءة الحزب فى المسجد الجامع فى العنانية .

كان اول درس حضرته بالضبط مبدوءا بقول ابن مالك جمع الذى الالى الذين مطلقا ، وبعضهم بالوار رفعا نطقا .

ولقد احسست احساسا كاملا بواقع الصورة التى قدمها الى السيد المنور عن شيخنا العلامة السيد مولاى العباس الامرانى .

فلقد كان يعالج قواعد النحو باسلوب تساءلت معه مرارا : لماذا اتابع هذه الدروس ؟

فحسبى ان اننى فى اسبوع او يزيد قليلا حصلت على « ملكة » فهم الالفية ، وانا احفظ متنها فلم يبق لى : الا ان ادرسها مباشرة على اضواء هذا الاسلوب الذى يمتلك شيخى زمامه بكل الثقة والاحكام . ولكن متعة الاصغاء اليه وهو يلقى درسه فى هدوء واتقان ، ومن حين لاخر يقول : هذه المسالة من اختصاص علم البلاغة ، لا من اختصاص علم القواعد النحوية ، ثم يقول بكامل الهدوء : علم النحو خاص باخر الكلمة ، وما عداه فليس من اختصاصه ، وايضا ذلك من قبيل الاعتراضيات او الكماليات او مما يجر اليه الحديث ، وليس من صلب الموضوع ، ويتمنى ان تجرد كتب القواعد النحوية من ذلك حتى لا تمزج بغيرها ، فتشوش على الطالب فى حين انها تطيل عليه الوقت ، قلت لولا هذه المتعة لتخليت عن مواصلة الدراسة عليه ، فتفرغت لغير درسه من العلوم التى كانت تجذبنى اليها جذبتا .

وهكذا واصلت التحلق حوله الى أن وصل الى « باب النداء » وذلك على الرغم مما كان يعوقه من مرض ، فيتخلف عن وقت الدرس . لا سيما وان منزله كان فى ذلك العهد قريبا من « اسويقة ابن صافى » ولا باس بما كان بينه وبين مكان الدرس من بعد .

وكان شيخنا ـ على الرغم من وقاره وهيبته ـ ينطلق انطلاقا بريئا. حدث ذات صباح اننى لاحظت « السارد » السيد المنور والنوم

يغالبه من حين لاخر ، فعمدت الى كراسته فاخذتها ووضعت مكانها كراسة اخرى من شرح خليل ... كل ذلك وهو يتتبع « شيطنتي » ولا يبدى رايا

ولما حان وقت السرد ، قال السارد : قال رحمه الله ، وسكت ، اذ وجد كراسة غيرها في يده فضحك شيخنا وضحكنا جميعا . وحاول ان يبحث عن الكراسة عبثا ، فقال له الشيخ : فيك النعاس اين كراستك؟ فاعتذر بانه تركها فى بيته ، وامرنى الشيخ «بالسرادة» وكان ذلك هدفى الاول من «السابوطاج» واثناء السرادة عاود النوم صاحبنا : السيد المنور .

فاغتنمت هذه الفرصة فارجعت الكراسة الى محفظته دون شعور منه وانا اتابع التلاوة . كل ذلك والشيخ ينظر الى وهو يبتسم .

وحينما انتهيت من « السرادة » التفت اليه وقلت له : اعنى السارد ها هى كراستك .

ولو علم السيد المنور بعبثى لكانت كارثة ، فلقد عرف بقوة جسدية خارقة للعادة ، والنتيجة معروفة ، ولقد حفظنى الله منه بكتم الشيخ والطلبة لعبثى .

ومن فضل الشيخ على ، انه لم يمر زمن طويل حتى توسط لى فى الحزب بمسجد درب بوحاج مع شقيقه وصديقى السيد مولاى عبد السلام الامرانى .

واذا كان التعويض 15 فرنكات فى كل شهر فانه كان مهما ، والاهم منه هو عامل الالتزام الذى يساعدنى على تعهد كتاب الله العزيز .

اذ كان من المعروف ان حافظ كتاب الله الكريم ينساه شيئا فشيئا ما طلب العلم ، وبالفعل كنا نلاحظ ان بعض العلماء يتعثرون فى الآيات الكريمة .

لذلك اوصاني والدى رضى الله عنه بتعهده . غير انى - بعامل الدراسة - لم اكن اتعهده باستمرار ، فكان ذلك فرصة لتعهده فجزاه الله خيرا .

واستمرت هذه الدروس القيمة الى « باب النداء » وعرض للشيخ عارض فوقفنا حائرين فى التماس بدله .

وبينما انتهيت من درس سيدى الحسن الزرهونى على الحادية عشرة ، لاحظت ان احد العلماء الشباب يتطوع بدرس فى الالفية الى جانب المحراب من اعلى ، وهو يملى درسه فى اسلوب عجيب ، فانتظمت مع طلبته حتى اتم درسه ، وكان الدرس : « باب النداء » فعجبت لتشابه الاسلوبين بين الشيخين عدا فارقا واحدا : صوت الاول منخفض ، والثانى يندفع فى قوة ، والمصادفة الغريبة ، اننى وجدت الثانى فى الباب الذى انتهى اليه الاول ، فقلت فى نفسى : انها فرصة ذهبية ، ان اختم الالفية على شيخين يتفقان فى اسلوب الاملاء والتحقيق ، والشيخ الثاني طويل القامة ، اسيل الوجه والانف ، ذو صوت جهورى ، لين ، نحيف الجسم بعض الشيء ، يعرب املاوءه عن ثقة بنفسه وعلمه ، انيق فى ملبسه ، قليل استعمال البرنوص يطوق عنقه بشال اصفر ، وقد يتعمم بمثله حينا ، ويتعمم ببيضاء احيانا ، قليل التعلق بالتقاليد المألوفة عند الشيوخ ، فاذا لقى الطالب يعفيه من الانحناء ويقول له : ارفع راسك ، ودع عنك الانحناءة ، يهش ويبتسم فى وجه الطلاب ، لا ينسى وجوههم ، وقليلا ما ينسى اسماءهم . اذا مشى ، مشى مستقيم القامة ، متخليا عن الاطراق « المألوف لدى الشيوخ ، يتفجر حيوية ونشاطا ، مضبوط المواعيد ، مشرق الوجه ، حاضر النكتة حاضر الجواب ، واذا غضب ، فيا سلام سلم .

ذلك هو شيخنا العلامة المحقق الشريف سيدى مولاى رشيد بن العلامة المرحوم سيدى مولاى على الدرقاوى ، الشهير بخبرته بالقراءات، اعنى والده .

وكان « سارده » شابا من الناضور ، واظنه علال ابن الفقيه السيد على من قرية تانوت الرمان قبيلة قلعية .

وحدث ان تخلف « السارد » ولما اتم الشيخ املاء درسه تساوقت مع طالب على « السرادة » فكل منا صاح : قال رحمه الله ، فاسكتنا الشيخ ، وقال لصاحبى : قل ، ثم امرنى فسردت فابتسم فيما يشبه الضحك وقال : هذا هو السارد ، والسارد الدائم حتى ولو جاء ساردى العادى ، ثم قال لى وللطلبة ان صوت هذا يعنى : انا ، يشبه صوت « العربى رضوان التلمسانى » ، ثم انه لا يلحن ، وغدا ، وقبل ان يحضر الشيخ ، اخبر السارد العادى « بعزلة » فجاءنى وقال : أحذرك ان تسرد ، والا ... فضحكت ، وسألنى عن ذلك ، فقلت له : ما دام الشيخ عيننى وعزلك ، فلن تستطيع ان تمنعنى والا ...

وبينما هو مسترسل فى تهديدى ، وانا اضحك من تهديده فى شبه سخرية ، اذ وقف على راسنا صديقنا جميعا المرحوم السيد العاقل وقال له بالشلحة : اتعرف هذا ؟ فاجاب : لا .. ولكنه من عسى ان يكون؟ فضحك السيد العاقل رحمه الله وقال : ويلك انه يزناسنى شريف، انه جارك من ابركان فلا تطمع في تهديده ، نسوف يقابلك باكثر مما تتصور فاصطلحا ودعه يسره فانه اعرف منك بالقواعد النحوية ، فاعتذر لى السيد علال واصطلحنا ، ولكنه ندم لما حضر الاستاذ وتقدم الى «محله» فامره الشيخ بالتاخر الى الصف الثانى ولم يجده احتجاجه فى غير سوء ادب ، وان كان فى حالة غضب لان العادة كانت تقضى ان يكون هو

السارد ما دام انه الذى تقدم بالطلب للشيخ ... ثم ان الشيخ استفتى الطلبة فاجمعوا على ان اكون السارد ، فقضى الامر .

ومن صلب الموضوع اقول : لكى يكون السارد محترما ، يجب ان لا يطالع الدرس فقط ، بل عليه ان يكون ذا اطلاع يقارب اطلاع الشيخ فاذا ما تعثر هذا ، ساعده السارد من حفظه ، فلقد كنت ارجع الى شروح وحواش ، وتعليقات ، وتقريرات ، علاوة على شرح ابن عقيل وحاشيته الخضرى ، واعيد مراجعة « المسرود » مرارا ، واعرب كل جملة اشك فيها ، حتى اذا اوقفنى احد الطلبة : اى خطأنى اجبت على اساس قواعد نحوية ، او لغوية ، وتارة « ياخذنى الزهو » فاغرب لاستفزاز الطلبة واستشهد بغريب ، او شاذ القواعد النحوية او اللغوية «لاتيه» على الذى اوقفنى وخطأنى ، وكان انتصار السارد يعد من « حمى » الشيخ ، لانه « شفوره » اى سائقه كما كان يلقبنى شيخى هذا ، ومن ذا الذى يرضى بعثرات « شفوره » ؟

ثم انه للجهود الشاقة التى تواجه السارد ، فقلما كان « ساردا » فى درسين ، بل يكتفى بسرد درس واحد ، الا اذا كان قريبا من مستوى العلماء .

فالذى يسرد « كتابا كله » يعد عالما فى ذلك الكتاب على الخصوص ، لذلك كان الطلبة يتسابقون على « السرادة » لترفعهم الى منتهى الجدية والتحصيل .

والسارد ليس « مراقبا » فقط من شيخه وزملائه ، فلقد يحدث ان يجلس بعض الطلبة من غير الحلقة وراء سارية مثلا ، ليستمع اما الى اسلوب الشيخ ، واما الى « السرادة » واما معا ، واذا ما اخطأ احدهما فان ذلك يشاع فى الجامعة حتى يبلغ الشيخ .

بل قد يقوم بهذا الدور « حتى بعض العلماء » .

فحينما جاء اليوم الذى يكون فيه « الختام » اى ختم الالفية ، جاء الشيخ وجلس ، فقلت :

ان فى وجه الشيخ علامات الغضب ، فهذا اليوم ، هو هذا اليوم ، ويا ويلنا اذا ما تحقق انه فى حالة غضب ، فانا اليوم لا اساله شيئا ، اذ ان السارد كان من جملة مهامه « ان يسال الشيخ زيادة ايضاح فى شبه سوءال ، كلما شعر ان فى الطلبة من لا يستطيع ان يفهم مسالة ما ، وكثيرا ما يقول الشيخ بعد الايضاح الكامل ، هذه المسالة مقطوع بانك تفهمها ، اى السارد وما القيت السوءال الا لفائدة غيرك ، ويزيد شيخنا ـ بالنسبة الي : أو أردت أن تنبيه علينا بفهمك اياها . عرفناك « عالما » عرفناك «بزعطة».

كان من مالوف العلماء « فى الختم » ان تكون فيه استطرادات واشياء كثيرة عند نهاية الدرس الاخير ، وكان اول ما قاله الشيخ لنا : قال لى بعض الناس : ان طلبتك لا يفهمون جيدا ، فاجبتهم ، يقول الشيخ ـ : ما ذنبى اذا كنت اسخر كل طاقتى لافهامهم ، واخذ يتحدث الينا وهو في غضب شديد حتى كنا نتلمس رءوسنا لخفتها هل هي هناك ام لا ؟ ثم انشدنا وهو يزبد ويرعد :

على نحت القوافى من معادنها وما على اذا لم تفهم البقر .

وقد حفظته منه لاول مرة فى حياتى ، ووقع « اهتزاز » فى الحلقة التى حضرها حتى غير الطلبة ، ومن الذى كان يستطيع الرد عليه فيقول له : اننا قد استفدنا من دروسك ؟

ومع ذلك فقد وجه الى نظرات نارية ، ففهمت انه يريدنى على الجواب ، فقلت : انعام سى انا مستعد لاملاء اى درس من دروسك الماضية

بدون مراجعة ، فما عليكم الا ان تاذنوا لي وسترون ، فانفرجت من شفتيه شبه ابتسامة وقال : انا متحقق من ذلك من ان معظمكم قد حصل على ما سمح منى ، ولا ابالى بما يقال ، واستطيع ان اجيزكم فـــى « الالفية كلها » .

ثم قال : ان مغاربتنا كذا .. وكذا . وانا اشهدكم اذا ما خرج الفرنسيون من هنا ركبت «اخر عربة في القطار معهم » فالها غضبا مما قيل في شاننا ، فقلنا له ، حاشا ، انعام السعى » اطال الله عمركم حتى يخرج الفرنسيون ونتملاك وانت ، ونحن ، والمغرب في حرية تامة ، قلناها له همسا ، ذلك ان وعينا الوطنى كان قبل ان يحل تمائمه ، ولانه من المولوف : ان الاستعلامات الفرنسية كانت ترسل من « ينوب عنها » في مثل هذه « الاختتامات » حيث تكون « الاستطرادات » ونظرا الى قليلا ، ثم وجه بصره خارج « حلقة الطلبة » ففهمنا منه انه كان يموه على « نواب الاستعلامات المندسين بيننا غالبا ، او انه قالها ـ غضبا ـ على المغاربة الذين لا يشنونها جذعة على الاستعمار ليطردوه فـــي رابعـــة النهار ، وهذه عندى اولى بالترجيح . ولكنه لجأ الى المغالطة .

ولا بأس ان اختصر حادثة كانت لى مع الشيخ .

رجعت من عطلتي الصيفية عام 1353 هـ ، وبمجـرد ما دخلت حجـرتي رقم 21 ، جاءنى طالب وقال : الشيخ يطلبك في منزله عاجلا ، وجاء المقدم مبارك رحمه الله يقول :

الخليفة الباشوى مكواز يطلبك عاجلا .

فقلت للاخير سأذهب الى الخليفة بعد رجوعي من زيارة الشيخ تنفيذا لامره ، فاصر على ان ابتدىء بالخليفة لان بعض كتبى قد سرقت، وبعضها اى من المسروقة عند الخليفة ، فقلت لا بد من تقديم استاذى

كائنا ما كان ، فقال المقدم : لقد ابلغتك كلمة المخزن « وانت وحدك مسئول عن ذلك . ومع ذلك فقد قدمت الذهاب الى شيخي .

دخلت عليه في منزله ، وبعد شرب الشاى ، او في اثنائه قال : ان بعض الشبان الصغار سطوا على بعض كتبك وجاءني اباؤهم يطلبون مني ان اتوسط لهم لديك لتلمذتك على ، فما رايك ؟

فأجبته : والله لو اتوا على جميع ما أملك وعفوتم على « الساطين » في غيبتي ، حتى اجيز عفوكم فنحن قد تعودنا ان لا معارضة فيما يبرمه الاباء والشيوخ وذوو الفضل وان نجيز كل ما يفعلون نقضا وابراما .

ان الاباء عندنا يقولون لشيوخنا اذبح وانا ادفن ، وليس هناك اى ذبح ، ولكنه التقدير المتناهى للشيوخ ولكلام الله العزيز يحمل الاباء على القرار .

تدعالى بخير وقال : هذا هو اعتقادى فى تلاميذتى ، وفيك بالخصوص فبارك الله فيك .

ذهبت الى الخليفة ، ولما وقفت بين يديه اخذ « الامخازنى » يشير الى : ان أجلس على الارض طبقا لسنة المخزن اذ ذاك ، فتجاهلت اشارته، بينما كنت أقول للخليفة : لقد عفى شيخي عن السارق ، وعفوه يكفي ، فهات ما بقى ان أردت ، والا فسلمه للسارق ، وقبل أن أتم حديثي معه ، حاول الامخازني أن يرغمني بالقوة على الجلوس فوجدني صلبا في وقفتي ، ثم قلت للخليفة : اني طالب شريف النسب أبا وأما ، وأنا غريب في سبيل العلم ، وقد عفوت عن السارق ، ومستعد للتخلي حتى عن المقبوض في يده ، فلا يمكن أن أتلقى أي اهانة بالجلوس على الارض ، فانفرجت شفتاه عن شبه ابتسامة وكان لا يضحك بل ولا يبتسم للمحافظة على الهيبة ولطبعه المعروف عنه ، فقال للامخازني : دعه واقفا ، ثم ناولني بعض المسروق من كتبي بعد أن وقعت على ورقة، ثم قال : اذهب به الى القبطان كوجي رئيس قسم الاستعلامات ، فتلقاني وهو يبتسم

ويضرب على كتفي ويقول : ما علاقتك بالعالم السيد مولاى ارشيـــد الدرقاوى ؟ قلت : تلميذه ، فقال : وهل لذلك فقط تعفو عن السارق ؟ قلت واكثر من ذلك لو قتلني احد وتوسط عند ابى لعفا ، ان شيوخنا فوق كل اعتبار ، وبعد سؤالي عن اصلي واقليمي الى اخـره ، خرجـت وكان استاذى امرني ان ارجع اليه عقب خروجي من دار الباشا لاخبره بما حدث ، فحكيت له القصة بكاملها فابتسم وقال : هل فهمت معنى ذهابك الى « كوجي » وما القاه عليك من الاسئلة : لا ، وتلك هي الحقيقة، فقال : انه استبعد « سماحك » لخصوص التلمذة لي ، واراد ان يعرف ما اذا كانت هناك علاقة اخرى ، فاستغربت من الشيخ ذلك وسكت لأبحث في نفسي عن اية علاقة ، فعاجلني وقال : يعني « كوجي » علاقة «الوطنية» فقلت لو كنت شعرت بهذا لزدتها له على التلمذة لكم ، وليكن مايكون ، وحسبي ان يرضى استاذي بذلك ، حتى ولو انني ما زلت لم استكمل وعيي ودراستي للوطنية ، زيادة على عزمي ان لا اخوض فيها حتـــى استكمل دراستي ، ولكنها فرصة ضاعت ، وسوف لا تضيع مرة اخرى ان شاء الله . فدعا لي بخير وفارقته ، اطال الله عمر شيخينا مولاى العباس الامراني ومولاى ارشيد الدرقاوى وحفظهما من كل مكروه ، «امين» والى شيخنا المرحوم السيد بنسعيد المكناسي .

«مع شيخنا المرحوم سيدي بنسعيد المكناسي» (14)

كان تاريخ تعرفي على هذا العالم العصامي بعد عطلة عيد الفطر لعام 1351 هـ حدث ان اجرى لي امتحان ، او اختبار على الاصح في المجلس العلمي ، وعلى يد العلامة المرحوم السيد عبد الواحد الفاسي الفهـــري والد الرئيس علال الفاسي ، وعلى الرغم من انني كنت احفظ عن ظهر قلب متون ابن عاشر ، والاجرومية ، والالفية وقرابة ثلاثة ارباع مـــن

التحفة ، على الرغم من ذلك ، قال لى المرحوم سيدى عبد الواحد اللاذكور: عليك ان تقرا شيئا من الاجرومية .

ولماذا اعود إلى قراءة الاجرومية وانا احفظ متنها واستدل على قواعدها بالالفية ومعنى اعادتى لقراءة الاجرومية هو ان التحق بالقسم الثانـــى الابتدائى .

ان ذلك راجع لاسباب :

1) منها اننا لم نتعود في معهد وجدة على سؤال شيوخنـــا اثنـــاء الدرس ، ولا استيضاحهم عما انبهم واشكل ، ذلك ان شيوخنا بالمعهد ، كانوا - بوقارهم المتناهى - لايمكن للطالـــب ان يتحـــدث معهـــم اثنـــاء الدرس ، ولا سيما الطلاب فى المعهد كلهم من البادية ، ومن ذلك الطالب الذى يجرؤ على استيضاح شيوخه ، فقد كان الطالب يتصبب عرقا حياء وهيبة لشيخه ، ولا يجرؤ على محادثته الا بعد سنـــوات ، والا اذا كـــان مقدما فى السن وله لحية وهيأة محترمتان ، ومع ذلك فانه اذا تحدث اليه تحدث وهو مطرق وفى همس .

2) ان احدا لم ينبهنى الى الاستعداد لذلك الاختبار ، ولو كان ذلك، لاجتزت الطور الاول عن الاقل .

3) ان شيوخنا فى فاس وفى غيرها ، كانوا يريدون - من صميم قلوبهم - للطالب : ان لا يتجاوز مرحلة الى مرحلة الا على اساس متين ، فالطور الابتدائى يجب ان يكون دسما بالمواد ومحكم الدراسة ، حتى يكون مفتاحا صحيحا للدراسة الثانوية ، ثم هذه كذلك للدراسة العالية.

وان خجلى البدوى ، وعدم استعدادى ، وعدم تعودى على محادثة الشيوخ ، كل ذلك حال دون ان اظهر امام المختبر بكسر البـاء بمظهـرى الحقيقى .

فكانت النتيجة : ان اعيد قراءة الاجرومية .

وفعلا التحقت بالقسم الابتدائي الثاني ، ومن مواده ، « الشافيية لابن الحاجب » في الصرف ومدرسها المرحوم السيد بسعيد المكناسي .

وكان شيخنا هذا ، طويل القامة ، خفيف اللحية والعارضين ، مجذوز الوجه فيما أذكر ، واسع الفم ، قوي العضلات ، أشبه ما يكون بمطلق العملة ، لاتعرف انه عالم ، حتى ياخذ في املاء درسه املاء عجيبا ، كان يبدو لي انه فوق الاربعين بقليل ، وعلمت بعد تعرفي عليه : انه كان « خرازا » ، ولعصاميته فارق مهنته والتحق بجامعة القرويين فحصل على العالمية في اخصر وقت ، لقوة حافظته وذاكرته ، وقوة عزيمته ، وسرعة ادراكه وفهمه ، مع العلم انه كان يحفظ كتاب الله وكان له المام بالقراءآت

جلست اليه في درس « الشافية » فشعرت لاول درس ، ان الطالب ليصبح عالما في اخصر وقت ، ما عليه الا ان يدرس على مثل هؤلاء الشيوخ .

فلقد كان اسلوبه يغني الطالب عن الحفظ قبل الدرس ، لان اعادة المتن مرارا . وربط اول الباب ، او الفصل بوسطه وءاخره ، يحيل الطالب الى تفهم الباب كله ، او الفصل كله ، في اول درس ، وحينما يختم الباب ، او الفصل ، يكون قد وعى وفهم كل ما يتعلق بالباب ، او الفصل وزيادة .

اقول : وزيادة ، لان الشيخ كان يتبرع بكل ما له علاقة بالباب المدروس ، او الفصل من الابواب والفصول الاخرى .

والغريب في الامر : أنه كان يشعر بمن فهم ، وبمن لم يفهم .

اذ كان يتابع قسمات وجه الطالب ونظراته اثناء املاء الدرس ، فيدرك ءاية الفهم او عدم الفهم من قسمات وجه الطالب ونظراته ، ولذلك

تراه يسأل هذا ، وذلك : افهمت ؟ ثم يقول له مباشرة : اسمع .. ولا يزال يكرر حتى يشعر ان طالبه قد ادرك ما فاته .

علاوة على ذلك ، ففي كل درس يقدم لنا عرضا مختصرا عما سبق من الدروس .

وحيث انه كان يتلقى دروسا فرنسية كثيرا ما ينطلق يعرف لنا الافعال بالفرنسية وتسمعه يقول : جي افراب تي افراب الى اخره ، يقول هذا ويبتسم ، او يضحك ثم يقول : العلم سهل لايحتاج الا الى ارادة قوية ، ومهما تذوقت اوله ، سهل عليك ان تتذوق الوسط والاخير ، اقرأوا .. اقرأوا العلم ، العلم هو الحياة والجهل موت . . املئوا اوقاتكم علما ، اسهروا الليل للمطالعة ، اياكم والكسل . الكسل يميت القلب .

كان لعصاميته رحمه الله ـ يريد ان يكون كل طلبته عصاميين .

وعلى سعة حفظه ، وقوة ذاكرته ، وسرعة ادراكه ، وواسع استحضاره ، فانه كان استاذ الطور الاول ، وفي القسم الثاني منه .

في ذلك العهد ، ليس يكفي أن يكون الانسان عالما ليدرس في القرويين المواد العالية بل لابد له ، ان يقوم بالتدريس في الطور الابتدائي مدة من الزمن ، ثم الى الثانوي ، ثم الى العالي .

فالعالمية لم تكن وحدها كافية لتدريس المواد العالية في القرويين.

ثم انه كان في ذلك العهد ، ان الطالب حينما يحصل على العالمية يسجل في سجل خاص بنظارة الاوقاف لتعطى له صلة مادية لعلها شهرية، ولكنها رمزية فقط ، اكراما لعالميته اولا ولتشجيعه على دروس تطوعية ثانيا .

وهذا النوع من العلماء قد تجده في مسجد ما ، يدرس حتى مع طالب واحد .

فلقد درست عدة علوم على الشيخ سيدى العربى الشامى في جامع الرصيف وليس معى الا المرحوم السيد ادريس بن عبد القادر البرحيلى .

درسنا عليه :

1 ـ استعارة الشيخ الطيب ،

2 ـ المنطق بالقويسنى ،

3 ـ ورقات امام الحرمين ،

4 ـ التوحيد بالسنوسية ،

5 ـ منظومة الزقاق .

وكنا نعجب له فى فصل الشتاء على الخصوص ، اذ كان ياتى الينا فى الوقت المحدد بالضبط وبرنوصه « المشمع » يقطر ماء ، وليس له من بديل على ذلك الا طلب الاجر من الله ببث العلم فى الصدور ، دام ذلك ما يقرب من سنتين .

وهكذا كانت عادة العلماء المتخرجين ، يسجلون بنظارة الاوقاف لصلة رمزية ثم التطوع ولو مع طالب واحد ، وينيبهم رئيس المجلس العلمى من حين لاخر عن العلماء المختلفين لاسباب من الاسباب ، ولا ينيب فى علم ما الا من كان مشهورا به .

نعم ، هكذا تابعت دراستي الصرفية بالشافية . وببحرق الصغير على لامية الافعال مدة شهرين ، وبعد عطلة عيد الاضحى الموالى ظهر : ان الاستمرار فى هذه الدروس قليل الاهمية ، ذلك انى ـ بفضل هذا الشيخ ـ اصبحت املك « ملكة » الفهم ، وتدربت على اساليبه ، اذ يكفينى ان اراجع ذلك بنفسى فى حجرتى . ولا سيما وقد اعطيت مهلة للطلبة غير المحليين للدراسة خارج النظام ثلاث سنوات كما سلف الاخبار بذلك .

وهكذا اخذت ادرس علوما اعلى من ذلك ، وفى الوقت ذاته كنت اعلم الصرف والنحو لبعض الطلبة فى حجرتى .

وفي عطلتي السنوية كنت افتح عدة دروس ، وندوات مع طلبتنا بجامع ابركان فكنت مابين دارس ومدرس . اى دارس في فـاس ، ومدرس في ابركان . « والدنيا ملعونة ، ملعون كل ما فيها ، الا عالم او متعلم » كما ينسب ذلك الى الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفي فصل شتاء عام 1352 هـ طلبت من شيخي سيدى بنسعيـد المكناسي رضى الله عنه ان يفتح دروسا لنا في مسجد البوعنانية بين العشاءين ، وبالضبط ان يدرس معنا صحيح البخارى ، بعد ما كنت درست « البيقونية وحفظتها » على الشيخ المرحوم مولاى احمد امفاسي الفهري في مسجد الرصيف ، وكان رفيقي في هذا الدرس : البيقونية ، المرحوم ادريس البرحيلي المذكور .

وفعلا اخذ الشيخ سيدى بنسعيد المكناسي يدرس معنا صحيح البخارى . وكنت السارد اى صاحب التلاوة ، ولم يكن يسرد مثل هذا الدرس الا من صلـح لسانه نحـوا وصرفـا ، وكـان ذا حـافظـة وذاكـرة وفهم في المستوى ، وكانت الحلقة تشمل معظم طلبة العنانية ، واستمرت تلك الدروس ما شاء الله ثم انقطعت ، وكانت اخر دراستي على الشيخ المذكور رحمه الله رحمة واسعة ورضى عنه كامل الرضاء .

«مع مقدم الطلبة العام ، المرحوم السيد عمر بن أحمد بن الخياط» (15)

سبق لي ان اشرت الى اننى ساكنت المرحوم صديقي السيـد ادريس بن عبد القادر البرحيلي في الحجرة رقم 6 بالعنانية ، ثم انتقلت - مرغما - الى الحجرة 34 مع السيد احمد بن على زعنان البيدرى ، وساكن صديقي المذكور الفقيه المرحوم ايضا السيد محمد بن لخضر الميموني .

فمكثت فى الحجرة 34 ، اربعة اشهر تقريبا ، وكان رقم طلبى لحجرة مستقلة هو I4 ..

وذات يوم اخبرنى مخبر ان الحجرة رقم 2I ، خرج منها صاحبها الشرعى ، وتركها لاحد الطلبة يدعى السيد احمد الريفى

وبناء على هذا الخبر ، تقدمت الى المقدم العام للطلبة المرحوم بالله السيد عمر بن احمد ابن الخياط رئيس المجلس العلمى المتوفى إذ ذاك ، اذكره بطلبى رقم I4 وبفراغ الحجرة رقم 2I .

وبعد بحث طلبى قال لى : استدع لى مقدمكم : امبارك لأمره بتسليم الحجرة اليك . وفعلا امره بذلك ، ولكن عندما رجعت الى المدرسة وذكرت المقدم الخاص بالتسليم ، قال لى : ان المقدم العام رجع عن امره .

وعندما رجعت الى السيد المقدم العام قال لى : ان الحجرة ليست بفارغة ، ففيها طالب ، اخر ، فقلت : الطالب الاخر غير شرعى فيها ، فقال: ولكنه « سارد » الفقيه السيد عبد الرحمن ابن القرشى وقد جاءتنى وصية بان اترك الطالب الاخر يخلف صاحبه الراجع الى مسقط راسه نهائيا ، واصر كل الاصرار على ابقائه وحرمانى من تسلم الحجرة فاوعدتـــــه بتسليمها الى قسرا ، وخاطبته « غفر الله لى » بلهجة غير محترمة ، ثم تقدمت بشكاية الى المجلس العلمى الذى استدعانى واياه الـيـه ، وبمجرد وصولى الى المجلس ــ وكان على راسه المرحوم شيخ العلمـاء السيد مولاى عبد الله الفضيلى ــ اشتكى منى من اللهجة غير المحترمة التى استعملتها معه .

فانكرت ذلك غفر الله لى ، ثم قدمت عرضا عن القضية (فقال لى الرئيس مولاي عبد الله : اسكنا جميعا فـي الحجـرة ، فان صاحبك صاحـب الفقيه السيد عبد الرحمن بن القرشى ، فامتنعت ، فأصر علـى امـره ،

فقلت : عندما ارجع الى مسقط راسى سأكون اكبر ظالم ، فاذا سئلت عن ذلك قلت : تعلمت الظلم من المجلس العلمى « بالحرف »

وهنا قامت قيامة مولاى عبد الله ، وكان عنيف الاسلوب رحمه الله فقال : ـ وحاول ان يضربنى ـ ابمثل هذا الاسلوب تتجاسر علينا بعد جسارتك على ابن شيخنا المقدم السيد عمر بن احمد بن الخياط ؟

فما كان منى الا ان اطرقت حياء لا خوفا .

وهناك قال احد اعضاء المجلس العلمى السيد البكراوى : لا ؛ والله حتى ياخذ هذا الطالب حجرته ، لان الحق معه ، ولا عبرة باية وصية من اى كان ، قم يا سيدى وسلم له حجرته حالا قم يا الفقيه يعنينى : انا ، فلم يعارض رئيس المجلس ما قاله الفقيه البكراوى ، ولما خرجنا قلت للمقدم ارايت .. لقد انتصرت عليك ؟ فغضب وقال لى : اتسىء الى ابن شيخ العلماء والدى وانا رجل اشيب ؟ قلت : لا حرمة للظالم ولو كان اشيب ، ولو كان ابن شيخ العلماء .

فلقد طردتنى ورفيقى السيد ادريس البرحيلى من الحجرة 6 ، وسلمتها لصاحب الحق السيد محمد بن الطيب اليعقوبى ابن خالتى حينما اشتكى بنا اليك . ولماذا تلكأت ، ثم امتنعت حينما توسط الفقيه بن القرشى لصاحبه ؟ ان الحق احق ان يتبع ، هيه .. قل ، هل ادع لك مقدمنا امبارك بالعنانية ؟ .. فاجاب : نعم .

ولعل اليوم كان يوم « اثنين » فالتمس منى المقدم امبارك ان اسمح للسيد الريفى بان ينقل امتعته في ظرف يومين ، اى ان يسلمها الى مساء يوم الاربعاء .

كانت الحجرة رقم 21 ، تقابل الحجرة رقم 25 التى كان يسكنها صديقي السيد ادريس البرحيلي ، ولا نسبة بينهما في الجودة والوسع ،

فقد كانت حجرتي ضيقة ولها باب تراكمت عليها الاوساخ منذ القرون ، ولها نافذة صغيرة الى الشارع ، والى ذلك فأرضها منحدرة دون أن تكون «مزلجة» على عكس الحجرة 25 مائة في المائة ، ولكن حمدت الله ان تسلمت بيتا مستقلا .

وخضوعا للعادة المتبعة استدعيت رفيقي في الحجرة 34 وصديقي ادريس ، وبعض الطلبة من المغرب الشرقي واقمت لهم «زردة».

وفي صيف عام 1352 الذي تسلمت فيه هذه الحجرة اضيئت المدارس بالكهرباء ، وانتهى عهد الغاز . والشمع في حجرات الطلبة ، وكان ـ بحق ـ حدثا تاريخيا ، من الناحية الاقتصادية لنا ، ومن ناحية اشعارنا بشيء من الاحترام : الضوء مجان ، والخبزة من الاوقاف . وكانت العادة كلما تغيب طالب « دارت الخبزة » اي وزعت خبزته دوريا على الباقين ، وقد يقل الطلبة جدا ، حتى ننال 10 خبزات في بعض الاحيان ، لان القدر من الخبز الذي كان يوزع على كل مدرسة لاينقص حتى ولو كان فيها عشر الطلبة او اقل . . وكنا نبيع الزائد بواسطة المقدم المحلي ، فعشر ، خبزات مثلا ، قد تدر على الطالب ريالا واحد في اليوم ، اي ثلاثين ريالا في الشهر ، ومعنى هذا انه يستطيع الطالب المتواضع ان يعيش بـ 30 ريالا : عشرة اشهر ، اذ كان بعض الطلبة ينفق ثلاثة ريال في كل شهر على ان يأكل اللحم « ربع كيلو » في كل اسبوع . وربع الكيلو من اللحم بخمس ريال اذا كان غنما في المستوى الاعلى ، واما لحم البقر فنصف ريال للكيلو الواحد . والحوت بعشر ريال للكيلو . وهكذا الاثمان في مستوى منخفض مدهش ، اما اللحم خارج فاس ببضع كيلو مترات ، فثمنه اي الغنم فرنك واحد للكيلو ، ولا يوجد من يشتريه في اخر السوق ، فتجد الجزارين يرغبون الى الناس ان ياخذوا منهم اللحم بابخس الثمن ، والى اجل غير محدود .

منذ اخذت حجرة مستقلة ، اصبحت من الطلبة الاغنياء ، الضوء والخبز بالمجان ، ووالدى رضى الله عنه يرسل الى خمسين فرنكا فى الشهر ، مع ما ءاخذه عن قراءة الحزبين في مسجد درب بوحاج وقدره ثلاث ريالات .. اى انى انفق 65 فرنكا فى كل شهر . فاذا قابلنا ذلك بنفقة الطالب المتواضع وهى ثلاثة ريال ، وجدنا انى اعيش مستوى اربعة طلبة ، ألست أيضا غنيا جدا .. اما نفقة الخارج فقد كانت ضعيفة الحدود ورخيصة ايضا.

« حمام الشيكي » بابي الجنود ، بفرنك واحد ولا يقصده الا الاغنياء مثلى ، اذ حمام الاوقاف بعشرين سنتيما وكاسن الشاى فى مقهى جنان السبيل : ارفع مقهى ، ثمنه عشر ريال اى خمسون سانتيما ، اما السينما فلن تجد فيها اكثر من واحد من الف من الطلبة .

فالمقهى ، والسينما ، كانا مما يعزف عنه الطلبة ، فضلا عن العلماء ، لان ذلك مخل بالمروءة .

ولم يكن التدخين شائعا بين الطلبة ، فقد لا تجد اكثر من 5 فى المائة يدخنون فى سرية تامة ، فالمقدم امبارك بالمرصاد لكل منحرف عن منطقة المروءة .

فقد كانت له شخصية قوية ، اذ يكفى ان يقول مثلا : ما هذا الماء الذى ازاء حجرتك ؟ يكفى ان يقول هذا ببرودة كاملة ، ليقفز الطالب الى المكنسة ، او قطعة « الخش » يجفف ذلك الماء ، ومنذ عرفته لا اذكر انه ضحك ، ولكنه يبتسم قليلا ، وفى قليل الاحيان ، فى حين ان الطلبة لهم عزة ، فلا يلجئون انفسهم الى نقد المقدم امبارك .

ومع قوة شخصيته كان يقبل كثيرا من ايدى الطلبة حينما يرجعون من مساقط رءوسهم ، ويحمد لهم سلامة العطلة ، ويسأل - باحترام -

عن الاهل والاقارب ، ومعظم الطلبة كان يكرمه ، واقل الاكرام ريـــال واحد .

ومن عجيب امره انه كان لا يتناول الا قليلا من طعام بعض الطلبـــة فاكثر حالاته الرفض ، بدعوى انه قد اكل واكتفى ، فكانت له نفس ابية ، وله غيرة عجيبة اذ كان يمنعنا فى ادب من نشر ثيابنا او اثاثنا على السطح. لان ذلك يجعلنا ننظر الى السيدات اللواتى يشتغلن فوق السطوح بغسل ثيابهن او نشرها ، او الحديث مع بعضهن ... لذلك ترانا اذا فعلنا ذلك نرتقب خروجه من المدرسة ، او « نسخر » بعض الاطفال الذين سمح لهم المقدم بعد التحقق من هويتهم وسلوكهم بالسخرة فى المدرسة ، ومنذ اقامتى بهذه المدرسة لا اعرف الا الاخوين محمد وعبد الرحمان الصحراويين ولعله سمح لهما لانهما من اقليمه .

واذا ما راى شابا داخلا الى المدرسة سأله : الى اين ؟ الى فلان ، ثم يصحبه الى : الفلان .. ويقول له : ما علاقتك بهذا الشاب ؟ فاذا لم تكن له حجة قاطعة رد الشاب على عقبيه ، وانذره كما ينذر الطالب بعدم تكرار هذه الزيارة !

ومحافظة على كرامة الطالب يقول : اننا نمنع مثل هؤلاء الشبان من الاتصال بالطلبة خوفا من ان يكون فيهم سراق ، ثم يذكر طائفة من الجزئيات التى وقعت ، ثم يقول : ان لنا تعاليم بان تكون هذه المدرسة محترمة لا يدخلها الا ذووكم واقاربكم من البوادى ، حتى لا تصبح موضع قيل وقال .

ومع هذا ، فاذا كان هناك ضيف لا يعرفه يسأل الطالب عن العلاقة وعن المبيت في المدرسة ، ويقول : من الاحسن ان لا يبيتوا هنا . فالمدرسة للطلبة وهم فى حاجة الى المطالعة ولا معنى ان يقصدهم الاضياف

الا الاباء والاخوة ، فلا باس ، وكان الى ذلك يخبر مقدم الحومة بكل ضيف يبيت في المدرسة ، حتى اذا وقعت حادثة غير عادية تحمل الطالب الذى بات عنده الضيف او الضيوف مسوءوليتها .

وعلى اى حال ، فقد كان المقدم امبارك رحمه الله رجلا ذا شخصية محترمة ، ويوءدى مهمته فى غاية الاحترام والحزم ، ولم يصطدم الا قليلا مع بعض الطلبة .

وبفضله ، وفضل التقاليد المحترمة التى كان الطلبة يحترمونها ، كانت المدرسة فى كامل الاحترام .

نعم الحديث عن الحجرة 21 يجرنا الى موضوع اصلاحها والتحدث فى شانها مع الناظر المرحوم السيد الحسين بن ثابت والد شاعرنا المرحوم السيد عبد الكريم بن ثابت صاحب ديوان الحرية . فمعه اذن فى الحلقة التالية .

مع ناظر الاوقاف المرحوم السيد الحسين بن ثابت (16)

المرحوم السيد الحسين بن ثابت ناظر الاوقاف بالنظارة الكبرى .

كان ضخم الجثة. مقصوص بعض اصابع يده . ولست اذكر ـ بالضبط ـ اليمنى ، او اليسرى . او هما معا . واصله من تلمسان . وتعرف هذه الاسرة هناك باولاد بن ثابت.

ولست ادرى ، االولاد بن ثابت هوءلاء ، هم اولاد بن ثابت الراجعون الى قبيلة الشبانات العربية ، ام لا واذا كانوا كذلك . فانهم نزحوا اولا من المغرب الاقصى الى تلمسان ثم رجع منهم من رجع الى الغرب الاقصى فى ظروف يبدو لى انها كانت فى عهد الاحتلال التركى للجزائر او الاحتلال الفرنسى .

ففي هاذين الظرفين ، انتقلت ءالاف الاسر من الجزائر ، وخصوصا من اقليمي تلمسان ووهران الى المغرب الاقصى .

وعلى اى حال ، فالناظر المرحوم السيد الحسين بن ثابت من تلمسان ولكنه كان يعد ذا جنسية مغربية تمشيا مع الاعراف القديمة : ان جنسية المسلم اسلامه .

وقد كتبت .. كما كتب غيرى حول هذا الموضوع من انه قبل الاستعمار الغربى للبلاد الاسلامية ، لم يكن هناك شيء يسمى : الجنسية فى العالم الاسلامى ، فاينما استقر المسلم ، فتلك ارضه ووطنه .

لم يمض الا زمن قليل على تسلمي للحجرة 21 ، حتى بادرت بالاتصال بالناظر ، فلما استقبلني وقدمت له عرضا عن حال الحجرة ، اخذ يناقشني في الموضوع ، وكان اسلوب المناقشة عاطفيا فقط . اذ من جملة ما قال لى : ان طلب العلم يحتاج الى التضحية ، فلاقبال بحال البيت كيفما كان حاله .

فاجبته : ان للاوقاف ما يساعد على اصلاح بيتى . وان للتضحية حدودا . وطال النقاش فى الموضوع حتى تظاهر لى بالغضب . ولكننى لم ابال بتغاضبه ، فاخذت احاجه الى ان سألنى : من اين انا ؟ فقلت : من ابركان التى هى جارة تلمسان التى انت منها . فابتسم وقال : ومن اين لك ذلك ؟ فقلت : ما جئت اليك حتى سألت من يعرفك ، فسألنى : هل تعرف : الحاج العربى ؟ ويعنى بذلك المرحوم شيخنا والد صديقنا المرحوم السيد محمد بناصر . فقلت : نعم انه شيخي ثم اخذ يسألني عن بعض العلماء من وجدة .

واخيرا استدعى احد اعوانه ، وامره بان يبحث عمن يصلح بيتي حتى أوافق على الاصلاح الذي أريده ، يعني أن يكون «المعلم» رهن اشارتي.

لقد ظهر لى حينذاك : انه تاثر « بالجوار » جوار ابركان لتلمسان . فلقد اظهر العون و«المعلم» تعجبهما من تنازل الناظر لمطلبى ! وفى اول اتصال ! فموهت عليهما بان الناظر من ابناء اقليمى .

وكان كثيرون من اخواننا المغاربة لا يفرقون بين موقع ابركان . وموقع تلمسان ، وبينهما 70 كيلومترا . فكل ما وراء تازة «واسطى» عندهم .

ولا سيما ولهجتنا فى شرق المغرب ، وتقاليدنا ، تكاد تكون عين لهجة وتقاليد الجزائر ، فكلنا يسرع الى « مطرقه » لادنى كلام جارح ، مع تقارب ظاهرنا ببطاننا في الجملة ، فنحن لانحسن الدوران في اساليب الحياة . ولا يحتمله شعورنا . وكلما لجأ اليه احد منا الا وقع « فى الفخ » لذلك ترانا نعتمد على تقاليدنا لانها اضمن لكرامتنا.

ويقدر ما كان يشق على اخواننا المغاربة صلابة اسلوبنا ، يقدر ما كانوا يحترموننا لتقارب ظاهرنا بباطننا .

فنحن الى حد الان ، نعجب لمعارفنا ، يخاطبنا احدهم بقوله : اين أنت ؟ لم نعد نراك ؟ لقد اشتقنا اليك :لم لا تزورنـــا ؟ والله اننـــا نحبك . الى آخر مثل هذه الجمل التى اثبت لنا الواقع الف مرة ومرة ، انها مجرد كلام يقال ، وهو فارغ من كل معنى ، فنحن اول ما نلتقى باحد معارفنا نسأله عن حاله باختصار . ولا نسأله عن اهل داره : فأهل الدار علينا مالوقار نستدعيه اولا الى اقرب مقهى ، ثم يمكن ان نستدعيه لمنزلنا ، ولانقدر الا هذا الاسلوب . واخواننا – عفا الله عنهم – يموهون بالمحبة ، ولا يحسبون اى حساب لمجال التطبيق .

نعم هكذا موهت على العون ، و«المعلم».

ولكن المعلم عندما قلت له : ان مكان النـــافذة الصغيرة المطلـــة علـــى

الدرب الضيق الرابط بين الطالعتين « الصغرى والكبرى» ، ان مكانها يجب ان توضع فيه نافذتان صغيرتان من زجاج ، توقف وقال : لا استطيع ان اغير « الوقف » ، وازاء تهديدى لـه بالرجـوع الى الناظـر « ابـن عمـي » نفذ مطلبى .

للعبرة والذكرى

فى هذا الفصل والذى قبله ، قدمت بعض اساليب حياتنا الدراسية، مع التذكير باننا كنا نهيىء اطعمتنا المتواضعة جدا بايدينا ، وننظـف حجرتنا ، ونغسل ثيابنا بايدينا ، ونغسلها فى رحاب المراحيض !

ولا شك ان اجيالنا الان ، يعلقون على ذلك تعاليق مختلفة ، ادناها فيما يظهر ، اننا كنا ضعفاء النفوس ، لا ندافع عن « حياة الكرامة » على عكس طلابنا اليوم ، فانهم – على الرغم من حياة الترف التى يعيشونهـا فانهم دائما فى اضرابات واحتجاجات ، اى انهم « شجعان » و «واعون» .

واقول لهم : ان طلاب جيلنا لم يكن ينقصهم الوعى ، ولا تنقصهم قـوة العزيمـة ، ولا التضحيـة ، بـل كانـوا فـي معظمهـم – يتـوفـرون على عناصر الرجولة والارادة الحديدية ، ربما ستمر عشرات السنين دون ان تتوفر عليها الاجيال بعدنا ، وبعد هذا الحكم الاجمالى ، استمعوا الى باختصار :

1 – ان كل طلبتنا اذ ذلك ، كانوا ذوى عقيدة عربية اسلامية بلغت غايتها فى المتانة والصلابة . وانحرافاتنا ، اى انحرافات بعضنا ، كانت سرية وقليلة جدا ، ولا تمس العقيدة الاسلامية لا من قريب ولا مـن بعيد ، وحتى المنحرفون ، يحافظون على اهم القاعدتين الاسلاميتين : الصلاة والصوم ، بل كان من الطلبة من يزكى عما ادخر عنده من مال ومضى عليه الحول ، فقد كان بعضهم يجمع المال الذى يكفيه للسنة الدراسية فاذا فضل قدر وكان فيه زكاة زكاه .

وطول اقامتي بوجدة وفاس لم اسمع قط طالبا تجرأ على هتك حرمات الصوم ، ومعظمنا كان يصلى الصبح جماعة ، ويقرا الحزب . وله اوراد. ومعظمنا كان يعزف عن المقاهى والسينما وسماع الغناء ، صيانة لمروءته الاسلامية .

والى ذلك ، فقد كان شيوخنا كلهم على جانب عظيم من التقوى والمروءة والحياء فقلما نقل عن احدهم ولا فحش كلام .

وبفضل سلوك هؤلاء الشيوخ رحم الله اموانهم وحفظ احياءهم، كان الطلبة فى معظمهم على سلوكهم القويم .

ومن جيلنا ، والجيل الذى سبقنا تكونت رجالات الكفاح الذى كلل بالظفر والنجاح .

وكل ما ينعم به هذا الجيل الذى لم يعش معنا عهد الجهاد الوطنى ، هو من صنعنا ، لا من صنعه : اعنى ان هذا الجيل يعيش على نتائج كفاحنا الذى اخذ يسخر منه ويعده « رجعية » ويعدنا «رجعيين».

ففى عهدنا النضالى كنا ـ ومازلنا والله الشكر ـ متينى العقيدة الاسلامية ، ومن انحرف فى ميادين التطبيق ، وفى غير قواعد الاسلام الاساسية ـ استغفر وتاب .

اننا حينما ننظر الى ما ءالت اليه عقيدة جيلنا الاسلامية العربية من ضياع ، لنضرع الى الله تبارك وتعالى ان يهيىء لنا الاسباب لتدارك هذا الخطر المحدق بنا .

فقد اصبح جيلنا الذى يخلفنا ، جيلا غير عقائدى ، ولا يتهافت الا على كل ما هو مادى صرف ، وكلما مال الحديث الى العقيدة الاسلامية ، او التراث النضالى ، او الاسلامى ، الا ظهرت ءايات السخرية

والاستخفاف على الوجوه ، بل ان بعضهم لا يخجل من التصريح بالسخرية بكل القيم الاسلامية . وهذه مصيبة كبرى اصابتنا فى خلفنا فالله نسال ان يتداركنا بلطفه ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

وننتهز هذه الفرصة لنتحدث قليلا عن اسوة الشباب فى جيلنا علما ، ومروءة ونبوغا ، وعقيدة ، وعملا ، وجهادا مستميتا ، الا وهو الاستاذ المجاهد الكبير سيدى علال الفاسي اطال الله عمره ووقاه من كل مكروه ،

« قصة تعرفى على الرئيس الاستاذ علال الفاسي » (17)

حينما دعاني الاخ الاستاذ محمد السلاوى مدير جريدة « فاس » للمشاركة فى العدد الخاص من الجريدة بمناسبة العيد الفضى لرجوع الرئيس من منفاه السحيق بالكابون ، فكرت غير قليل فى نوعية الموضوع .

واخيرا وقع اختيارى على تحرير قصة تعرفى عليه لانها اوفق لهذه الذكرى . ما دامت « قصتى » من اجمل واحلى ذكرياتى .

التحقت بمعهد وجدة في صيف عام 1348 هجرية وبعد عطلة ربيع الاول بالضبط سنة 1930 م

ولم اكد اقضي اياما من حياتى فى المعهد حتى اخذت التقط اخبار « العصريين » من مجالس الطلبة . وبامانة التاريخ مجالس بعض الطلبة، وادق من هذا التعبير من مجالس الطلبة الذين كانوا اشد التصاقا بشيخنا سيدى بنسعيد بن عبد الرحمن اليزناسنى الخالدى اطال الله حياته وشمله بكامل العافية .

فلقد كانت دروسه المتنوعة رضى الله عنه مليئة بالاحاديث السلفية ، مقرونة بالاشارة الى نشاط « العصريين » .

وهكذا كنت اختزن في ذاكرتي بصفة لا شعورية كل ما يروج حول « العصريين » وزعيمهم الشاب علال الفاسي .

وكان اعجاب الطلبة بنبوغ هذا الشاب وعبقريته ، وما منحه الله من قوة خارقة للعادة في مواجهة الكفار ، ومن يساعدونهم على التحكم في دار السلام ، يأخذ مني كل مأخذ .

وكان اعجابي به يتضاعف كلما رايت صورة له وهو شاب نحيف خفيف اللحية والعارضين ، وعينان زرقاوان تتقدان ذكاء وعزيمة تنبئان عن قوة هائلة لا تتلائم تماما مع جسمه النحيل .

فاتساءل في باطني : اي والله .. كيف يواجه هذا الشاب الكفار ؟ اجسام ضخمة مفتولة العضلات . ودربة كاملة على خوض اي نوع من انواع الحروب في الارض ، في السماء ، في البحر .. غريب ورب الكعبة ان يتحدى الكفار هذا « الجسم النحيل ! »

اننى بطبيعة ولادتي وقضاء طفولتي واوائل شبابي في البادية . لم اكن اهضم اصلا ان يكون عراك بين قوتين غير متكافئتين ماديا . ولم اكن اقيم اي وزن للناحية المعنوية . وكان شعارنا في البادية : عندك قوة مادية تقدم ، والا فتاخر ، ولكن ما بال هذا الشاب النحيل يتحدى الكفار ؟ انه لشيء عجاب .. ثم تتوارد على خواطر لا اجد لها حلا في عقلي الصغير .

ماذا عسى ان يتوفر عليه هذا الشاب من قوة ؟ ومن اي طينة هو ؟ اياكل ، ويشرب ، وينام و ؟ كما نفعل جميعا ؟ ولكننا لا نشعر باي استعداد لان تنطلق كلمة واحدة من افواهنا ضد الكفار ... ثم لا تلبث اخبار نشاطه ونشاط رفاقه ان تتتابع . ماذا ؟ ان شعار هؤلاء العصريين لبس اللباس الوطني من الرجلين الى الراس ، البلغة من

القيسارية . والعمامة « تاج العرب » من نسيجنا ولكن ما شان ذلك ؟ ويـاتى الجـواب مـن اخوانى الطلبة الواعين : شان ذلك هو تشجيـــع الانتاج المغربى ، وتعطيل انتاج الكفار ! واتساءل ·· وماذا بعد ؟ ان الكفار حينما استولوا على السلطة بقى لهم ان يستولوا على اراضينا ويقضوا على انتاجنا .

ثم نبقى بعد ذلك عبيدا في اراضينا، وخدمة في مكاتبهم ومنازلهم . ووراء هذا تشطيبنا من خريطة الامم ، افهمت ؟ يقول احد الطلبة .

كنت اشعر ـ وانا اسمع الى هذه التفسيرات كاننى فى غابة وحدى ، وان قوة ضارية تحوم حولى تمهيدا لابتلاعى ، لذلك كنت الوذ بالفرار من هذه التفسيرات الغامضة.

ولا اكاد استريح من عبئها حتى يدعونى جارى الطالب السيد احمد بن احمدان اليزناسنى البوعمالى الى بيته ، هيه الى الشاى ·· ثم يقول لى : امالك رغبة فى الاستماع ؟ استمع هذا كتاب : تلبيس ابليس ، وهذا كتاب المدخل . وهذا كتاب الابداع فى مضار الابتداع . انها كتـــب كاشباهها تعرف بالتصوف الحق ، وتنعى على التصوف الباطل .

لا يكاد جارى يقرا بعض الصفحات حتى اشعر بان عقلى الصغير يقوم بدراسة مقارنة ما بين هذا التصوف وما بين الزوايا . وينتاب عقلى دوران اذ يخطر ببالى : ان والدى يحفظ كتاب الله ويتدين بمعنى الكلمة . ولكن كيف يكون من تلامذة بعض هذه الزوايا ؟ ايكون والدى ووالدتى المتعبدة ايضا . وجميع «ال ورطاس على ضلال ؟ لا ·· لا ·· ثم افر من جارى واتركه مع كتبه .

وتدور الايام والشهور ، وان عقلى لفى حيرة مما اعلم واسمع . وفـــي مساء من يوم الاربعاء رافقت الطالب المرحوم بالله السيد بوجمعـــة

www.benzwassen.com

الصحراوى . وكان غريب الاطوار .. وقلما رافق طالبا فى فسحة عبر المدينة ، وصلنا الى « شارع محمد الخامس » ، وفجأة اخذ يضحك ، فاتساءل، لم الضحك ؟ فيجيب : انى اضحك من هذه العمارات التى شيدهـــا الفرنسيون . فحينما يغادرونها كيف يمكن للمغاربة ان يسكنوها ؟ كـــم سيسقط من صبيان من هذه العمارات ، وكم سترى من « هيادر » مدلات على الشرفات .

فاسأله : وهل سيغادرها الفرنسيون ؟ فيجيب ، وهو يبتسم : وهل سيبقون هنا خالدين ؟ انهم طارئون ، وسيبقى المغرب لاهله فى يوم ما .. فاقول : ولكن كيف ذلك . ان « رجال البلاد » هم الذين ادخلوهم ، ومن قال لنا انهم سيخرجونهم ؟ فيسألنى فى استهزاء : ماذا تعنى « برجال البلاد » اعنى سيدى يحيى ، وسيدى محمد ابركان وامثالهم من الموتـــى الاولياء . فيضحك السيد بوجمعة رحمة الله عليه ويقول : ان الاموات ، والاحياء هم الذين ادخلوا علينا الكفار ، وهم الذين سيخرجونهم ، ويشعر السيد بوجمعة ان عقلى الصغير فى شرود فيقطع الحديث .

لا اكاد استقر فى حجرتى عقب هذا الحديث مع المرحوم السيـــد بوجمعة حتى اشعر اثناء ليلتى ان خواطر تتآكل فى قلبى ، رباه .. ماذا اسمع ؟ الكفار دخلوا الى ارضنا باذن اولياء الله الموتى . لا ... بل باذن الاحياء .. وهم الذين سيخرجونهم . العصريون يناوشون الكفـــار العصريون ضعفاء العدد والعدة . والكفار اقوياء . اهل الزوايا اهل الله . والعصريون يقولون انهم اعوان الكفار ، او ان بعضهم اعوان الكفار . السيد بوجمعة يتحدث عن خروج الكفار من أرضنا بصفة هادئة ، ومن الذى افهمه هذا ؟ العصريون يتظاهرون ضد الظهير البربرى . وما شـــأن العصريين والبربر ؟ نفترض ان هؤلاء مظلومون ، ولكن على كل واحد

ان يدافع عن نفسه كما تعودنا . وما شأن هذا التلاحم والتعاون المجاني ؟ انني في ذلك العهد كنت اعرف ان العصريين موجودون في فاس فقط . وان رئيسهم هذا الشاب الغريب الاطوار الذي يطلقون عليه : علال الفاسي، وما شأن الفاسيين والبربر ؟ وهل الفاسيون اقدر على العمل من البربر ؟ هؤلاء بدويون يتوفرون على القوة الكاملة ، وأولئك حضريون ليس لهم من القوة المادية ما لمثل اولئك ، فكيف افسر هذه الالغاز ؟ ...

اخذت اشك حينذاك في ان القوة المادية هي كل شيء في المعارك ، ولكن كيف افسر ذلك ؟ واتساءل : من اين اتت للعصريين هذه الفكرة العصرية ؟ لا شك أنها من العلم ، وليس غير ذلك ، فأجول في دروسي .. الاجرومية ..الالفية.. ابن عاشر.. الشيخ خليل .. التحفة ، الفرائض. لا شيء غير ذلك ولكن هذه ليس فيها شيء من هذه الفكرة العصرية . ففي اي علم هي ؟ ثم ارجع الى السيد احمد بن حمدان ، لا . . لاتشترها خذ ، اقرأ هذا ، يا أخي أريد شراء أحد تلك الكتب . الابداع في مضمار الابداع . لا اكاد اقرا صفحات منه حتى اشعر باهتزاز غريب في نفسي . هذه احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلها عالم لا اشك في فضله، والا فمن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ان احدنا لا يستطيع ان يكذب على احد شيوخه ، فضلا عن ان يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مرت على سنتان ونصف في المعهد ، شعرت خلالها بضرورة الرحلة الى مدينة العصريين فاس ، وليس امامي الا مشكلة واحدة . هي اقناع والدي بذلك ، والدي قد كان متحققا بلهجتي فيما يخص « الزوايا » وهو احد مريدي بعضها فكيف اقنعه ؟ ففكرت ان والدي يخصني بحب خاص ووالدتي رحمها الله تومن بكل ما اقول ، الامر سهل اذن .

وهكذا ، وفي صباح يوم الثلاثاء 12 شوال عام 1351 هـ ودعت والـدي لطلب العلم في مدينة العصريين . . وسألنـي عن رأيي فـي « العصريـة » فأجبته : انك يا والدى وهبتنى للعلم ، فاذ كان العلم يبيح اعتنـاق هـذه العصرية . فليس لى ولك حكم . والا فلا تخشى على العلم ان يزل ، فوافق كل الموافقة .

وفى صباح الخميس 14 شوال عام 1351 هـ الموافق 23 فبراير 1932م وفى الساعة الثامنة بالضبط كنت فى رقم 34 بالمدرسة العنانية .. لم يمر على بضعة ايام حتى دعانى رفيقى المرحوم السيد ادريس البرحيلى الى الحضور فى الدرس الذى كان يلقيه السيد علال الفاسى فى القرويين ما بين العشاءين ، وكنت قبل ذلك طلبت منه ان يعرفنى به من بعيد .. فرايته طبق صورته التى كنت رايتها مرارا .

دخلنا الى القرويين . وشاهدت ما لم اكن عرفته ، ولا تخيلته ، علماء ، وتجار ، وطلبة ، وشباب ، ونساء وفتيات متلثمات يبدون بالمئات .. والمباخر ، وعصير الازهار يعبق فى القرويين ، والكل يلتفت يمينا وشمالا يترقبون الشاب العالم النابغة «العصرى» علال الفاسى .

ولاحظ المرحوم ادريس البرحيلى غريب اندهاشى من هذا المنظر ، فابتسم ووضع يده على فمه كعادته وقال : انك ماخوذ بهذا المنظر فقط ! وسترى اغرب من ذلك حينما يعتلى علال الكرسى . لتسمع ما لم يخطر لك بال . ولم تمر لحظات حتى سمعت دوى التكبير والتهليل والزغاريد يصم الاذان . والرهبة . تستولى على الجميع ، وكأنما على رؤوسهم الطير، التفت الى رفيقى ادريس وسألت : هل هذم العلوم تقرا هنا في القرويين ؟ وهل يمكن الوصول الى شـىء منها ؟ فأجاب : دعـك من هذا السـؤال ان هذه منح الله الغالية يكـرم بهـا من يشاء ، وقليـل ما هـم .

اثناء رجوعنا الى العيانية قلت لرفيقي : ما دام مثل هذه العلوم هبة من الله يختص بها من يشاء ، والسيد علال يبدو عليه انه لا يتجاوز سننا الا قليلا . وقد بلغ ما بلغ اليه من سعة العلم ، ونحن لا زلنا ندرس مبادىء النحو والصرف الخ ..

فمن الميئوس منه ان ننال شيئا من علمه . فهل سيكون لنا عمر سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام ؟ فقال لي : دعك من الفضول ، لقد قلت لك : ان ما سمعته من علال الفاسي . هبة من الله وليست عامة ، وعلينا ان نطلب العلم كما يطلبه غيرنا من الطلبة العاديين . ولن يعمر الله هذا المغرب كله بامثال علال الفاسي . وذات يوم بعد ذلك بقليل ، دعاني الى جولة في المدينة . فلما وصلنا الى جهة يمين القرويين قال لي : هذا ضريح سيدي عبد القادر الفاسي . . ولا يطلق الفاسي في فاس ، الا على اسرة علال الفاسي . وقد توارثت هذه الاسرة العلم من قرون مضت . اقول لك هذا حتى لا تطمع في ان تنال ما ناله ، وهو بيت علم منذ قرون .. فعليك ان تعلم انهم حتى في حياتهم الخاصة في حالة علمية . فالعلم في كل حركاتهم وسكناتهم . فهم يرضعونه منذ ولادتهم كما يرضعون حليب امهاتهم ، وبصفة تلقائية ، فاين نحن من هؤلاء ؟ وحلت عطلة صيف عام 1352 هـ اي مر علي ما يقرب من نصف عام في فاس . فاقترحت على رفيقي ادريس ان نطلب من السيد علال الفاسي .. دراسة العروض معنا . ولما تشرفنا بالدخول الى منزله بدرب المتر وجدناه ـ مزكوما وعليه غطاء احمر ـ : وهو جالس يحادث بعض الزوار . فاستقبلنا بكامل الاكرام ، وتعلل بمرضه عن الدراسة وسلم لنا رسالة الى المرحوم مولاي الصديق العلوي .

واثناء رجوعنا الى المدرسة قال لي رفيقي المرحوم ادريس : هل تعتقد ان المرض هو الذي حال دون دراسته العروض معنا ؟ قلت : نعم ،

فقال لي : لا ، انه ممنوع من القاء اي درس . ولكنه تعلل بالمرض حتى لا يخوض معنا موضوعا نحن دون تفهمه ، لانه متوقف على فهم الوضع . كان ذلك آخر لقاء مع الرئيس علال الفاسي الى صيف سنة 1946 م حينما اطلق سراحه من منفاه بالكابون .. وكنت اذ ذاك عميدا من عمداء الحزب في ابركان تحت اشراف المرحوم السيد محمد بناصر بن الحاج العربي الذي كان مندوبا عاما للحزب بالمغرب الشرقي . وكان وفد ابركان يتركب من 47 حزبيا.

وفي المنزل الذي كان فيه المهرجان في فاس ابتهاجا برجوعه ، قدمني اليه السيد المرحوم محمد بناصر وقال لي : هل انت وطاسي ؟ او ورطاسي ؟ فقلت بالراء : وابتسم وقال . بارك الله فيك ، بعد ان قال له الاخ المرحوم بناصر : هذا الشاب ممن يعجبونك .. ثم انقطعت صلتي به مواجهة الى ان استرجع المغرب السيادة . ومن هذا التاريخ توالى الاتصال الى الان .

وخلال الاتصالين عام 1352 هـ والى عام 1366 كنت درست اسرته في نفح الطيب والحلل السندسية وغيرهما من المراجع التاريخية ، فامتلات اعجابا واكبارا لهذه الاسرة النبيلة تاريخيا وحاضرا ، هذه تحيتي الى الرئيس علال الفاسي في عيده الفضي سائلا من الله له طول الحياة وكامل العافية والتوفيق .

مع شيخنا العلامة سيدي محمد بن عبد القادر الصقلي (18)

من العلوم التي كنت شغوفا بدراستها كل الشغف : علم الكلام ، او علم العقائد» او «علم التوحيد» .

والذي ضاعف من رغبتي هو ما كنت سمعته من شيوخي من الاقوال المتنوعة حول المقلد وحول اول واجب على المكلف .

فلقد عز علي ان اكون طالبا مسلما ، ولا علم لي بما يجب على المكلف المسلم ، وعز علي ان اكون مقلدا . وقد قيل في المقلد ما قيل .

ولا سيما الدافع الاساسي لطلب العلم اذ ذاك هو العلم لاجل العمل في حد ذات العالم . ثم نشره بين المسلمين . ونشره من واجبات العلماء .

وللامام ابن عرفة ثلاثة اقوال في المقلد .

1 = مؤمن غير عاص بترك النظر .

2 – مؤمن ، لكنه عاص ان ترك النظر مع القدرة .

3 – انه كافر

ثم قال الامام المذكور : وبالجملة فالذي حكاه غير واحد عن جمهور اهل السنة ومحققيهم ان التقليد لا يكفي في العقائد .

ولهذا قال ابن الحاجب : ان الايمان هو التصديق ، وهو حديث النفس للمعرفة على الاصح . وقال : ولا يكفي التقليد في ذلك على الاصح .

ومن حسن حظي انني درست علم الكلام على شيخين ضليعين فيه .

اولهم سيدي محمد بن عبد السلام الطاهري اطال الله حياته ، وكان المدروس هو منظومة «الخريدة» التي كنت احفظها عن ظهر قلب .

ولست انسى ابدا : ان شيخنا هذا هو اول من افهمني الفرق بين العلم والبصر . والارادة والقدرة . فلقد ضرب لنا المثال الآتي الذي لا يزال في ذاكرتي منذ عام 1351 هـ الى الان «عام 1391 هـ» أي أربعين سنة .

قال لنا رضي الله عنه : لتتصور انك في المنزل ، واخبرت بشجرة تفاح في حديقة ما ، فبهذا وقع شيء في عقلك ، وهو أن شجرة تفاح في حديقة ما ، وهذا هو العلم العقلي . ثم توجهت الى الحديقة فوقع بصرك على التفاح في الشجرة . فهذا هو العلم البصري وهو غير العلم العقلي الاول

فالاول مجرد تصور عقلي ، والثاني تصور شخصي . ان انك علمت شيئا ثم رأيت صورته الحقيقية ، والفرق واضح بين تصور الشيء ورؤيته فالتصور العقلي قد يوافق الصورة الحقيقية ، وقد لا يوافقها . أما التصور البصري ، فهو تصور حقيقي من غير زيادة ولا نقصان لا في الحجم ، ولا في اللون .

وهكذا شأن الماديات تدرك بالعقل وبالبصر . والجمع بينهما هو الادارك الكامل الذي لا يتطرق اليه الشك فضلا عن الوهم .

وعلى عكس ذلك شأن المعاني ، تدرك بالفكر ، ولا تدرك بالبصر.

فالعلم يدرك المعنويات : أي يتصورها والبصر يدرك الماديات ، والعلم يدرك ما وراء الماديات ، أي وراء صورها الظاهرة ، والبصر لا يدرك الا الظواهر

قال رضي الله عنه :

عندما رأيت شجرة التفاح شعرت بميل نحو تفاحة بعينها . وتخصيص تفاحة بعينها من سائر التفاح هو من شأن الارادة ، فشأنها التخصيص ، فاذا جئتها ، فذلك شأن القدرة . اى ان الارادة كذى سلطان تختار الشيء من بين الاشتياء . والقدرة اداة تنفيذ لما أمرت به الارادة .

ومن هذا المثال أخذت اتفهم علم الكلام .

فبعد أن علمت بالحجج الملزمة ان الله عالم بكل شيء . مريد لكل شيء ، قادر على كل شيء ، حدثت لي مشكلة بالمقارنة مع علمنا وارادتنا وقدرتنا .

فقلت في نفسي . ما سر علمنا ، وارادتنا ، وقدرتنا ؟ وبالدقة اية قيمة لعلمنا ، وارادتنا وقدرتنا ؟

فقيل لى : ان هذا ما يسمى بالقضاء والقدر . وهو محل التشريع . ولكننى لم افهم جيدا فافهمت : ان الله فرغ من أربع ، من خلق ، وخلق ، ورزق ، واجل . وحجب عنا كل شيء ، وأعطانا فى الظاهر حرية تليق بالمخلوقات لنعلم ، ونريد ، ونفعل .

فحينما نعمل عملا ما ، طبقا لاوامر الله . او نتجنب شيئا ما ، طبقا لنواهيه ، نثاب على ذلك عاجلا وآجلا. وعلى العكس نعاقب عاجلا او آجلا او هما معا .

ومع ذلك فلم ادرك ذلك كل الادراك .

وهنا ساق علماء الكلام حكاية محاجة ابليس لربه . اذ قال الاول : يارب منعتنى من السجود لآدم في الازل ثم نامرنى بالسجود ؟ فرد الله عليه متى علمت ذلك ؟ قبل الاباية ام بعدها ؟ فقال ابليس : بل بعدها . فقال الله : وبذلك اخذتك ، ومع ذلك ايضا فقد تضاعفت عقدتى . او جهلى على الصحيح .

فقيل لى : عندما تحس بالظمأ ماذا تفعل ؟ قلت أبحث عن الماء ، فقيل لى : لماذا لا تكل أمرك الى القضاء والقدر ؟ قلت كيف افعل . وانا احس بقدرة تساعدنى على البحث عن الماء ؟ فقيل لى : لماذا تعتمد على علمك وارادتك وقدرتك فيما يتعلق بحاجاتك البشرية ، حتى اذا جاءت تعاليم الله أمرا ونهيا . احتججت بالقضاء ولقدر ؟

فاما ان تكل كل شيء للقضاء والقدر ، واما ان تتصرف فى كل شيء بمقتضى ما تشعر به من علم وارادة وقدرة ، والا عد ذلك تحكما .

ثم زاد القائل لى : لو فرضنا انك اطعت او عصيت الله بعد ان كنت مطلعا على ما اريد لك وقدر عليك ، لما أجزيت ولا عوقبت . واذا بطل الاجر والعقاب ، بطل كل شرع الهى . اى ان يكون لافائدة في بعث الرسل .

www.benizNassen.com

والخلاصة ان الانسان حينما يعمل عملا ، او يتجنب شيئا والكل لله ، فله الاجر ، وعلى العكس فعليه العقاب .

وهكذا صرت ادرس علم الكلام ، وكان الذى انقذنى من حيرتى اولا سيدي محمد بن عبد السلام الطاهري والذي وسع أفق معارفي هو السيد محمد بن عبد القادر الصقلي اطال الله حياته .

فلقد حدث فى شتاء 1352 هـ ان مررت بحلقة درسه «السنوسية» فراقتنى تحقيقاته وتعمقاته ، وايضاحاته للاسرار العقائدية التى كنت في امس الحاجة اليها ، فالتحقت بحلقته ، واذكر من طلبة الحلقة . الشبان : عبد الرحمن التازى ، الذى كان والده يسكن بالبليدة رقم 1 ، ولم اره منذ ثلاثين سنة ، وبلى لى انه حصل على «العالمية» وهو فى سلك التعليم الآن . وكان هو السارد .

ونظرا لشغفى بعلم الكلام كنت فى مقدمة المتجاوبين مع الشيخ كل التجاوب ، وحتى أنه كان يلقي السؤال ويطلب منى ألا أجيب . فأشير الى المسؤول « لان شيخنا حرم من بصره منذ الطفولة » فيجيب المسئول فيضحك الشيخ ويقول : هذه اشارة من سى عبد القادر الورطاسى ! كذلك كان يدعوني عبد القادر ، لا قدور .

وذات مساء تخلفت عن الدرس الذى كان يلقى فى الثالثة . وكان يوم اربعاء ووالدى في زيارتى . وذلك سبب تخلفى . وكان الدرس ذلك اليوم صعبا جدا . فلما لم يشعر الشيخ بمن يتجاوب معه كما كان الشان معى أخر الدرس الى يوم السبت . بذلك اخبرنى السيد عبد الرحمن التازى الذى طلب منى أن أفهمه الدرس وأنا واقف بباب العنانية ففهمه عنى فى بضع دقائق .

وفي يوم السبت أخذ الطلبة يتبعون الشيخ بدون صعوبة فابتسم وقال : اليوم كل واحد يفهمني لان سي عبد القادر معنا !

وكان أطال الله عمره يقول لي : بمجرد ما نختم السنوسية ، فاني آذن لك في تدريسها في أي مكان شئت.

وبالمناسبة اختم كلمتي هذه بنادرة عجيبة.

في سنة 1957 زرت جامعة القرويين وأنا رئيس دائرة بركان ، فرأيت الشيخ جالسا الى سارية بعد أن انتهى من درسه . وأخذ يهيء الطابة ليضعها في أنفه ، فقلت له السلام عليكم ، هل لكم أن تشركوني في «التنفيحة» فسكت قليلا وقال :

«صوت ما سمعته منذ عشرين سنة» هذا سي عبد القادر امامي ، اليس كذلك ؟ قلت هو ذاك فقال : كما قال لي ميخي سيدي العربي الشامي رضي الله عنه ـ وهل القواد الممتازون يدخلون الى القرويين ؟ فأجبت : أنا أعتز بالتلمذة لكم في هذه الجامعة التاريخية ولا اقيم وزنا لاي «شرف» اصل اليه مهما كان ، ازاء هذه التلمذة في هذه الجامعة والحقيقة انني شعرت بسعادة عظيمة حينما دخلت الي الجامعة واجتمعت ببعض أساتذتي واني أحمد الله على أن محبتي لشيوخي واحترامهم وخدمتهم مستطاعي ، كل ذلك لم تغيره الظروف التي عشتها .

فالعلماء عندي في مستوى عظيم ، فبفضل علمهم وسلوكهم وانطباع نفوسنا وافكارنا بذلك ، استطعنا ان نخوض غمرات الكفاح مستهينين بكل غال ، فاللهم جازهم عنا أحسن الجزاء .

نعم علينا ان نقضي وقتا ما في الحلقة 19 مع المرحوم السيد محمد لحلو الفاسي .

مع السيد محمد لحلو الفاسي رحمه الله (19)

المرحوم بالله السيد محمد لحلو من أهالي فاس. كان ما بين سنة 1920 و 1930 تاجرا في مدينة ابركان. وقد يكون ارتحل اليها تاجرا قبل سنة 1920 بسنوات قلائل .

ذلك أنني حينما كنت أنحدر من قريتي واد ورطاس الى مدينة ابركان «مسافة 5 كيلو» تقريبا كنت اراه في متجره قرب السوق المجاورة لمقبرة سيدي محمد ابركان. وكان ذلك ما بين 1920 و 1925 وكان متجره ملكا له من جملة المتاجر والمقهى التي بناها من أرباح تجارته هنالك ، وتقرب متاجره التي كان يكريها من العشرة. وبفضل رواج تجارته غير المزاحمة اذ ذاك ، اشترى بعض البساتين في قرية تقربوصت بواد زكزل جنوب مدينة ابركان الغربي .

وكان متجره نموذجا تاما لمتاجر «القسارية» في فاس. جلابيب وحياك ، وقفاطين و «فرجيات» وبدعيات وحرير. ومناديل وبلاغ الى آخر القائمة .

وكان غير مزاحم في تجارته هذه أول الامر. فكان القواد والخلفاء والشيوخ والقضاة والعدول ومن انعم الله عليه بسعة في ماله ، لايترفهون في ثيابهم الا من متجره .

وكانت هنالك أسبا بمتنوعة تزيد من رواج تجارته على انفراده بها والتي يمكن لنا ان نؤرخ هذا النوع بها في ابركان. فقبله كان لابد من الرحلة الى وجدة والى قسارية اهل فاس لاقتناء تلك الانواع من الملابس .

من جملة الاسباب التي روجت تجارته زيادة على انفراده بها اول الامر :

1 – أسلوبه ولهجته ، فالوسط البركاني اذ ذاك ، وان كان مزيجا من العربية الدارجة والشلحة . فقد كان ينطبع بالبداوة ، وملحقا باللهجة الجزائرية . ومخللا بكلمات اسبانية. مع قصوره عن دقة التعبير وعدم استعماله الكثير من الكلمات العربية الفصيحة وخلوه من النكت والفكاهات المربحة الحضارية ، وعدم تنوع أساليبه ، ثم غلبة الجدية عليه ، وعلى عكس ذلك ، كان المرحوم بالله السيد محمد الفاسي لحلو خفيف الروح مرحا ، موسيقى اللهجة ، يخلل كلامه بالنكت والنوادر والحكم والاحاديث والفقهيات وآثار السلف ، مما كان يلتقطه من الدروس التي كان يحضرها من حين لآخر في القرويين وبين العشاءين بالخصوص وذلك علاوة على ما علق بذهنه من البيئة الفاسية ، لان البيئات العلمية والحضارية لها أحسن الاثر في تهذيب وتكوين عامة الناس ، وحيث أن أهل البادية وان كانوا ينافسون الحضريين وينقدونهم لاشياء متنوعة ، ولكنهم في نفس الوقت يعجبون من حضاراتهم ويغارون منها ، وتختلف أذواقهم في التصريح بذلك وعدم التصريح به ، لذلك كانوا ينجذبون مرغمين باطنيا الى متجر السيد محمد لحلو ليقتنوا منه ولو شيئا بسيطا ليمتعوا انفسهم بلهجته الحلوة ونكته ونوادره وحكمه المتنوعة .

واذا اردنا ان نلخص هذا السبب ، قلنا ان لهجته تلك نوع من انواع الجمال . والنفوس مرغمة على تملي الجمال كيفما تنوعت مظاهره وكيفما كانت دوافعه .

2 – في هذا العهد لم تكن التجارة هنالك كمورد من موارد الكسب الهامة . بل كانت الموارد تنحصر في تنمية المواشي، والحرث والبساتين وخصوصا البرتقال ، والذين لهم هذه الموارد هم الذين كانوا يغشون متجر السيد محمد لحلو مع الطبقة السالفة الذكر من قواد وخلفاء الخ ،

وكان لاموال اولئك مواسم معينة . هي التي يمكن لهم بها أن يرفهوا عن انفسهم. ويسددوا الديون ، وهنالك موارد بسيطة يخصصون ريعها للحاجات اليومية .

وذلك مثل غلال الرمان والخوخ والتفاح والمشمش واللوز والعنب والبقول .

ولسعة رأس مال السيد محمد لحلو ، كان باستطاعته ان يداينهم الى موسم موارد أموالهم. وقد تكون البيوعات من بيوع الاجال حيث تكون الفائدة اكثر من البيوعات الناجزة والى ذلك كان يستدر الرهان ذات الاستغلال كما كان جاريا فى المحكمة الشرعية .

وممارسته لبيوع الاجال والرهان كانت من اسباب نجاح تجارته.

3 ـ ان انواع تجارته الصوفية والقطنية والحريرية فى حاجة الى خبرة ودراية لاعطاء ايضاحات حولها للزبائن ، والسيد محمد لحلو كان علاوة على طبيعة بيئته التى لقنته ودربته ذلك تلقائيا . كان من الخبرة والدربة بالمستوى الذى لا يزاحم ، بما مارسه من التجارة ربما من اوائل شبابه ، ان لم يكن ذلك من عهد طفولته . والزبائن من عادتهم انهم ينجذبون للايضاحات المعطاة لهم حول ما يريدون شراءه .

4 ـ كان منزل السيد لحلو لا يخلو من ضيوف سواء فى الغداء ام في العشاء . واهل البادية على العموم. والبركانيون على الخصوص ، تتفاعل نفوسهم مع الاكرام تفاعل القلوب مع السحر. ولا يقال ان اهل الحضر ليسوا كذلك. فالاكرام اكرام كيفما كان المكرمون «بفتح الراء» فالحقيقة ان الحضرى لا يفوت الاكرام عليه مصالحه ولو كان على مائدة الطعام . فهو يبتسم لرب المنزل ويعد ويقبل ولكن سرعان ما يشعر بوسيلة لطيفة او وسائل صاحب المنزل التاجر او الفلاح بأن الصفقة ليست فى صالحه، ورحمة الله على ما تناوله من طعام .

أما أهل البادية ، فان من شمائم اخلاقهم واقوالهم ، قولهم لقد قبلت الصفقة وانا أعرف يقينا ما كان على فيها من غبن ، ولكن كيف لا اقبل وأنا على مائدة طعامه ، او اننى اشعر «بملحه فى بطنى» .

وليس معنى هذا اننى أتهم المرحوم السيد محمد لحلو فى دينه وأخلاقه وتجارته ، ولكنى أقص فقط وأحلل تحليلا واقعيا الاسباب التى كان من شأنها ، ولعلها ما زالت ان تروج التجارة وتدر الارباح . ولم يكن المرحوم السيد محمد الفاسي لحلو بمنجاة من أساليب التجارة الحضارية المتعارفة فى كل زمان ومكان .

5 ـ كان المرحوم السيد محمد الفاسي لحلو كريما ، يسر الدمع لاقل موعظة وعبرة ، يحنو على الفقراء والمساكين ، ويجل العلماء والطلبة والشرفاء ، ويحترم المتقدمين فى السن ، ويخاطب الناس «بسيدى وللا» وقد تثور ثائرته ويملا الجو صياحا ، ويتناثر الريق من فمه وكأنه بركان ولكن سرعان ما تهدأ اعصابه ويبكى ويحوقل ، ويستغفر ، ويطلب العفو والسماح . ثم يتساهل كل التساهل فيما ثار من أجله ، بل وتراه يخرج من وراء حاجز المتجر وهو فى منتهى السمن ، ليقبل رأس من خاصمه ، وتعد المياه الى مجاريها .

وعلى عكس نفسية أهالى بركان . وخصوصا سكان الجبال ، فاذا غضبوا ، ربما يغضبون لعشرين سنة ، وقد يكون السبب تافها أو بسيطا او عاديا ، ولكن أنانيتهم المفرطة ، تأبى عليهم ان يكونو فى مستوى أخلاق أمثال السيد محمد لحلو التى تخضع دائما لطبيعة المد والجزر .

أما البركانيون ، فاما مد الى تجريف القرى المجاورة : بنائها وأنفسها وأثاثها وأموالها حتى يظن ان لا جزر بعد ذلك ، واما جزر حتى

يظن أن لا مد بعد ذلك. ولاقل الاسباب يكون المد والجزر .

اذن فزبون السيد محمد لحلو لا يغادر متجره الا «على خاطره» اولا واخيرا . وذلك شأن التاجر الماهر .

ولكم كنت في طفولتي أقف قرب متجر السيد محمد لحلو رحمه الله في أبركان لاتملى لهجته ، وأتابع اسلوب احاديثه مع الناس . كنت أطير فرحا اذا رأيته ثائرا . لان تلذذى بثورته كان يفوق تلذذى باسلوبه الهادىء ، واذا غضب أكاد لا افهم ما يقول .

ولما ذكر لى والدى رضى الله عنه انه سيرسلنى الى القرويين ، تذكرت صعوبة التفاهم فى أهل فاس . ولا سيما اذا غضبوا او تغاضبوا، فما ابعد المسافة بين أسلوبى ولهجتى وبين اسلوبهم ، ولهجتهم فأسلوبهم لين رطب ، ينفلت من الذهن انفلات الحوت الحى من اليد.

ولا تدرى فى بعض الظروف مغازى لهجتهم ، أهم غاضبون حقا ؟ أهم مظلومون حقا ؟ أهم جادون أهم هازلون أعداء هم أم أصدقاء هم ؟

الحق أن ذلك ليس من عيوبهم ، ولا يعد من ذنوبهم . ولا من آيات منيعة شخصيتهم. انها الحضارة العريقة يا اخى ، تجعل المتحضر كشىء شفاف يخيل اليك انك تستطيع ان ترى وجهك فيه او تحطمه. ولكن هيهات. فرقة الطبع ، ورهافة الاحساس وسرعة البداهة تفعل فى النفوس غير المتحضرة ما لا يفعل سحر هاروت وماروت !

ومن هنا يا أخى ، استطاع الفاسيون أو أهل فاس بالضبط أن ينسلوا الى مرافق الحياة ليستفيدوا منها أكثر استفادة . فهم كغصون البان ، لا تحطمهم الاعاصير وعقولهم راجحة ، ليست كعقول العصافير فيتطايرون لاقل الاحداث والاصوات .

ومن هنا يا أخى ـ تضخم عدد منافسيهم وأعدائهم .

ان منافسيهم ، وخصومهم ، وأعدائهم. بسطاء التفكير ينظرون الى ما بين أرجلهم ، نعم ما بين أرجلهم ، أو الى ما هو أدنى من أرجلهم ، ينظرون الى تفتح الحياة فى وجوه اهل فاس ولكنهم لا يدرسون ـ بعمق ـ أسباب ذلك التفتح .

فاهل فاس ـ على الرغم من «أنانيتهم» التى لا حد لها ـ تراهم يتراجعون تراجعا فنيا كلما ادركوا ضررا ما على حياتهم اذا ما حكموا كل أنانيتهم . فلا يصعب على أنانيتهم ان تصعد أسباب السماء. ولا يصعب عليها ان تنحدر بسرعة فنية لا تحس لها همسا ، وتلك هى البراعة الغادرة التى لا يجارون فيها . وهى التى تكون لهم المنافسين والخصوم والاعداء. ولا علاج للحد من براعتهم ، ولا علاج لبساطة منافسيهم وخصومهم وأعدائهم ، فقد شاء الله ان تسير حياة كل هكذا ، «ولله الامر من قبل ومن بعد» .

نعم : شاء الله ان يحقق امنية والدى رضى الله عنه ، فارتحلت الى فاس للدراسة فى جامعة القرويين ، وكان وصولى الى فاس صباح الخميس رابع عشر شوال عام واحد وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية الموافق 23 فبراير سنة 1932 .

وقد كان السيد محمد لحلو رجع من أبركان الى وطنه فاس ، غير أن صلته بأبركان بقيت مسترسلة ، قائمة الذات ، لان املاكه بنفس أبركان وخارجها بقيت غير مفوتة منه لاى احد زمنا طويلا ، وكان ابنه السيد بنسالم «أكرم أبنائه» والحاج ادريس ابن اخيه ومكفوله يزوران أبركان من حين لآخر ، ليتصلا بمن يقوم على أملاكه. ويلاقيان كل حفاوة واكرام هنالك . لا من المقيمين على املاك السيد لحلو فقط ، ولكن من مختلف الطبقات .

فالسيد محمد لحلو إن رجع الى فاس ، فانه لم ينس ابدا علاقاته الودية مع بنى يزناسن «وبركة» سيدى محمد ابركان التى أفادته باذن الله في ما اكرمه الله به من سعة في المال .

وكان منزله لا يخلو من بركانيين ، وكان اكرامه لهم فوق ما يتصور الانسان من حاتمية ، وكان رحمه الله يقول للبركانيين ضيوفه : «اناشدكم الله ان تاتوا الى منزلى وتنزلوا على حتى ترجعوا الى أبركان كيفما كان عدد الايام التي تقضونها في فاس .

ويستحلفهم على ان يبلغوا ذلك لكل بنى يزناسن ، من عرف منهم ومن لم يعرف ، ثم يقول: كل يزناسنى زار فاس ولم ينزل عندى سأحاسبه عند الله يوم نقف بين يديه . ثم يقول : لا تخافوا علي من كثرة عددكم حتى ولو كنتم بالعشرات ، ولا تتحينوا الاوقات فبمجرد ما تصلون الى فاس، وفى أى وقت ، فمنزلى منزلكم ، ولكم الشكر مع ذلك على غشيان منزلي ثم يقول : ان جبل بني يزناسن جبل الدقيق «أي الكرم» وسكانه رجال أبطال ، ذووا مروءة وتدين ، وقد ذهبت الى أبركان وأنا فقير ، ورجعت منه وأنا غنى ، بارك الله فى بلادكم ، وأطال أعماركم ، وكثر الله سوادكم ، ثم تراه يبكي ويشهق تأسفا على مغادرته لابركان وأهله ، لان تقدمه في السن وسمنه ، وضعفه على المشي ، كل ذلك اضطره الى الرجوع الى فاس «حومة العيون» حيث قضى حياته كلها بعد ذلك ملازما لمنزله ، ان هذا الذى ذكرته هنا من أقواله سمعتة منه مباشرة ، ورأيت بعينى مرارا كيف كان منزله مأوى بنى يزناسن . وكيف كان اكرامه لهم بلغ حدا عظيما .

في سنة 1354 حج بعض البركانيين وجاء معهم مشيعون ونزلوا في فاس . وكانوا يبلغون السبعين وكانت الساعة الحادية عشرة ليلا، وكلهم

ذهبوا الى منزله في تلك الساعة ! وكلهم تناولوا طعام العشاء وباتوا عنده ، وبقوا أياما في منزله ، كل ذلك وهو يبكي فرحا بهم ويدعو الله لهم بالجزاء الاوفى . وكان اذا لم يأته يزناسي في أحد الايسابيع ، يسأل ولده «بنسالم» والحاج إدريس لحلو ابن اخيه : فهل حقا انكم لم تروا في هذا الاسبوع ولو يزناسيا واحدا ، من المستحيل ذلك ! ان بني يزناسن يزورون «فاس» بكثرة ، ولا اتخيل احدا منهم لم يات في هذا الاسبوع .. ياولدي بنسالم .. يا ادريس ابن اخي . «اتقوا الله ، فلا تلتقوا بيزناسني الا واجبرتموه على زيارة منزلي . وكان هذان : ابنه وابن أخيه يقومان على تجارته «في الديوان» بفاس واذا لقي «بنسالم» بالخصوص ، او الحاج ادريس احدا من إبركان فلا يقبل منه أي عذر في التخلف عن زيارة السيد محمد لحلو وتناول الطعام على مائدته .

ذات يوم رافقت طائفة من ضيوفه ، منهم الفقيه السيد محمد بن العالم قاضي ابركان والفقيه السيد المامون بن العالم قاضي العيون سيدي ملوك «وجدة» فأقام لهم مأدبة فاخرة ، واستدعى «المنشدين» وكانت أمسية من أحلى ما قضيه من أمسيات في منزله .

مرة أخرى رافقت صديق والدي من أبركان الفقيه الشريف السيد مولاي الصديق بن التهامي الاحمدي والسيد «عمرو» بن ميمون التقربوشتي فتغدينا وتعشينا عنده في منزله . وللتدليل على سعة كرمه اقص انواع طعام الفطور فقط .

بمجرد ما أدينا صلاة الصبح ، وفرغنا من تلاوة الحزب ، قدمت الينا خادمتاه ، وكانتا من بني يزناسن «من تزغين» لم تستطيعا ان تفارقاه يوم رجع الى فاس . فقدمتا الينا اناء من الحريرة ، وآخر من «لمحمصة» ثم انتقلنا الى البيت الذي كان فيه ، فقدمتا الينا القهوة بالحليب والسفنج

www.benizNassen.com

ثم الشاى مع الخبز «والخليع» والزبدة والسمن الحار. وأنواعا عدة من الزيتون والحلويات . فما زلنا ناكل من عقب قراءة الحزب الى ان طلعت الشمس مقدار رمح واحد .

ثم أقسم علينا ان نتناول عنده طعام الغداء. وكانت أنواعه متعددة. وكان هذا النوع من الاكرام فاشيا بكثرة فى ذلك العهد فى فاس ، ولكن السيد محمد لحلو رحمه الله ضرب فيه الرقم القياسى ، فرحم الله تلك الروح الطيبة وجعلها تنعم كما تريد في الخلود ، وحفظ الله ذريته وبارك فيها آمين .

مع مجلة الرسالة لاحمد حسن الزيات (20)

أثناء صيف عام 1352 هـ الموافق سنة 1932 م. اخذت اشترى مجلة الرسالة لاحمد حسن الزيات رحمه الله ، وكان ثمنها ربع ريال ، أنقصه من نفقتي في كل أسبوع ، فعوض أن أتناول اللحم مرتين في الاسبوع صرت أتناوله مرة واحدة فقط ، وفى يوم الخميس .

فلقد جذبتنى مجلة الرسالة اليها حتى صارت فى مقدمة غذائى الفكرى وكل فقرة من مقالاتها او ابحاثها ، تبدو لى الذ ما أقرأه بعد كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فكانت افتتاحية الزيات تروقنى لسحر بيانها وسجعها التلقائى ، وترسلها الممتع ، ووحدة موضوعها الرائعة ، وسبكها فى أسلوب خلاب. وجديتها المتناهية ، وتعبيرها الصادق عما يلمع فى فكره من المعانى الرائقة و . وأخيرا حيزها المنظم الذى لايزيد ولا ينقص ! ويروقنى البحث الفلسفى لصادق الرافعى الذى كان ينشره تباعا تحت عنوان : «أما صاحب القلب المسكين ، ويمزجه باستنباط خفايا النفوس البشرية «علم النفس» وبواقع الحياة «علم الاجتماع» كل ذلك

بالاسلوب العربى المتين ، كلمة وجملة وتنسيقا يبلغ الاوج فى فصاحة الكلمة وبلاغة الكلمات .

ويروقنى من عبد القادر المازنى مثل سلسلة «ذات الثوب الارجوانى» بما كان يبدع من تصوير نفسية المرأة وخواطرها ومشاعرها فى اسلوب سلس مبين ، لا تفعر فيه ولا تنطع ، بل الكل على المكشوف غير متجاوز منطقة الاخلاق الفاضلة .

ويروقنى زكى مبارك «الدكاترة» فى «عبثه» كخيال قصة زواجه بفرنسية ، وولده منها «موريس» وفي الوقت ذاته كان يهدف الى توجيهات ذات اهداف نبيلة .

ثم لم تكن هناك اية مقالة لا تروقنى ، انما الذى استنفد جهدى لتفهم كلامه ، وحيرنى كل الحيرة هو «درينى خشبة» فى ترجمته الالياذة والاوديسا» .

فلقد ذهبت كل جهودى سدى فى سبيل تفهمها .

والذى كان يستوقفنى بالضبط ، هو تعدد الالهة مثل اله الشمس ، واله الخمر ، واله السحر الخ .. وكان من عادتى مع «الرسالة» ان أطالعها فى مقهى جنان السبيل الوسطى . وكان من جملة اندالها شاب من بنى بوزكو ملحقة العيون بالمغرب الشرقى .

فقبل أن أشرع في مطالعتها يأتي بكأس من شاي بنصف فرنك ، ثم يقدم الى الاغانى الآتية : «علموه كيف يجفو فجفا» جفنه علم الغزل واكذب نفسى» «افديه ان حفظ الهوى او ضيعا» وحقك انت المنى والطلب وبعد ذلك اشرع فى المطالعة ، فلا احس بمن يجلس او يقوم ، حتى «اتى على «اخر المجلة ، ولا افعل ذلك الا فى مساء الاربعاء ، الا اذا كان ذلك المساء من الامسيات التى يزورنى فيها والدى من ابركان بقصد الزيارة اولا ،

والاتجار ثانيا .

وكانت المقهى المشار اليها موضع لقاءات بين كثير من الادباء ، وتراهم فى حلقات، كل حلقة تتحدث فيما بينها . وبطبيعة ذلك العهد ، فلا توجد فتاة ولا امرأة فى المقهى ، كما لا يوجد اى عالم من علماء القرويين يرتاد المقاهى ، فأساتذة الثانويات الفرنسية العربية هم الذين كانوا يبيحون لانفسهم ارتياد المقاهى ، اذ كان الاكل والشرب فى المحلات العمومية يقدح في الشهادة الا من شذ ، والشذوذ دليل على صحة القاعدة وعمومها .

كما كانت المقهى طاهرة من رجس الخمور ، وان كان صاحبها جزائريا «يباح» له بيع الخمور لجنسيته الفرنسية الثانوية تطبيقا فى الجملة.

نعم يلاحظ ـ عادة ـ في المساء وجود نساء متلفعات ، وفتيات كذلك جالسات على زرابى صغيرة خلال مقاعد الحديقة ، او على ارضيتها ، بعيدات عن مجالس الرجال ، وأطفالهن يلعبون على اعينهن من قريب . وكانت الجلابة اذ ذاك قليلة الاستعمال حتى فى وسط الفتيات ، فالحائك القطني هو المستعمل غالبا .

قلت فيما سبق : ان «الالياذة والاوديسا» للشاعر اليونانى «هوميروس» هى التى كانت موضع حيرة فكرى فى مجلة الرسالة .

وذات يوم دخل على حجرتى 21 فى المدرسة العنانية الشريف العدل الفقيه السيد نور الدين بن ادريس بن المختار البوتشيشى القادرى نسبا اليزناسنى الخالدى منشئا . الفاسى استيطانا ، وكان إذ ذاك متزوجا بشريفة علوية يسكن منزل بحومة قصبة النوار .

وقد الف ان يزورنى فى حجرتى من حين لآخر ، وتارة يستدعينى لمنزله. وكان كرمه طبيعيا ، وحلاوة حديثه البرىء تقوى الشهية فى ضيوفه. سبق ان كان طالبا بالقرويين ، ثم ظهر له استيطان «فأس» ثم الزواج . وكان ـ ولا يزال ـ يمارس خطة العدالة بشراكة قرية ابسا أحمد ، يجلس ما شاء الله فيها ثم يرجع الى منزله بفاس. وعرف عنه الخاص والعام باستقامته المتناهية ، سواء فى عزوبته ام فى زواجه. ام فى «عدالته» ام مع الناس ، وقد عود نفسه الابتسام عن القهقهة اذ انه كان يومن بما قرره الفقهاء من كراهية القهقهة . وما قرره الصوفية من حرمتها واجماع اولئك وهؤلاء على انها تقسى القلوب ، وآية قساوتها .

وهو ـ مع ذلك ـ مسرح يداعب اصفياءه فى براءة ، واذا لم يرقه شىء ما ، ربما انفرجت شفتاه عن ابتسامة سخرية فقيه دقيق الفهم ، خبير بالقواعد النحوية ، ذو خط واضح جميل ، ذو عزة تتقاضى السهى ، معتز بنفسه ، ويجده سيدى المختار رئيس المجاهدين في بنى يزناسن في عهد مقاومة الامير ج عبد القادر الجزائرى. وفى عهد الاحتلال الفرنسى لبلادنا وبفضل اخلاص جده في الجهاد ، تأخر احتلال بني يزناسن سنة كاملة بالنسبة لوجدة والدار البيضاء . ولولا ان «اليوطى» جرد عليه جيشا كبيرا لتأخر الاحتلال أكثر من ذلك .

وقد كان السيد نور الدين في صيف تلك السنة 1352 هـ ـ 1932 م يبدو عليه أنه في الاربعين من عمره تزيد أو تنقص قليلا .

نعم حينما دخل علي في حجرتي 21 أعربت له عما يساورني من الحيرة في فهم الالياذة والاوديسا ، وصادف ان كان مساء يوم الاربعاء وهو اليوم الذى اقصد فيه مقهى جنان السبيل الوسطى ، ولذلك استدعيته اليها ليرافقني هنالك ، وبعد ان ابتسم قال : سأحل لك هذه المشكلة في بضع دقائق ، ثم قال : انني لا ارتاد المقاهى كما يجب ان تعلم ذلك أولا محافظة

على أخلاقي ، وثانيا فانني لا اتناول اى مشروب حتى القهوة والشاى ، اذ ان المشروبات المعبأة فى الزجاجات فى المصانع الغربية كانت كلها موضع شبهة لدى الاخلاقيين الورعين ٠

ونزولا عند رغبتى رافقنى ، وأثناء الطريق اوضحت له عادتى فى المقهى من الاستماع الى الاسطوانات التى سلف ذكرها ، فوافق على عادتى وقال : اما أنا فسأقترح «تقسيم عود» من تقاسيم «عبد الوهاب» فكان الامر كذلك ٠

واثر الانتهاء من الاستماع الى كل ذلك قال : هات «دربنى خشبة» فوضع المجلة في يده وقال دون ان ينظر الى المقالة :

«يجب ان تعرف ان الاعتقاد بالله واحد خاص بالانبياء والرسل وأتباعهم الذين «امنوا بنبوتهم ورسالتهم ، وان هناك فترات بين الرسل ينحرف فيها أقوام اولئك الانبياء والرسل ، فتفسد عقيدتهم فينشئون لهم «الهة متعددة يتقربون بها الى الله اى يجعلونها واسطة بينهم وبين الله ٠ هذا حيث البقاع التى عاش فيها الانبياء والرسل ، اما فى بقعة كبقعة اليونان ، فان الالهة اكثر تنوعا لديهم ، اذ ان التاريخ لا زال لم يكشف لنا أن رسولا ما بعث في بلاد أوروبا . فهم احرى بالشرقيين في اتخاذ الالهة والانداد» ٠

«ولقد عاشت اليونان فى حروب طويلة طاحنة ، وجاء شاعرها «هوميروس» يسجل تلك الحروب فى ملحمة سماها : «الالياذة والاوديسا» والملحمة فى الاصل ، اى اللغة هى الواقعة اطلق عليها الملحمة لانها قصيدة طويلة ، ويطلق على هذا النوع من الشعر ، «شعر الملاحم» قلت: وأى علاقة بين هذا الكلام النثرى فى ترجمة هذه الملاحم وبين الشعر ؟ فابتسم أيضا ابتسامة «سخرية» بريئة وقال : ان لكل لغة مقياس شعرها

او بحور شعرها ، فلا تقس مقاييس شعر لغة ما بمقياس الشعر العربي.
سألته : وأي فائدة في قراءة هذه الملحمة ؟ فأجاب :

ان فيها ثروة عربية غزيرة ، وفيها معانى كثيرة ، فاذا ما درستها حق الدراسة فستقوم لسانك للتعبير عن خواطرك وخواطر غيرك. وأشياء كثيرة من شؤون الحياة .

فاللغة والمعانى والاسلوب ، كل ذلك سوف لا يوحى اليك به: فعليك أن تواظب على قراءة مثلها لتكتسب قوة التعبير عما تهدف اليه من المعانى فالمعجمات يرجع اليها عند الحاجة ، ولا يتعلم منها. وانما تساعد فقط من يحاول التمرن على التعبير بلغة ما .

كان السيد نور الدين يشرح لى كل ذلك بأسلوب ممتع سهل الفهم لا غموض فيه ولا التواء ، ولا تقعر ، فالرجل دقيق الفهم والتفهم والافهام يجعل سامعه ياخذ عنه فى سهولة ويسر .

ثم شكرته على هذه الافادات القيمة ، وكان وقت صلاة المغرب قد حان ، وأنا «حزاب» بمسجد بدرب بوحاج بالطالعة الكبرى ، وهو من المحافظين على اداء الصلوات فى اوقاتها ، فغادرنا المقهى الى حيث ذهب كل منا الى المسجد الذى تعود ان يؤدى فيه الصلاة ..

ومن ذلك العهد ، لم تبق لي مشكلة أو حيرة أثناء قراءتي لمجلة رسالة الزيات التى كانت ملتقى اقطاب الادب العربى ، وغذاء فكريا فى المستوى العالى يتهافت عليه العلماء بله الطلبة تهافت الفراش على النور.

فرحم الله الاستاذ الزيات ورحم كتاب الرسالة المسلمين الذين امدوا اللغة العربية بما وفر الله لهم من ثقافة عالية ومواهب فطرية .

بين سوقي الحائك والصباط (21)

لقد سبقني والدى رضى الله عنه الى الرحلة الى فاس بقصد الاتجار بست سنوات تقريبا ، ولكنه لم يتعرف الا على عوائد قليلة جدا من عوائد اهل فاس ، وبالضبط عرف شيئا منها فى سوقى الحائك والصباط .

ولما رحلت الى فاس لطلب العلم ، أخذ يزورنى فى حجرتى رقم 21 بالمدرسة العنانية ، ويستغل هذه الزيارة فيشترى طائفة من المواد التجارية ليصحبها معه الى ابركان .

ولعل أول زيارة قام بها الي كانت أثناء صفر الخير عام 1352 هـ الموافق لشهر يونيو سنة 1932 م وأول ما لاحظه على ان قال لى : لقد رجعت «غربي» ياولدى ، قلت : لماذا ؟ فقال : اختصار فى الكلام مع الافادة التامة ، واستعمال كثير من الكلمات التى لا تستعملها فى ابركان ، فقلت له هو ذلك تماما. نحن فى شرق المغرب : كلام كثير ، وفوائد قليلة ، وعدم التدقيق فى التعبير ، وانفعال ملاحظ اثناء الحديث ، وقلما كان وجهنا مشرقا اثناء التخاطب ، فنحن نتحدث في عبوس ، باستثناء شرفاء اولاد مولاى احمد بن العياشى. وشرفاء اولاد سيدى رمضان، وانني يا والدى ــ معجب بحلاوة حديث أهل فاس ، اداء للمعانى فى كلام مختصر واشارات تغنى عن الكلام ، وابتسامات مشرقة ، ومرونة فى مخالطة الناس واحترام متناه متبادل فيما بينهم ، وتسامح مع غيرهم ، أما ما يقال عن «الخداع» الذى يكمن وراء هذه الاداب ، فانه مبالغ فيه ، فالتجارة مبنية عندهم على المكايسة ، وهم حقا يطلبون الاثمنة المرتفعة فى الاثواب القطنية والصوفية ، والشؤون الجلدية ولكن عندهم عرفا ما اكرمه وأحلاه فاذا قال لك الفاسى : اشتر منى بالربح اى ان تعطيه قدرا زائدا على رأس ماله ، يخبرك بعد الاتفاق برأس ماله ، كان تتفقا مثلا على فرنكين

ربحا فى البلغة فيقول لك : لقد اشتريتها بخمس فرنكات فتعطيه سبع فرنكات ، فانهم لا يكذبون فى ذلك ، وكثيرا ما يقولون لك بهذا الصدد «أحل الله البيع وحرم الربا».

ومن اعرافهم المحمودة ، أن توصى تاجرا بشراء مائة بلغة مثلا من النوع الذى تصفه له. وتعطيه قدرا من المال على ان ياخذ 25 سنتيما فى كل بلغة فلك ان تتفق معه على ذلك وتذهب لقضاء مئاربك ، وحينما ترجع اليه تجده قد اشترى لك المبلغ الموصى به، ولا يخدعك حتى فى سنتيم واحد.

ومن أعرافهم التى طالما ضحوا لاجلها لدى الذين يستغلونها : انك ترقبه لدى فتح دكانه فى الصباح ، وتعطيه ثمنا ما ، فى حاجة ما ، جلباب او بلغة ، فانه اذا يئس من الزيادة منك يبيعها لك ولو خسر فيها ، فان البيع الاول فى الصبح لا يرد ولو بخسارة .

ثم يمكنك اذا تعرفت على تاجر فى القسايرية ان ترسل اليه رسالة تطلب فيها منه ثيابا صوفية او قطنية مثلا ، فانه يشتريها لك بكل اخلاص وامان ، ولا يأخذ الا واجبه الذى يأخذه كما لو كنت حاضرا معه وما يكلفه الحمل والارسال من نفقة ، ويرسل اليك اللائحة مضبوطة .

ومما لفت نظرى – يا والدى – فى البقالين ، انك اذا طلبت من احدهم شيئا مثلا ، فان يزنه لك بدون كاغد ، ولاينقص حتى السانتيمات ثم يتصدق عليك بالكاغد ، وكذلك المواد الاخرى .

ان هذا لشيء عجاب لا عهد لنا به فى شرق المغرب .

فابتسم والدى وقال فى دعابة : لقد سحرك «لغرابة» ياولدى ، قلت معاذ الله ، ولكنهم حقا يمثلون كثيرا من الحياة العربية الصرفة ، فانا معجب بكثير من أخلاقهم وتصرفاتهم .

ثم قلت لوالدى : والان : مارأيك ؟ هل تفوض لاحد التجار فى سوق الحائك والثانى في سوق الصباط ، وهذه طريقة مامونة ؟

أم تحضر بنفسك وقت «الدلالة» ويمكنك ان تجلس مع احدهما فى دكانه ويشترى لك الجميع والحقوق الواجبة عليك ازاء التاجر المساعد هى.. هى ، سواء حضرت ام لم تحضر.

وعدم حضورك يوفر لك الوقت لشراء ما عدا الجلابة والبلغة .

فاجابنى : أحضر لاجرب ما تقول ، ثم يمكن لى ان افوض بعد ذلك اذا تيقنت بسلامة التجربة ، ويمكننى بعد ذلك ان اكتفى بالمراسلة متى تيقنت بذلك عن كثب.

كان من عادته ان يشرع فى عمله التجارى يوم الخميس : وبطبيعة العرف ، فان «الدلالة» تكون في المساء دائما ، وبعد صلاة العصر.

وفعلا تيقن بكل ما اخبرته به ، بقيت علينا مشكلة الحمل الى الحجرة التى كان عادة يكتريها فى «فندق» بالطالعة الكبرى وقرب المدرسة العنانية وحيث ان البلغة فى حاجة الى ان تعرض للهواء ، والشمس ، فان حارس «الفندق» هو المكلف بذلك ، وكنت قد زكيت لوالدى حارس الفندق ، ووثق بى ، لانه رضى الله عنه كانت له بى ثقة عمياء ولا يزال على ذلك والحمد لله .

حينما وصلنا الى قضية الحمل الى الفندق ، قلت لوالدى : ان هذه المهمة نتركها لصاحبنا التاجر ليقوم بها ، ولكنه قال : ومن يدرينا ، ان «الحمال» سيسرق من السلعة بعضا منها ؟ فابتسمت قائلا : مستحيل ذلك يا والدى .

ان قضية «الحمالين» منظمة تنظيما متقنا ، فلهم امين يضمن حقوقهم وواجباتهم ، ولن يستطيع احد ان يمارس هذه المهنة دون ان يتحقق الامين من صدقه وأمانته .

وياويل من يحيد عن السبيل السوى ·

فابتسم رضى الله عنه وقال : لقد سحرك المغاربة ، فأنت تثق بهم كل الثقة ·

فقلت : لا ·· يا والدى ، اننى وان كنت طالبا ، ولكننى سوف بدراسة الاوضاع الاجتماعية والاخلاقية هنا فى فاس ، فثقتى مبنية على دراسة عن كثب ، فدقة التنظيم المهنى هنا قد بلغت منتهاها ، وستتحقق فى المستقبل القريب بكل ما اخبرك به·فانا والله ما احدث الا عن توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا بقوله : «اعقلها وتوكل» فالثقة بدون أساس شرعى ، لا يطلق عليها وصف الثقة ، ولكن يطلق عليها : البله·· البلادة ·· الجهل ·· الغرور الخ ·

فسألنى والدى رضى الله عنه : ما سبب اشتغالك بمثل هذه الدراسة الاجتماعية ، وأنا ارسلتك الى القرويين لتدرس العلوم ؟

فأجبته ، أولا «الذنب ذنبك» فلقد اشركتنى فى ادارة تجارتك منذ الطفولة، في حين انه كان ينبغي على حد رأيك هنا : ان اشتغل بحفظ القرآن فقط

ثانيا : أي قيمة للعلم اذا كان صاحبه بليدا ، ، مغفلا ، غريرا ، ابله بحفظ كتاب الله الكريم ·

على ان من شأن العلم ان يقوم من الانسان عقله ، واخلاقه ، وشؤون دينه ، وشؤون دنياه ، فاذا لم يؤثر العلم على الانسان فى هذه الميادين فاى فائدة فيه ؟

وثالثا : اننى احس برغبة قوية فى نفسى ان اعيش كتاجر ، او كفلاح بعد الدراسة ، حتى يمكن لى ان اجمع بين العلم و«الرجولة»·

اننى لا اريد ان اصير عالما وعالة على المجتمع كما لاحظت كثيرا من «العلماء» فلقد تخلوا عن رجولتهم وتلهوا بتقبيل العامة ايديهم ، والانحناءات لهم ، مع تقديم الصدقات والزكوات واستضافتهم من حين لآخر فيقضون حياتهم اذلاء للعامة ، وان كان هؤلاء يقبلون ايديهم الخ. ولكن اليد العليا خير من اليد السفلى. وهذا ما يغفل عنه اولئك «العلماء» المشار اليهم .

ولا اخفى عليك اننى «مغرم» جدا بسيرة شيخى المرحوم سيدى على ابن العروسى الذى كان اول شيخ لى في الدراسة في جامع سيدى موسى بقسم بنى منقوش قرب «الطرشة» .

فلقد حدث ان كنت بقرب منه وهو يدرس بدوابه. وطلب منه احد العامة ان يساعده قائلا : نحن العامة اولى بهذا العمل منكم معشر العلماء ، فأجابه شيخنا : لست من اولئك العلماء الكسالى الذين عهدتهم ، فانا عالم ورجل ، ثم صاح : ياعبدالكريم «يعنى ولده» قدم «لخالك فلان» طعاما وشايا وهكذا رفض معونته اعتزازا برجولته .

هذه هي العالمية والرجولة يا ولدي لا جعلني الله موضع صدقات وزكوات العامة ، فان فيها ضياع كل رجولة الانسان وعزته ، وأى قيمة للحياة بدون عزة ؟

فابتسم والدى رضى الله عنه وقال : ان شاء الله ، قالها ببرودة وارضاء لى فقط ، لانه كان يامل ان اصبح قاضيا ، وقاضيا نزيها ، محبة منه في السلطة الشريفة التى تضفى على الانسان المهابة ، وتضمن له الاحترام ، ثم انه كان يعانى الامرين فى الدفاع عن بعض اراضيه لدى المحاكم الشرعية ، فأراد لى ان اكون حاكما لا مترافعا ، ثم ان «شيخه الروحى» السيد محمد بن سليمان صاحب زاوية بندرومة ، كان يوصى

مريديه بممارسة السلطة اى سلطة مهما ضعفت ، لانه كـان يحب لهـم ان يكونوا أقوياء ، ويجدوا القوة في السلطة ليمكن لمن تقلد منهم شيئا ان يدافع عن اخيه المريد ، اى اخيه فى الشيخ .

وكان والدى يؤمن كل الايمان «بولاية هذا الشيخ الروحى» لذلك جاملته بعدم التعليق على «برودته» كما جاملنى بعدم التعليق على رأيى فى مستقبل حياتى ، فتقارضنا المجاملة.

نعم كان والدى رضى الله عنه يزورنى عادة مساء يوم الاربعاء من حين لآخر ، ويرجع الى ابركان مساء الاحد.. لذلك ذهبت مساء ذلك اليوم الى «الملاح» لآخذ له مقعدا فى حافلة «الكاطوطة» بـ 12 فرنك الى وجده ، وكنت آخذه له من بعد ، بسبع فرنكات مع واجب حمل السلعة ، التى كان صاحب الكاطوطة اليهودى لا يستخلص منه واجب 80 كيلو ، والباقى يؤدى والدي عليه واجب الحمل الى وجدة وكان ثمنا زهيدا .

وهكذا سنـة والدى مع كامل مدة اقامتـى فى فـاس. وبمجرد مـا انقطعت عن الدراسة سنة 1936 انقطع عن زيارة فاس نهائيا الى الان حيث يبلغ 91 عاما من عمره. ويكتفى بشراء ما يتجر فيه من وجدة.

مع شيخنا العلامة سيدى العربـى الشامـى (22)

العلامة سيدى العربى الشامي صهر شيخنا المرحوم سيدـى عبـد الرحمن الشفشاونى ، كان تاريخ التفقه به فى فصل شتاء عام 1352 الموافق 1932 م

كان قد تخرج من القرويين حديثا ، ولما يزل فى قوة شبابه وان كان التحاؤه ولباسه الوطنى يمثله كهلا ، ولكن الذى يتامله شيئا ما ، يتحقق لديه انه في عهد قوة شبابه اذ ذاك .

ولقد كان على الرغم من ذلك في وقار الشيوخ الاجلاء وهيبتهم . فحافظ على سمت العالمية السلفية ، ما رايته لابسا جلبابه دون برنوصه وكعادة خلق اهل فاس مع علمائهم.

ترى الطلبة والعامة يحيونه اثناء مروره بأى مكان ، ويسلمون عليه ويقبلون طرفا من برنوسه اكبارا لشان العلم والعلماء ، ويرد التحية بمثلها وأحسن منها في ابتسامة كريمة ، وانطلاق وجه مشرق بماء المروءة والخجل ولا يتلفت يمنه ولايسره ، واذا سئل عن حاله اجاب باقتضاب وليس ذلك منه استعلاء وكبرا ، ولكنه محافظة على وقار العلم وكرامته.

اذ ان علماءنا اذ ذاك ، كانوا يرون انفسهم مرجع العامة في شؤون الدين ، ومرجع الطلبة في تنوير افكارهم من جهة ، وأسوة للجميع في تطبيق التعاليم الاسلامية ، ونرجو ان يستمر على هذا الحال .

ولم يكن شيخنا هذا رضى الله عنه اذ ذاك ملحقا «رسميا» بكلية القرويين ، ولكن كعادة كل متخرج كان يقوم باعطاء دروس متنوعة لمن يطلبها منه من الطلبة مجانا كما هى العادة اذ ذاك.

وكان الباعث على ذلك اولا : التعاليم الاسلامية الآمرة بنشر علوم الشريعة ووسائل فهمها بين ابناء المسلمين ، حيث ان العلماء ورثة الانبياء وعلى الورثة ان يحسنوا القيام بتادية رسالتهم الاسلامية تعليما وأسوة .

ثانيا :فان تعاطى التعليم من شأنه تنمية معلوماتهم والتذكير بما ماربسوه من علوم ، لان العلوم تنمو بقدر انفاقها ، «فزكاتها» في نشرها بين عامة المسلمين وخاصتهم .

ثالثا : فان المجلس العلمي كان يوصي المتخرجين بنشر علومهم لله ، ويوصيهم بالتقوى دينا ودنيا ، ومن ذا الذى لم يكن يعتبر من المتخرجين ان وصية علماء المجلس العلمي بمنزلة الامر الصارم. ومن

يستطيع من المتخرجين ان يعصى اوامر شيوخه التى هى من صميم تعاليم الاسلام ؟

رابعا : فان كل متخرج كان عليه ان يستعد دائما للقيام مقام العالم المدرس «رسميا» فى كلية القرويين متى تخلف لعذر ما ، لذلك عليه ان يواصل التدريس تطوعا اعدادا لنفسه لاداء تلك المهمة متى كلف بها.

خامسا : فان «الاوقاف» كانت تخصص صلة رمزية مادية سنوية او شهرية لكل متخرج ، ويشعر العالم ازاء هذه «الصلة» بأنه ان لم يقم بدروس تطوعية ، فانما ياكل السحت ، او ياكل «أموال» الاوقاف الاسلامية بدون عمل .

وهكذا اتصلت به مع صديقى المرحوم السيد ادريس بن الفقيه الولى الصالح السيد عبد القادر الاعرج البرحيلى اليزناسنى ، فطلبنا منه اعطاء دروس لنا فى جامع الرصيف ، فدرسنا عليه : متن الاستعارة للشيخ الطيب . والورقات لامام الحرمين ، والسنوسية فى العقائد ، ومنظومة الزقاق ، والمنطق بالقويسينى ، كل ذلك كان فى مدة سنتين اثنتين .

وكان رضى الله عنه ، وأمد فى عمره — لايتخلف عن هذه الدروس التى ياتيها من حى «المخفية» حتى حينما يكون المطر نازلا بشدة ومرفوقا بالاعصار ، وكان له «برنوص مشمع» يرتديه في ايام المطر .

ودرسنا عليه — نحن الاثنين فقط — ولم تهن عزيمته اصلا ، وليس ازاءه عدانا نحن الاثنين ، ومن خلال اسلوب دروسه هذه ، تبين لنا انه يشبه شيخه المرحوم مولاى عبد الله الفضيلى في صوته الجهورى المتحمس ويشبه صهره شيخنا المرحوم العلامة السيد عبد الرحمان الشفشاونى فى قوة ذاكرته ، ودقة فهمه ، وعجيب افهامه .

ومما اذكر له الآن ، اننى ورفيقى ادريس كنا نملك فقط شرح العلامة الوازنى على استعارة الشيخ الطيب ، وهو شرح بسيط ، وكان استاذنا هذا يملى علينا اشياء كثيرة فى الموضوع ، ولكننا لا نجد لها أثرا فى الشرح الذى بأيدينا ، وقد ضقنا بذلك ذرعا ، لاننا كنا مغرمين بالدراسة العميقة .

وذات مساء كنت اتحدث الى المرحوم الفقيه السيد محمد بن الاخضر اليزناسنى الميمونى فى الموضوع فقال ـ وهو يبتسم ـ : لعل استاذكم يستعين فى درسه بحاشية سيدى احمد بن الخياط رحمه الله. وعندى منها نسخة ، هل تشتريها منى ؟ فقلت : نعم ، ولكن الى اجل. فكم ثمنها ؟ فقال : 12 فرنك ، فقلت : اننى لا املك نقد الثمن ، فقال : خذها بأجل ، فسلمها الى عاجلا .

وأول عمل قمت به ، اننى بادرت الى مراجعة ما مضى من دروس فشعرت بأن استاذنا يراجع الحاشية مع المراجع الاخرى بطبيعة الحال .

وفى تلك الليلة «طالعت» درسى بالحاشية حتى كدت احفظ ما يتعلق بالدرس من الحاشية ، ولما جلسنا الى الدرس ، اظهرت فوق المحفظة شرح السيد الوزانى وأخفيت الحاشية ، ثم اخذت اتابعه فى بعض فقراته اواتممها .

ولما رآنى على هذا الحال سألنى : هل تملك حاشية ابن الخياط ؟ فقلت نعم . فابتسم رضى الله عنه وقال : حسن ، وبدت على وجهه «ايات السرور .

ذلك أن شيوخنا اذ ذاك ، كانوا يفتخرون بأنهم يلقون دروسهم على طلبة «حازمين اذكياء» .

www. beni2naseen. com

ولما ختمنا الاستعارة قال لنا : انتم في غنى عن اعادتها على شيخ اخر ، فاشتغلوا بعد هذه بدراسة : «الجوهر الكنون او السعد» لتوسعوا معلوماتكم .

وهكذا كنا ندرس على استاذنا الخالد الذكر السيد مولاى ارشيد بن العلامة سيدى مولاى على الدرقاوى «الجوهر المكنون» ثم «تلخيص السعد» بعد ما كنا ندرس عليه ألفية ابن مالك بابن عقيل ، وكان مسك ختام دروسنا على شيخنا العلامة سيدى العربى الشامى : ان اقمنا مادبة غداء طلابية فى بيت صديقى المرحوم ادريس البرحيلى رقم 25 بالمدرسة العنانية وكان استاذنا مولاى ارشيد الدرقاوى هو ثانى سيدى العربى الشامى فيها اطال الله حياتهما فى أمن وعافية «امين .

مع ضيوف المدرسة (23)

عندما منحنا نحن الطلبة الواردين على فاس من مختلف الجهات رخصة ثلاث سنوات ، ثم علينا : اما ان نقبل النظام ، واما ان نغادر حجراتنا من المدرسة ، ونحرم من الخبزة والضوء ، اذن ثلاث سنوات قليلة بالنسبة لامثالنا الجدد. اما القدماء فمنهم من يمكنه اتمام ما اراده من دراسة ، وينطلق الى ناحيته ، وبدون اجازة ، ومنهم من يمكنه ان يهيء نفسه لامتحان الدخول الى قسم محترم ، ليتمم دروسه حتى يحصل على الشهادة العالمية .

وكانت نيتى ان اعد نفسى لهذه الاخيرة .

لذلك كنت ادرس بكيفية مخالفة للعادة ، وفوق الطاقة ، حتى انني كنت احضر احد عشر درسا فى اليوم ، ما بين الدروس النظامية ، والتى أتلقاها خارج أوقات النظام .

وبطبيعة الحال فان هذه الطريق التي سلكتها والتزمت بها ، تحول دون استقبال أي ضيف في المدرسة .

ومن الضيوف من كان يقيم الاسبوع كله معنا في البيت ، ياكل وينام ، ويشتهي الحديث كثيرا معنا ، ولا يشعر بأننا في حاجة الى الوقت لنراجع دروسنا ونحفظ ما يجب حفظه ثم انه يقتسم معنا فراشنا المتواضع ونحن مرغمون على مجاملته في الغالب ، ولا نستسمحه لمراجعة دروسنا الا حالما يطيل المقام .

وما شاننا وماشان هؤلاء الضيوف ؟

انهم من شرق المغرب بالنسبة لنا ، ولنا معهم صلات متنوعة وهم يعتقدون ان زيارتهم لنا ، نستفيد منها ماديا حيث «يتفضلون» علينا بفرنكات لا تفي بالنفقة عليهم ، وتارة «يتفضلون» فيشترون اللحم والخبز وعلينا الباقي .

أما أهدافهم الحقيقية عن شعور ، او بدون شعور - فانهم يترفقون بنا وقت الحاجة لاعداد الاكل وفراش النوم ، وفي النهار يطوفون الاسواق للاتجار !

ويجب علينا بطبيعة «التقصيرة» او السهر معهم ، ان تستمع الى كل ما جرى لهم في كامل اليوم في الاسواق، الا مايخص ارباحهم وفرصهم التجارية ، فاننا لا نسمع عن ذلك شيئا ! ولا نسمع الا ما يزعمونه من أحاديث الغش ، والخديعة والمكر وما الى ذلك ، حتى كأن الاسواق ليس فيها من ليس له ضمير ، فالكل يخادع ويماكر .

واذا ما ذهب احدهم الى حمة مولاي يعقوب ، لابد ان تسمع له وهو يحدثك بالشاذة والفاذة ويبدأ من فاس ذهابا ، ومن مولاي يعقوب ايابا . ولا يخبرنا الا بما نعرفه نحن من طبيعة الزيارة الى مولاي يعقوب .

وهى انه فى الساحة المواجهة لثانوية مولاى ادريس شرقا ، ولباب محروق غربا ، يوجد نوعان من المراكب الى مولاى يعقوب ؛ الحافلة الكبرى بفرنك ونصف والصغرى بفرنكين ونصف ، وفائدة الصغرى أنها تمتلىء من الزوار في لحظات سريعة الانطلاق مع الرفاهية وركباتها نظيفون في اغلب الاحيان ..

وعلى العكس من ذلك تكون الحافلة الكبرى .

حتى اذا وصل الانسان الى حيث تقف الكبرى والصغرى ، انحدر الى الحمة واثناء انحداره يسمع ، هل انت فى حاجة الى بيت ؟ البيت مفروشة بفراش نقى - الماء متوفر - ادوات الطبخ نظيفة متوفرة الخادمة موجودة الثمن رخيص ، تعال .. تعال ..

وعندما يقع إختيارك على حجرة فى المنزل ، فانت مخير ان تباشر طهى طعامك بيدك ، او ان تكلف خادمة بذلك وتهىء لك طعامك كما يسر الله لها من طهى .

ثم لك أن تقصد المسبح وثمنه زهيد ، أو حجرات الاستحمام ، وكانت بفرنك واحد .

وليس لك اى مكان للتجول وتمتيع النظر .

فانت إما فى الحجرة او فى السوق لقضاء مناربك او في الحمام .

وما دام المقصود من هذه الزيارة هو العلاج من الامراض الجلدية بالاغتسال بالماء الكبريتى فلا يتشوف النظر الى غير ذلك .

وفي هذا الوقت 1933 لم تكن هناك انارة كهربائية ، فالانارة بالشمع او الكربول «زد أسيدى مولاى يعقوب ، زد» والناس يرددون ذلك فى شبه اغنية .

www. beni2naseen. com

«ومن الناس» من كان يقصده مرفوقا بامراة غير شرعية ، فتمر الليلة او الليالى وكانها فى علب الليل .

و«منهن» من كن يقصدن بهذه الزيارات الاتصال «بهم» وبكيفية لا تعوم حولها التهمة فتكترى احداهن حجرة ، وتصيد واحدا «منهم» اما فى المنزل ، واما خارج المنزل وياما اكثر الغرباء من هذا الصنف رجالا ونساء.

ومع ذلك ، فالكل «ينوى» زيارة مولاى يعقوب للعلاج والتبرك !

نعم عندما يرجع الضيف يخبرنا بشبه هذه الاخبار ، ونسمعها منه ومن الف من امثاله ولا يكتم منها الا ما كان من «العار» ان كان من الغرباء الصيادين .

وقد دأبنا على الا نسأل تفسيرا ، ولا ايضاحا حتى لا نتحرج مع اى أحد صيانة لكرامة الطالب الذى كان لا يألو جهدا فى المحافظة على مظاهره على الاقل .

ولم يكن حرص الطالب على كرامته فى الظاهر على الاقل ازاء خصوص الضيوف ، ولكن حتى ازاء الطلبة عدا خواصه .

ومن نوادر الضيوف : ان ضيفا كان عند جارى ادريس البرحيلى رحمهم الله جميعا وكان الفصل فصل شتاء ، فالليل طويل ، والضيف يريد ان يسافر الى وجدة على الساعة الثانية عشرة وهذا من شأنه ان يضايق الاخ ادريس فى مراجعته ونومه ، والضيف كثير الشخير ، فشكا الى من هذه الحال ، فقلت له : كل الامر الى ، فقال : فعلت ، قلت اجلس فى بيتي وراجع دروسك .

وتوجهت الى بيته وزدت فى عقرب الساعة المنبهة ساعتين ، كما زدت فى ساعتى كذلك ..

ولم تصل العاشرة في الحقيقة حتى كانت «الساعة المزورة» على الثانية عشرة ليلا فنهض الضيف على ناقوس الساعة المنبهة ، فوجد الثانية عشرة ، وجاء الينا يطلب منا ان نرافقه الى الملاح حيث يقل «الساتيام» .

وفعلا تركناه في الملاح ورجعنا ، ثم ارجعت عقربي الساعتين وقضى الامر . وبذلك تخلصنا منه .

وهكذا كنا نتخلص من الضيوف بمختلف الوسائل ليمكن لنا ان نستفيد من مهمة ثلاث سنوات اقصى ما يمكن الاستفادة .

وضيوفنا لا يشعرون بأننا كنا نتضايق منهم خوفا من ضياع الوقت.

نعم ان منهم من كان خفيف الروح ، فلا يمكث الا قليلا ، مع كونه من أصدقائنا او من طبقتنا ، فلا نتحرج بوجوده بيننا .

ولماذا كل هذه الحلقة من اجل الضيوف ؟

ذلك لننبه طلابنا اليوم الى ما هم فيه من النعم التي لم نكن نحلم بها نحن في ذلك العهد .

ومع ذلك ، فما اسعد ذلك العهد الطلابي على الخصوص ، فكم كنا نعيش اجواء من الاحترام المتبادل ، والمحبة الصادقة والوفاء التام.

وبذل يسهل علينا ان نفتح افكارنا ، وصدورنا لداع الوطن . فكنا دعاة له غير مبالين بأي تضحية كيفما كانت .

والفضل كله يرجع الى اجواء الاحترام والوقار التي كانت تسود جامعة القرويين التي كانت مشعلا للمعارف والتكوين الاسلامي بصفة عملية .

وكفى الطالب تكوينا تربويا في ذلك العهد ، انك لا تجد واحدا منهم يقول : إن رأيي في هذه القضية كذا وكذا ..

فلا يقول قولا الا والنص العلمي يؤيده ، لاننا لم نكن نفهم الاراء الخاصة في العلوم جاءة لاى احد كان ، بل هي خاصة بالمجتهدين الذين استقصوا النصوص العلمية فاخذوا يجتهدون فيما لا نص فيه ، او قياس.

اما الاجتهاد بدون علم ، فكنا نعده هوى وضلالا وجهلا، ولا ينبغي ان يجارى صاحبه فيه .. ما ابعد الامس عن اليوم.. «ولله عاقبة الامور»

مع المرحوم ادريس البرحلي (24)

I ـ الطالب السيد ادريس بن عبد القادر اليزناسني البرجيلي ، تاريخ ولادته يقارب تاريخ ولادتي ما بين 1910/12 . اول تعرفي عليه في مسجد جماعة «حركات» من بني وريمش الجنوبيين ، ملحقة تافوغالت ، كان ذلك حوالي سنة 1929 .

فمسجد «حركات» ، كان يؤمه الطلبة من شتى قبائل بني يزناسن لاجادة كتاب الله على اكبر الفقهاء المقرئين «ورش فقط» مع التوحيد والفقه والتصوف والنحو بابن عاشر ، والاجرومية ، وذلك خاص بالذين يحفظون كتاب الله العزيز.

وكن أستاذنا في ذلك العهد هو الولي الصالح السيد عبد السلام ابن البقال من نفس الجماعة ، وكان غذاؤنا على الجماعة كلها. نتناوب على جمعه بعد صلاة العصر ، وبعد قراءة الحزب عقب صلاة المغرب كل يوم .

فالاول نجمع فيه الدقيق من المنازل من أجل خبز الفطور والغذاء والثاني نجمع فيه انواع الطعام في «انية واحدة «يسمى المخلوط» بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة ، وهو كاسمه خليط من الكسكس وانواع المطبوخات ، ثم نضعه في قصعة واحدة وناكله وننام فقط على حصير

المسجد ونتوسد عادة – حجارة «حتى لا ننام كثيرا ، اذ أننا نستيقظ باكرا لتكرار واستظهار القرآن ، ومنا من كان يختم الختمة في ليلة واحدة .

ومن أكبر المحسنين الينا في تلك الجماعة : « حركات » المرحومان : المقدم محمد بن عبد الله الخشانى «بشد الشين المعجمة ، وأخوه عبد القادر . ففى كل مساء الخميس ، خبزة كبيرة وسكر وشاى وشمعة ، وروى الطلبة الذين سبقونا الى هذا المسجد انهم فى احدى الليالى وكانت ليلة الجمعة باتوا جوعا ، وعند منتصف الليل قرأوا : «وعنده مفاتح الغيب» من سورة المائدة . وطلبوا من الله ان يطعمهم ، بعد ان وهبوا أجر قراءة ما ذكر للشيخ عبد القادر الجيلالى؟ وان المقدم محمد بن عبد الله المذكور كان نائما فرأى انسانا ما في منامه يقول له : قم لتطعم الطلبة انهم باتوا جوعا ، ورأى ذلك عدة مرات يقال انها ثلاث ، فقام من نومه وهيأ خبزة وارفقها بسكر وشاى وشمعة وتوجه الى المسجد والطلبة واقفون داخل المسجد فى ظلام وهم يقرأون القرآن ويدعون الله ان يطعمهم ، حتى دخل عليهم في تلك الحال المقدم المذكور ، فدعوا الله له وألزموه بشرب الشاى معهم ومنذ ذلك الحين اصبحت له عادة في مسا كل خميس ، وقد كان فقيرا فأغناه الله الغنى الذى ضاعف من كرمه وايمانه وتقواه ، عليه رحمات الله ، وزيادة على تلك العادة ، وزيادة على احسانه المتواصل من حين لآخر ، كان هو وأخوه عبد القادر يستدعيان الطلبة من جهات مختلفة زيادة علينا وعلى طلبة «الجماعة» فيطعمنا هو وأخوه يومين متواليين لختم ست ختمات من كتاب الله ما بينهما ووالديهما ووزوجيهما اى ختمة لكل واحد من الستة سنويا ، وينوب الواحد منا عشرون فرنكا وتزيد فى بعض الاحيان ، ومعنى هذه النقود ثمن كبشين يساويان الان اربعين الف فرنك او تزيد . وكانا بقدر ما يواصلان هذا الاحسان يضاعف الله لهم النعم .

www. beniznassen. com

على ان كثيرين من المحسنين كانوا يطعموننا في منازلهم ونختم الختمة باكرام يصل الى عشر فرنكات لكل واحد من الطلبة ، ومن هؤلاء الفقير بوشته الذى كان يتجر فى الزيت ، والمصطفى وعبد السلام ابنا القائد الحاج مبارك على فقرهما ، اى هذين الاثنين ، والمقدم صالح الخرخشى الذى جند جميع مريديه ومريداته للكفاح الوطنى بعد ، والسيد عبد القادر الماحى الخرخشى الذى صار خليفة للقائد المنصورى ما يقرب من عشرين سنة فى ابركان ، والسيد محمد بن ادريس الذى قتلته سيارة الساتيام رحمه الله والحاج محمادى بن شعو الرسلانى وامبارك ابن عمه والمقدم المصطفى «وسار» بفتح الواو وشد السين المهملة ، وكان له متجر فى الجماعة كثيرا ما تتولاه زوجته فاطمة اخت المرحوم السيد سليمان الاريحي العظيم ، على ما كان به من فقر واضح والفقيه السيد محمد «وسار» على ما كان به من فقر مدقع . فهذا متى رأى الطلبة لاشيء لديهم من الخبز الا وءاثرهم بخبزة على نفسه وعياله . وكذلك شيخنا السيد عبد السلام بن احمد البقال ، ثم الفقير على والد السيد عبد القادر بن الماحى المذكور مع توسطه في الغنى . ثم احد الفقهاء من شرفاء لمزارعة ، يسمى السيد محيى الدين الذى صار بعد من خيرة الاستقلاليين ثم الفقير عبد القادر من دوار «بردیل» .

وبالجملة فان «جماعة حركات» مثال للكرم والتقوى ، فاللهم بارك في ذريتهم الى يوم الدين .

فى هذه الجماعة المباركة تعرفت على الاخ المرحوم المترجم وفرقة البرحليين من جماعة أولاد موسى وامحمد من بني منقوش ، ومنهم المجاهد الشهيد الفقيه السيد ج محمد الذى ربط نفسه وولديه مع شجرة بحبل وأخذوا يجاهدون جيش الغزو الفرنسي بعد سنة 1907 حتى استشهدوا جميعا فاللهم اجعلهم مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين .

وعرفت المترجم من ذلك التاريخ ، يطبع أخلاقه الخجل ومنتهى المروءة ، على حدة كانت في طبعه ، وسرعة رجوع الى من كان له معه سوء تفاهم ، وكان من عادته حمل تمائم قرءانية «منحسة» للحفظ والوقاية تنفيذا لامر والده الذى تعرفت عليه فيما بعد . وكان اعرج ، مشهورا بتقوى الله كأخيه الحاج التهامى الولى الصالح والد صديقنا القائد السيد عبد الكريم . وكان ج التهامى هذا اشهر منه في التقوى وأجاد عليه كتاب الله بنوه الخمسة : عبد الله واحمد ومحمد الكبير ومحمد الصغير وعبد الكريم المذكور ، وعشرات من الطلبة غيرهم .

وحينما التحقت بمعهد وجدة في صيف 1930 التحق هو كذلك بالمعهد لفترة قصيرة ـ وكان يقيم عند شقيقه الفقيه المقرىء السيد محمد بن عبد القادر الذى ما رأيته اكثر من مبتسم قليلا. والذى كان مضرب المثل في الهيبة وتقوى الله .

وعرفت الاخ ادريس المترجم متطرفا في النظافة وتحرى الكلمة الطيبة لا يستطيع ان يخرج غيرها من بين شفتيه ، فلسانه اطهر من الزهور والورود . واذا ما كان جالسا في مجلس وسمع لغوا فارق المجلس ، وعلى فتوته كان مطرق الرأس جيئة وذهابا الى الدروس ، وكان أفدم شيئا ما ، فاذا ابتسم وضع كفه على فمه ، اعين كث اللحية والعارضين ـ سريع الخطو ـ لا ينظر يمنة ويسرة الا قليلا ، صادق الخبر ، مقتصدا في الكلام ، طيب السريرة بسيطا في شؤون الحياة لا يعرف المعاكسة ، يكره الجدال غير العلمى. وجه مشرق مبتسم دائما الا اذا رأى او سمع ما يكرهه دينيا ، فانه يعبس الى منتهى العبوس ، وتراه يرتجف غضبا للمنكرات ، كريما من غير من. قليل المخالطة جدا.

وفي شهر شعبان عام 1351 هـ رحل الى فاس لطلب العلم لله وحده، وسكن بمدرسة أبي عنان ، وكان في الحجرة رقم 6 .

ولما كاتبته في الالتحاق به رحب بي أيما ترحيب ، فالتحقت به في يوم الخميس 14 شوال 1351 ، الموافق 23 فبراير 1932 م.

ولما اجتمعنا في البيت المذكورة قال لي رحمه الله : زيادة على محبتي لك ، لقد سررت كثيرا بالتحاقك بي وسكناك معي ، لانني بسيط لا أعرف كيف ارتب شئون الحجرة ، ولاطهي الطعام ، ولاشراء المواد . لانني تربيت في البادية . ولما دخلت وجدة كنت عند شقيقي الذي ينفق على الآن ، فانا غير خبير بشؤون الحياة ، على عكسك الذي تكونت في في تجارة والدك منذ الطفولة فمرحبا بك وألف مرحب .

وحينما رأى انني نظمت الحجرة واخذت في ترتيب جميع الوسائل الضرورية ، ازداد فرحا وسرورا ، لم تمض علينا خمسة عشر يوما حتى افترقنا ، لان الحجرة «استحقها» ابن خالتي السيد محمد بن الطيب بن يعقوب ، فالتحقت بالحجرة رقم 34. مع الطالب السيد احمد بن علي زعنان البيدري «جزائري» واجتمع معه «عرفا» في الانتساب الى سيدي عبد المومن جد آل ورطاس .

والتحق هو بالمرحوم الفقيه الوقت السيد محمد بن الاخضر اليزناسني الميموني .

وبعد اربعة أشهر استحق الحجرة رقم 25 ، ولفترة قصيرة سلمت الى الحجرة 21 ، فكانت الحجرتان متقابلتين ، وكان سروره عظيما بهذا الجوار والمقابلة .

فالاخ المترجم كان يحب الاستمتاع بالدعابة البريئة ، ولكنه كان بعيد الخلق عنها ، فاذا قنط استدعاني او زارني فاترك «كراساتي» وما

ازال اتحفه بالدعابة الى ان يستلقى على ظهره ضحكا ويقول لى : حسبك راجع دروسك ، سأذهب الى بيتي لمراجعة دروسي .

وكان رحمه الله يحمل بين حزامه «خنجرا» فمتى أغضبه احد مد يده الى خنجره ويقول – وهو يرتجف – يخلى دار امك اسكت او اقتلك فاذا ضبط صاحبه اعصابه وسكت . وهذه عادة كل من عرف طبعه، رأيت وجهه وقد علته الحمرة خجلا مما خرج من بين شفتيه من هذه «الجملة» ثم نضحك جميعا .

وكنت اتعمد اغضابه ظاهريا لاراه فى هذه الحالة العصبية الغريبة . ثم يسالنى عقب «التصالح» لماذا تغضبنى ؟ فأجيبه ، قصد التسلى بحالتك العصبية فيقول ، اتق الله وتخل عن مثل هذه الدعابة «الجارحة» وأفاجئه بدعابة جارحة اخرى . فأقول له مثلا : يابليد او يا احمق . و و٠ فلا يشعر ا لاوهو يزبد ويرعد قابضا على مقبض «خنجره» يهددنى بالقتل فأنفجر ضاحكا وارغمه على الانفجار بالضحك وأدعوه الى حجرتى لشاى أو طعام فنصطلحا ، وأخاطبه جديا فيقول رحمة الله عليه : اه لو تداوم على أسلوب الجدية والدعابة البريئة ، فأقول له : ويلك يا ادريس – الى متى هذا التزمت ، نحن غرباء في سبيل العلم لله ولزاما ان نتسلى من حين لآخر ، فيقول : ولكن فلتكن بريئة ، لاتزعجنى بدعابتك القارسة فتحيلنى كالمجنون ، وانا اكره نفسى ان اخرجها عن الوقار الذى احببته ، فأقول له : حينما لايخرجك «السفه» عن وقارك ستربح صفقتين : 1 – إن لايعود السفيه الى التجرىء عليك . 2 – وتكمل نقواك ، وأى تقوى مع مجاراة السفها ؟ وأى وقار كذلك ، فيقول لى : ما اكرمك من «فيلسوف» حينما تتحدث جديا فلم الدعابة غير البريئة ؟ فأجيبه : لا اترك الدعابة مع الطيبين امثالك ما دمت حيا ، ولكننى جدى مع السفهاء ، اتنازل عن حقوقى لجعل

حد لسفههم. فهل رأيتني امازح احدا غيرك ؟ فيقول : لا. فاقول اذن ، فهل أنا سفيه ؟ فيقول : سفيه في بعض الاحيان ، فأقول : ليس ذلك سفها باطنيا ، انت لا تنتفع بكتاب الله ، فيحمر وجهه ويقول : ماذا ؟ فاقول : «لا يواخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يواخذكم بما عقدتم الايمان» فيقول رحمه الله ، ويلك ما اشد استحضارك لاءايات كتاب الله في المناسبة ، كاننى لم احفظ هذه الاية ، وهنا اجيبه بالدعابة فاقول : ولكنني من بيت الرسول صلى الله عليه وسلم. فعلى جدى انزل القرءان الكريم ، كيف لا استحضر ما تدعو اليه المناسبة فيقول غاضبا ، ولكن الاسلام يجب ما قبله ، أتعيرنى بجاهليتى الاولى ؟

فأجيبه : ليس في جوابي لك ما أجبت عنه ، انك غير دقيق الاستماع والفهم ، فيزداد غضبا ، ثم يخرج من حجرتى وهو يدمدم بكلام يفجر ضحكتى وتارة اهجره ظاهريا ثلاثا ثم ابدؤه بالتحية ، فينظر الى في غضب المكبوتة ازاءه !

ويقول : لا تحييني فاقول له : « قال جدى عليه الصلاة والسلام : لا يهجر أحدكم اخاه فوق ثلاث «فيقول» «يخلى دار امك» تذكر الاية والحديث وانت تعمل على اغضابى ! الى متى هذه المغاضبة ؟ فاقول : حتى يرجعك الله لرشدك وصوابك . فيعود الى غضبه ويقول : هل انا غير رشيد ، فاقول : نعم ولماذا قولك لى : «يخلى دار امك ؟ لم تسب امى ! فيحمر وجهه حياء ويقول : سامحنى ، عندك الحق ، ولكنك انت الذى تسببت فى اغضابى فانت المسؤول عن فحشى» .

قلت له ذات مرة : انك تكذبنى فى قوة الحفظ والذاكرة ، هيا الى مباراة ، فخرجنا جميعا الى مقبرة باب محروق على اساس من يحفظ ستين بيتا فى ساعة واحدة. فحفظتها قبله فهيأ العشاء الذى كان رهانا بينى

www.berizenter.com

وبينه ، ولم يعد لمباراتي بعد ، كل ذلك في جو اخوي . قلما اعثر عليه الآن في هذا العهد الذي فشت فيه قلة المروءة حتى اصبح الجهال يجادلون العلماء ويتصدرون للتوجيه العلمي والادبي والديني ، فاللهم عفوك .

وكان اخي ادريس هذا ، بطيء الادراك ، ضعيف الحفظ بعض الشيء دهني . ولكنه اذا حفظ وفهم فالاجادة والعمق ، والعمل بما يفهم ، ويحفظ اكثر مني بكثير . يارب – رحمتك الواسعة له .

فكان يغبطني على سرعة الفهم والحفظ ، وأغبطه على دقة الفهم وعمقه والعمل بما يعلم . ومن حين لآخر كنت أقسم له انني اشم فيه رائحة الجنة فيطرق خجلا ويقول : اللهم ءامين ، والله يهنيك ويهديني الى سواء السبيل

خرجنا جميعا ذات مساء جمعة من المدرسة بقصد التجول . فلما وصلنا الى جانب «سيدى لزاز» قرب المدرسة قلت له : انظر كيف يدخر الناس لآخرتهم باطعام مساكين سيدى «لزاز» بشد الزاى الاولى فقال لي رحمه الله ، انك تتحدث معي وتلاحظ ما على جانب الزنقة ، شيء عجيب . فقلت لست مثلك تمشي مطرق الرأس ، انني انقل بسرعة ما في الشارع. فقال لي ان فيك علامات القيادة . فاللهم صبرا للقبيلة التي تحكمها. واتق الله فيها يا اخي قدور فانك ذكي . وأخشى عليك ان تجور . فالذكاء مدعاة للانانية والجور . فاتق الله . اما انا . يقول المترجم . فسأكون اماما وخطيبا وأموت وأنا امام وخطيب ، فقلت ذلك ، ودعنا من نبوءاتك .

في سنة 1936 انقطعت عن الدراسة ولم البث الا قليلا في ابركان حتى قيل لي انه ذهب الى تطوان بقصد الرحلة الى المشرق «مصر» لطلب العلم . ثم غابت عني أخباره .

وما بين 1939 بينما كنت عند المرحوم السيد عبد العزيز البكاوي الذي كان موظفا عند اصحاب الحافلات من ابركان الى وجدة . اذا ابصرته

في حافلة صفراء اسبانية ، فاقتربت منه لدى وقوف الحافلة وسلمت عليه في اندفاع من اعماق قلبي ودعوته الى منزلي فابتسم رحمه الله واضعا كفه على فمه كعادته ، وأشار الى راكبة الى جنبه ففهمت انها زوجته فواعدني بالرجوع الى ابركان والحرب العالمية الثانية في اوائلها طبعا .

ولفترة قصيرة رجع الى زيارتي فمكث في ابركان ما يقرب من اسبوع فتذكرنا دراستنا جميعا على شيخنا العلامة المحقق سيدى العربى الشامي الاستعارة للشيخ الطيب بن كيران والقويسيني ، والزقاق ، وسنوسية وورقة امام الحرمين ، وشيخنا العلامة سيدي ارشيد الدرقاوى «الالفية» من النداء والجوهر المكنون والسعد ، على شيخنا حفظه الله مولاى العباس الامرانى مع «الالفية من جمع الذى الالى الذين مطلقا» وبعضهم بالواو رفعا نطقا الى النداء والسعد وعقائد ابن عاشر بميارة بضريح سيدى احمد الشاوى والاجزاء الثلاثة من الدرير على شيخنا المرحوم سيدى الحسن الزرهونى «العمرانى» والجزء الرابع على الامام الولى العالم شيخنا سيد ىادريس المراكشى . وعقائد التوحيد من ابن عاشر بالشيخ الطيب بن كيران على شيخنا حفظه الله سيدى العباس بناني بين العشاءين وامام « الساقية » الحائطية بالقرويين ، والالفية المسرودة على شيخنا حفظه الله سيدى عبد الرحمن العراقي ، وشافية ابن الحاجب في الصرف والبخارى على شيخنا المرحوم سيدى بنسعيد المكناسي. والالفية على شيخنا الخطيب المرحوم السيد الفقيه سيدى الهادى بن لمواز وعلى كبار الشيوخ الذين اشتركنافي التلقى عنهم رحم الله الاموات منهم وحفظ الاحياء منهم وجزى الله الجميع خيرا .

ثم روى لى قصته الى تطوان فقال ما خلاصته :

«لقد ذهبت الى تطوان عن طريق طنجة ووصلنا بعد اتعاب ذكرها لى ونسيتها . ولما وصلت الى تطوان استقبلنى المرحوم الاستاذ عبد الخالق

الطريس ، وتاسف على ان «البعثة» قد سافرت ولا يمكن له الان ان يفعل شيئا من أجله وسلم له خمس عشرة بسيطة ، ولها حينذاك قيمة وأي قيمة.

وبعد فترة لا اذكرها الان ـ توجه الى الناضور واتصل بقائد وناظر الاحباس اسمه فيما اذكر القائد لحسن ـ او محمد بن لحسن «اشن» بضم الالف وشد الشين المعجمة مع الفتح وسكون النون وتزوج من ابنته ووظفه معه. ولكن الوضعية لم ترضه .

وذات ليلة قال لزوجه : اننى عازم على الرجوع الى وجدة ، فماذا رغبت في المقام عند والدك تركتك مع «رسالة بالطلاق» وان رغبت في مرافقتي والمغامرة معي فانني فقير ، ولكن أخي محمدا سوف يستقبلنا بكامل السرور مع وضعية فقره ، واذا عزمت على الحل الثانى فيجب عدم اخبار والدك لانه ربما سيمانع فى ذلك . فقررت مرافقته الى وجدة دون اخبار والدها كما رأيتها يقول المرحوم اخي ادريس .

ثم جمعت له ما يقرب من مائة وخمسين ريالا ، وتطوع والدي باكساء زوجته بكل ما يلزم ـ وقلت له خذ قدرا من هذه الدراهم واترك عندى اكثرها لاشترى لك بها أقمصة مما يستورد من الناضور عن طريق التهريب وأرسلها اليك شيئا فشيئا مع أخ الجميع الفقيه السيد محمد بن الخضر المذكور لانه كن تاجرا فى وجدة بعد ان تزوج باحدى بنات شيخنا العلامة سيدي الحاج العربى والد اخينا سيدى بناصر رحم الله الجميع ، فوافق على رايى ـ وأرسلت اليه كل ذلك .

ثم عين اماما وخطيبا بجامع فى فكيك ـ وجرفه مرض التيفوس هناك ربما سنة 1941 م وصار الى عفو الله ـ عليه رضوان الله ـ وهو امام وخطيب كما تنبأ ـ ورجعت أنا قائدا ممتازا كما تنبأ ـ فاللهم اغمره بكامل رضوانك ومتعه بالخلود فى الجنة حتى ترضى انت ـ يا اكرم الاكرمين وياخير

الراحمين لا اله الا انت سبحانك فاغفر لكاتبه وارض عنه بالتوفيق في الدنيا الى سواء السبيل ، وبالنجاة من النار والعذاب والدخول الى الجنة وأرني أخي ادريس ومن رضيت عنهم ونحن على سرر متقابلين. وتمت الحلقات والحمد لله رب العالمين .

خاتمة حول أثر حركة حكيم الشرق في المغرب (25)

حينما انتهيت من تحرير كتابي : «ذكريات الدراسة في فاس» ، وأودعت نسخة منه في قسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط ، سلمت نسخة منه الى اخي وصديقي السيد محمد يسف «بفتح الياء التحتية وفتح السين المهملة مع شدها وسكون الفاء» خريج جامعة القرويين» ودار الحديث الحسنية وبعد ان درسها سألني عما ذا اعرفه من اثر حركة السيد جمال الدين على تفكير علماء القرويين ، وهذا هو السؤال الاول .

وسألني عن الاسباب التي اعرفها ، او تظهر لي عن اتجاه الاستاذ علال الفاسي الى الميدان السياسي بدل الاتجاه الى الميدان العلمي ، وانه لو اتجه هذا الاتجاه الثاني لكون مدرسة ، او مذهبا اسلاميا مستقلا عن المذاهب الكبرى لما منحه الله من عبقرية باكرة ..

وفي نظره ان الاتجاه الثاني كان اجدى على الامة والاسلام من اتجاهه السياسي ، وان كان هذا الاخير من الاهمية بمكان عظيم .

ويرى اخي محمد يسف ، ان الميدان السياسي كان في الامكان ان يتزعمه غير الاستاذ علال الفاسي . على عكس الزعامة الاسلامية ، فانها طريق صعب مشوك الا على امثال الموهوبين مثل الاستاذ السيد علال الفاسي .

وهذا هو السؤال الثاني .

وأجيب عن السؤال الاول باختصار فأقول :

ان حركة حكيم الشرق فى الشرق كانت تهدف ـ مباشرة ـ الى الرجوع الى المعين الاول الصافى للمسلمين في مشارق الارض ومغاربها ألا وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والرجوع الى هذا المنبع الالهى ليس معناه تحطيم كل معطيات الفكر الاسلامى عبر القرون الغابرة ، ولكن لتنقية الفكر الاسلامى مما اعتراه من جمود وخمول . وما ران على افكار المسلمين من اساطير وخرافات حيث احالهم ذلك الى مواطىء اقدام الغرب والصليبية مع ما هم عليه من وفرة العدد . ولكنهم غثاء كغثاء السيل ، وما فى ارضهم ظاهرها وباطنها ـ من خيرات ـ ولكن كل ذلك تحول الى طعمة للصليبية والاستعمار .

وحينما يصقل معين الاسلام الالهى افكارهم ، ويطهر قلوبهم يهبون سراعا لاجلاء الصليبية والاستعمار من اراضيهم وبحارهم وسمائهم وافكارهم ومشاعرهم ، وبذلك يصبحون من عباد الله الصالحين الذين هم احق بالخلافة الالهية في الارض ، وهذا لا يمنعهم ، كما لم يمنع أسلافنا ـ مما استجد من العلوم والاداب التي تلائم المنهج الالهي مما كان في هذا القطر ، او ذاك بقطع النظر عن جنسيات اهلهما ، ودينهما ونزعاتهما ، ومذاهبهما واحزابهما .

والشرط الاساسى فى هذا الاخذ ، هو المحافظة كل المحافظة على الشخصية الاسلامية حتى تبقى بعيدة كل البعد عما عند القوم من أدران فكرية ، وخلقية ، ومادية . ذلك ان العلوم التى كانت عند القوم لم تكن ملكا لهم . وانما هي ارث الانسانية جمعاء تسارعوا الى الاستيلاء عليه والزيادة فيه فى حين ركود العالم الاسلامى وجموده ، هذا الارث الانسانى كان فيه الحظ الاوفر للفكر الاسلامى فى عهود ازدهاره . فاذا نحن اخذناه من القوم فمعظمه بضاعتنا ردت الينا راجع مثل : «الاسلام في عصر العلم» لفريد وجدى تجد صحة ما قلته فى هذه الفقرات .

ان السيد جمال الدين قام بهذه الحركة الاسلامية حينما أحاط الاستعمار والصليبية بالعالم الاسلامى احاطة السوار بالمعصم ، او القلادة بالعنق ، ورأى ان لافكاك للعالم الاسلامى من هذه الانهيار والقيود الا بالرجوع لما كان عليه السلف الصالح من أخذ شئون دينهم ودنياهم من المنبع الالهى الصافى مباشرة . وهذا معنى السلفية باختصار .

أما وسائله لتحقيق اهدافه ، فتتلخص 1 – فى جولاته بين ربوع الشرق والغرب للاتصالات المباشرة مع قادة الفكر والقاء محاضرات فى مختلف المجالس والنوادى .

2 – وفى إنشائه لجمعية «العروة الوثقى» التى كن هو على راسها والتى اصدرت «مجلة» أطلق عليها اسم هذه الجمعية ، وكانت تصدر فى باريز وتوزع مجانا فى كل انحاء العالم .

ولقد كان الصراع بينه وبين قادة الفكر الغربى على العموم وقادة الفكر الفرنسى على الخصوص ، اعنف صراع فى مراحل كفاحه الخالد. الامر الذى حمل قادة الفكر الفرنسى على الايعاز الى الفيلسوف الشهير «جوزيف رينو» لطلب لقاء مع حكيم الشرق .
وتم هذا اللقاء فعلا .

ولما سئل الفيلسوف الفرنسى من طرف زملائه عن انطباعاته حول «السيد» قال ما خلاصته : لقد كنت استمع اليه وانا اتصور اننى امام «احد الفلاسفة الملحدين» امثال : ابن سيناء وابن رشد.

ثم قال ما خلاصته : اذا كانت شخصية متدين ما ، دليلا على احقية ذلك الدين فان «السيد» دليل على أحقية الدين الاسلامى .

والى وسيلة «العروة الوثقى» انشأ تلميذه الكبير «مجلة المنار» التي كان يشرف عليها السيد رشيد رضا ـ كانت بحق منار العالم الاسلامي اجمع في المشرق والمغرب ـ وهو الاسم الذى اطلق على «تفسير محمد عبده» .

وبفضل هذه الحركة السلفية الاسلامية المباركة نبغت عدة شخصيات اسلامية في المشرق والمغرب تزعم بعضها أحزابا وطنية سياسية للعمل على التحرر من الجمود الفكرى ـ والخرافات والاساطير اولا ، والتحرر من الصليبية والاستعمار ثانيا .

ومن تلك الشخصيات : الفيلسوف اقبال فى الهند ـ وعبد الرحمن الكواكبي والامير شكيب أرسلان ، ومصطفى كامل ، فسعد زغلول فمصطفى النحاس وهم كثيرون ، أما أثر هذه الحركة السلفية الاعلامية على قادة الفكر الاسلامى فى المغرب . فعلينا ان نتذكر جميعا ـ وجيدا ـ أن السلفية اولا . لم تكن بالامر البدع فى ربوع المغرب.

يقول الاستاذ علال الفاسى فى كتابه : الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى ص 133 : «يظهر ان (مراكش) مهيأة اكثر من كل بلد اسلامى لقبول الحركات التى تطالب بالعودة للدين الاسلامى الصحيح والعقيدة السنية .

ويبدو ان بساطة هذه الدعوى ووضوح طابعها يتفق الى حد بعيد مع صفاجة الصوفية المغربية ـ وحب الطبيعة القومية للتأكد من دقائق الاشياء

ولذلك لم تقم الثورة الوهابية حتى كان لها صدى استحسان وقبول فى القصر الملكى حيث رحب بها السلطان مولاى سليمان ، الى ان يقول:

ولكن هذا كله لم يكن له من الاثر ما احدثه رجوع المصلح الكبير الشيخ ابو شعيب الدكالى .

.. فلقد عاد وكله رغبة في الدعوة لهذه العقيدة والعمل على نشرها . والتف حوله جماعة من الشباب النابغ يوزعون الكتب التى يطبعها السلفيون بمصر ، ويطوفون معه لقطع الاشجار المتبرك بها ، والاحجار المعتقد فيها.

وكان لمولاى عبد الحفيظ فضل كبير فى اظهار هذه المبادىء وتاييدها خصوصا بعد ان اخذ بعض ادعياء المشيخة يمدون ايديهم للاجنبى الى ان يقول :

غير ان هذا نفسه لم يكن الا مقدمة اولى للحركة السلفية التى دعا اليها ، وبثها ، وخرج رجالها ، استاذنا العلامة المصلح السيد محمد بن العربى العلوى حفظه الله . فلقد كان لهذا الرجل من الجرأة والاقدام والثبات ما جعله يلاقى فى دعوته نجاحا كبيرا واقبالا عظيما .

قلت : ان قول الاستاذ علال الفاسى «والتف حوله جماعة من الشباب النابغ الخ . صريح في ان شيوخ الفقهاء لم يلتفوا حول هذه السلفية وحسبنا ذلك جوابا عن السؤال الاول لاخى الاستاذ محمد يسف . اذ اننى ـ شخصيا ـ وجدت علماء الشباب ، او بعض علمائهم على الصحيح هم الذين كانوا يتدارسون هذه السلفية ويعملون على بثها بين شباب الطلاب. وهم الذين كنت اشاهد الكتب الحديثة والمجلات المتنوعة بأيديهم .

أما شيوخ العلماء فقد تابعوا سيرتهم التقليدية فى بث علوم الشريعة الاسلامية المتنوعة بين الطلبة الذين كانوا يردون على القرويين من كل الاقاليم المغربية .

غير ان «حالة النظام» الذى طبق على القرويين فى سنة 1930 م كان له اثر وأى أثر على مستوى الدراسة ، حيث اخذ ينخفض شيئا فشيئا.

ذلك انه حينما شرع فى تطبيق النظام لم يسند كل علم لكل المتخصص فيه . فالعالم الذى عرف بعمق الدراسة النحوية اسندت اليه

دراسة الاداب العربية . والذى كان ضليعا فى الفقه الاسلامى اسندت اليه دراسة البلاغة . وهكذا دواليك . ثم ان «حالة النظام» اقتضت استدعاء عديد من المدرسين . ولم يكن كل هؤلاء المستدعين ذوى كفاءة علمية ، فبعضهم كان مجازا بوسيلة من الوسائل لا عن كفاءة علمية .

ولولا حق شيوخى على من حيث واجب التقدير ، لذكرت اسماء بعضهم. وهم من الشيوخ لا من الشباب واذ ذاك والى جانب ذلك . كان هناك بعض الفقهاء لا اقبال عليهم من لدن الطلبة قبل النظام واجبروا على الدراسة عليهم عقب النظام . فلم يكن بين الفقيه والطلبة اي تجاوب ، فكان الدرس «ثقيلا» على الجانبين : جانب الفقيه ، وجانب الطلبة .

والادهى من هذا والامر ، ان «حالة النظام» كانت تقتضى دراسة ابواب محددة من الكتاب المقروء وبالنسبة لما كانت عليه الحالة من قبل النظام من تعمق وتوسع وترجيح وتحقيق ، فان تلك الابواب كانت اكثر مما يلزم . الامر الذى يستدعى السرعة لختم الابواب ببيانات بسيطة .

واذا ما قدر لعالم ان تعمق وتوسع ، فان المجلس العلمى يوجه اليه تنبيها .

علاوة على ان شيوخ الفقهاء كانوا يتقززون من تنقلات «مراقب الدروس» بين الحلقات ، فيحد ذلك من حماسهم العادى .

وهذه الاشارة كافية للاستدلال على ضعف مستوى الدراسة بعد حالة النظام ، وعلى قيمة الشهادة العالمية ، الا من كان موهوبا ووفقه الله لتوسيع دراسته . وقليل ما هم .

اذن «فالملكة» ـ فتحا ـ التى كان يهدف اليها الفقهاء والطلبة اصبحت غير ميسورة الا للموهوبين العصاميين .

وان الخسارة الكبرى التى خسرتها جامعة القرويين تكمن بالخصوص في اختفاء علم صناعة الحديث . فالمنهج المتبع لم يكن يسمح بتخريج محدثين بارزين فى علم صناعة الحديث ، نعم ، لنعد بعد هذه الجولة الى ما كان للسلفية فى المغرب من ءاثار .

يقول الاستاذ علال الفاسى فى المرجع المذكور ص 134 : «ومن ان نؤكد ان الاسلوب الذى اتبع فى المغرب ادى الى نجاح السلفية لدرجة لم تحصل عليها حتى فى بلاد محمد عبده ، وجمال الدين .

وروى الاستاذ علال ايضا ما خلاصته : ان مسيو ديرمانجيم مؤلف كتاب «حياة محمد» كتب بحثا عن السلفية وغاياتها واتجاهها فى المغرب وأبدى عطفه عليها سنة 1925. ولكنه فى سنة 1933 ابدى أسفه على النهاية المؤسفة للطرفين . وقال الاستاذ علال : لم أكن أظن انكم ستنجحون الى هذا الحد ، وبمثل هذه السرعة .

ويقول الاستاذ علال الفاسى فى ص 135 :

ولقد كتبت ادارة الشؤون الاهلية في مراكش سنة 1939 م تقريرا لمجلس البحر الابيض المتوسط الذى اسسه مسيو بلوم فى فرنسا تؤكد فيه العبقرية التي ظهر بها الحزب الوطني المغربي في جمعه بين احدث الافكار الثورية وما سمته بالسلفية الجديدة التى ظهرت بعد الحرب فى العالم العربي الخ .

أما عن السؤال الثاني ، فقبل أن أحرر الجواب ، انتهزت فرصة لقاء مع الرئيس سيدى علال الفاسى فى مركز الحزب بالرباط فى ءاخر مساء يوم 11 يناير 1972 . وهو يتأهب لالقاء خطابه التاريخي بمناسبة ذكرى تقديم وثيقة الاستقلال للمغفور له جلالة محمد الخامس ووثيقة التداولية لجلالة الحسن الثانى فى الدار الملحقة بمركز الحزب ، فقلت له :

أما كان اجدى على الاسلام والمسلمين عامة ، وفى المغرب الاقصى بصفة خاصة ، ان لو وهبتم عبقريتكم ومواهبكم ومعارفكم لتتعمق أكثر خيرا من اشتغالكم اكثر بالميدان السياسى ؟ مع الاعتراف بأهمية هذا الدراسات الاسلاميةلتكوين مذهب ، او مدرسة اواتباع - ولهذه تلاميذ . في الميدان ؟ وضربت له مثلا بشيخ الاسلام « ابن تيمية » .

فأجابني باختصار وهو يبتسم : ان ابن تيمية نفسه حارب التتار فلم يشتغل بخصوص الدراسات العلمية . وان اسلافنا كما انوا يتعمقون فى الدراسات العلمية ، كذلك كانوا يجاهدون اعداء الاسلام ، فاتجاهى - يقول الاستاذ علال الفاضسى - هو اتجاه سلفى جمعت فيه ما بين الدراسات العلمية والتئاليف الاسلامية المتنوعة والمطبوعة فى نفس الوقت وغيرها من التئاليف الوطنية والسياسية . وبين محاربة اعداء الاسلام . وهذا هو معنى السلفية . ومعنى سلفيتي :

1 - دراسات اسلامية افرغتها في عدة مؤلفات .

2 - ونضال للرجوع بالمسلمين الى معين السلف ، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

3 - وانشاء مدارس ومعاهد عربية اسلامية فى برامجها واتجاهها الاسلامى النظيف .

4 - ونضال فى سبيل تحرير البلاد من الاستعمار والصليبية .

5 - ثم متابعة النضال لتطوير الوطن فى اطار اسلامى وروح اسلامية وتقدمية .

ثم قال : ولو تفرغت لخصوص الدراسات العلمية كما تقول . لن اعدو أن اكون عالما . ولكن السلفية علم وتعليم ، وتطبيق وجهاد .

ثم قلت له : لماذا لم يكن اتجاهكم على نهج اتجاه الشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله ورضى عنه ؟

فأجاب : ان اتجاهي جمع ما بين الحسنيين ، وعليك ان تقرأ فصلا عن السلفية الجديدة في كتابي : «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» ومن السلفية الى الوطنية ، ففي قراءتهما الجواب الكافي والشافي عن كل ما سألتني عنه .

اجل انني انتهز هذه الفرصة فأنقل الى هنا الفصلين المشار اليهما نقلا حرفيا حتى يمكن لقارىء «ذكرياتي» هذه ان يستفيد منها مباشرة اذا ما لم يكن يملك الكتاب المذكور ، قال الرئيس علال الفاسي لا فض فوه :

الاتجاه السليم للسلفية الجديدة (26)

لئن كانت السلفية في باعثها الحنبلي ترمي لتطهير الدين من الخرافات التي الصقت به ، والعودة الى روح السنة المطهرة فانها لا تقصد من وراء ذلك الا تربية الشخصية الاسلامية على المبادىء التي جاء بها الاسلام بصفته المتكفل بصلاح الامة في دينها ودنياها واعدادها لتكون لها الخلافة في هذه الارض التي حكم الله الا يرثها من عباده الا الصالحون ، وبذلك فهي حركة تتناول نواحي المجهود الفردي لصلاح المجتمع وتتطلب فتح الذهن البشري لقبول ما يلقى اليه من جديد وقياسه بمقياس المصلحة العامة لارجاع المجد العظيم الذي كان في السلف الصالح في حظيرة الايمان ، وحظيرة العمل ، ولكن هذا الادعاء الفردي لا يقصد منه الا تقوية التضامن بين الجماعة الاسلامية على اساس الاخاء الاسلامي اولا، والانساني ثانيا .

وذلك ما يستوجب كثيرا من التسامح مع المخالفين ، في الوقت الذي يدعو للوقوف صفا واحدا في الدفاع عن الاسلام وعن الامم الاسلامية كلها .

والدفاع عن الاسلام وأممه يستدعى بالطبع قبول المبادىء التى تعطى للفرد حرية العقيدة وحرية الفكر ، وتعطى للامم الحق فى تقرير مصيرها واختيار النظم التى تريدها .

وحرية العقيدة تستوجب حرية التالب من اجلها والتجمع للنضال عنها بالوسائل المشروعة السلمية ، وتقرر المصير ، واختيار النظم يستوجب حرية الجماعة فى التعبيرعن رأيها وابداء ما تريده من اشكال الحياة ، وكلا الامرين لا يتم الا بطريق التنظيم الذى جاء به العصر من جمعيات واحزاب ونقابات .

ولكن هذه الحرية يجب ان تتفق مع غاية التناخى بين الامم الاسلامية ضمن وحدة سياسية ، وذلك ما وقفت عنده السلفية زمنا تتأرجح بين تنظيم الخلافة على اساس حديث او تكوين جامعة امم شرقية.

وأخيرا اقتنعت بضرورة القومية المبنية لا على الروح العنصرية او الدينية ، ولكن على أساس الروابط الاقليمية ، مجندة لتبرير ذلك ما عرف فى الاسلام من تسامح وما تدعو اليه وحدة الدفاع عن جانب من جوانب الجبهة الاسلامية دون التعرض لما يرمى به الاجانب المسلمين من تعصب وضيق فى الافق ، ومستندة لما فهمه المسلمون من ضرورة حب العائلة والعمل لصالحها دون ان يكون فى ذلك ما يتنافى مع الاخوة العامة بين ابناء الاسلام ..

ولكن هذه القومية لا ينبغى ان تضيق الى حد ان تحول بين التقارب المطلق بين سائر الشعوب المسلمة والعربية بصفة خاصة ، والا اصبحت عنصرية تتنافى مع الاصل الاصيل للدين الاسلامى .

ولتسهيل هذا التقارب يجب ان تتقارب اساليب الثقافة في وسط المسلمين ، وان يعمل على جعل اللغة العربية صالحة لان تكون لسان العالم الاسلامى كله ، وصلة الوصل بين سائر افراده .

وبما ان الدعوة لهذا ، وتيسيره تتطلب نشرات وصحفا ، وتجولات خطابية يقوم بها الدعاة المرشدون لتقريب العقلية الاسلامية والتوحيد بين عناصرها ، فقد هيات كل الوسائل التى يتوقف عليها الارشاد والتوجيه

وهى ترى من الواجب الا يبتعد المسلمون عن القانون المستمد من الشريعة .

اصولا وفروعا كمادة تشريع مدنى عام . لانه هو نفس الشريعة التى لا يمكن ان يقوم عليها اجتهاد ولا تطوير .

وكل هذه الاشياء لا يمكن ان تتحقق فى الحكومة المسلمة الا اذا خضع هذا الاجتهاد الجديد فى التشريع لنواب اكفاء ضمن مجلس تختاره الامة ، ويصبحون فيها مكان اهل الحل والعقد الاولين .

ومعنى هذا انه لابد من اتباع النظام الدستورى المبنى على حكم الشعب بواسطة من يختارهم من نوابه الاكفاء .

غير ان الوصول لهذه الوسيلة لا يتحقق الا اذا تحررت البلاد الاسلامية من سيطرة الاجنبى المادية والمعنوية .

ولذلك ، فالعمل على الاستقلال شرط اساسى لاكتساب الحرية التى لابد منها لتحمل المسؤولية ، وفوق كل هذا فالسلفية الجديدة ترفض بالطبع فكرة لادينية الدولة . وبذلك تجعل الحكومة الاسلامية حارسا على الاخلاق والفضيلة فى وسط الامة ، وتطالبها بتهيئة سائر الوسائل التى تسهل على الفرد القيام بالواجبات الفردية والاجتماعية ، وتحمله ـ عن طريق الاقتداء والمتابعة ـ على السلوك الحسن فى علاقته مع عائلته ، ومع اخوانه ، ومع الاجانب عنه .

تلك هى الاتجاهات السياسية التى شغلت السلفيين فيما بعد الحرب الكبرى ، وقد رأينا كيف انها أخذت قسطا كبيرا من كفاحنا الناشىء ، ملونة بألوان مختلفة ، وظروف خاصة ، ولكنها لم تنفك فى سائر مراحل جهادنا ، سواء فى الحزب الوطنى ، او فى حزب الاستقلال محط عنايتنا وموضع اهتمامنا .

ومهما يكن مقدار التطور الذى حصل فى نظرتنا المدنية للاشياء .

ومهما يكن مقدار النجاح الذى سنحصل عليه فى تطبيق برامجنا بعد الاستقلال ، فالذى لا شك فيه ، هو ان السلفية عملت فى تسيير «التنا النفسية ، وتوجيه تفكيرنا نحو هذا التجدد المنشود فى جميع مظاهر حياتنا ونحو هذا التحرر الذى ظل طابع حركتنا ، وصوب هذه الوحدة العربية التى لم تزل مطمح «امالنا ، ونحو الروح الديمقراطية التى تسيطر علينا .

من السلفيـة الـى الـوطنيـة (27)

لقد وجد الشباب المغربى فى دائرة الحركة السلفية ميدانا لبذل نشاطه وتعويد نفسه على العمل لخدمة الامة والتضحية فى سبيلها .

وهكذا تكونت منه مجموعة بفاس والرباط وتطوان لم تلبث ان اخذت تتناول الشؤون العامة باسلوب غير الاسلوب الاول .

وكانت مقاومة المشايخ الذين استفادوا من نظام الحماية فعملوا لبقائه فى مقدمة ما تقوم به من الاعمال .

وسرعان ما تأسست جماعات صغيرة لدراسة القضايا القائمة والعمل على تنوير الرأى العام بأضرارها .

www.beniznassen.com

وكانت جماعة القرويين بفاس ملتقى الطلبة الواردين من كل جهة ، فكان لزاما علينا ان نهتم بتنويرهم ، وبعث الروح السلفية والقومية في نفوسهم ، فقمنا بعدة حركات لاصلاح التعليم الجامعي ، والمطالبة بتحسين حالة الطلبة ، وتنظيم رحلات وتبادل زيارات بينهم وبين ابناء المعاهد الاخرى الداخلية ، واقامة حفلات مشتركة مع تلامذة المدرسة الثانوية الادريسية وقدمائها .

ثم أسست مع ثلة من اخواني مجلة شهرية سرية باسم «ام البنين» كانت تصدر بانتظام في اربعين صفحة ، وتكرر على «البولي كوبي» ثم توزع على هذه الجماعات السرية بفاس والرباط ومراكش وطنجة وتطوان.

وفي الوقت نفسه ، كنا على اتصال بثلة من اخواننا الذين ذهبوا لاتمام دراستهم بفرنسا والشرق ق حيث اخذوا يعملون في جو اصفى واكثر حرية من جونا .

وقد استطاعوا ان يؤسسوا بباريس «جمعية الثقافة العربية» ويتصلوا في العطلة الصيفية بشخصيات من بينها : عطوفة الامير شكيب ارسلان .

كما استطاع اصدقاؤنا في القاهرة ان يشاركوا في تأسيس «جمعية الهداية الاسلامية» وحاولنا نحن في الداخل ان نؤسس «جمعية احباء الطلبة» وان نعمل لمساعدة فلسطين فكانت السلطة ـ دائما ـ تجيبنا بالرفض ، وتحول بيننا وبين انجاز ما نريد .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد والينا العمل لانشاء عدة مدارس اصلاحية في مراكز مختلفة ، كانت النواة التي تلتف من حولها فئات عاملة محلية

ولكن كثيرا ما كانت السلطة تقفلها ، او تعتقل اصحابها ، فتنشا عن ذلك احتجاجات سياسية .

ولقد يستغرب القارىء : اذا قلت له ان كل حركة ، صغيرة أو كبيرة كانت ، تحتاج لمجهود وتضحية ازاء العناد الفرنسي الاسباني .

واذا اخبرته : بأن ادارة الامور الاهلية بفاس هاجمت لان شبانا عصريين اسسوا صالون حلاقة على أحدث طراز بشركة مساهمة ووفقا لكل مقتضيات القانون فأقفلته وفرضت على حلاقه غرامة مالية، وأن الشبان اضطروا لبعث وفد للاقامة العامة ليستطيعوا اقناعها بالعودة لفتح صالون الحلاقة الجديد ! وأن ادارة الشؤون الوطنية بتطوان منعت صدور روزمانة وطنية اصدرها اخونا داود ، لان فيها ابياتا من شعري وشعر بعض ادباء المغرب .

وفي سنة 1925 حاولت الادارة الفرنسية ان تستولي على ماء وادي فاس الذي يعتبر ملكا لسكان المدينة ، كما يعتبر كل بيت مالكا للقيط الذي يجري به طبقا للتقاليد التي تثبتها حجج شرعية وتاريخية .

وكانت الادارة ترمي بهذا الاستيلاء الى تمتيع بعض الشركات الفرنسية باستغلال الماء ، فرأى سكان المدينة في ذلك مساسا بحقهم ، وغصبا لملكهم ، وقامت مظاهرة كبيرة احتشدت للتعرض على هذا المشروع

وقد القيت – في داخل الادارة – خطابا حماسيا كان له وقع حسن في ادارة المراقبة البلدية .

في الجمهور المحتشد ، وبعد ذلك ، وضعت : انا والحاج الحسن ابو عياد مذكرة قدمناها لحاكم الناحية الفاسية تطالب بسحب مشروع الادارة ، وتتناول حق تمتيع الشعب بالحريات العامة التي من جملتها الملكية الخاصة في حدود القانون .

وقد وقعت عدة اجتماعات شعبية بالضريح الادريسي والقرويين وغيرهما ، كنت انا والحاج الحسن من خطبائها وموجهي اعمالها .

وقد انتهت هذه الحركة بظفر المدينة وسحب ادارة الاشغال لمشروعها .

كل هذا وغيره كان يسير بنا للعمل السياسي المنتظم ، ولكن 16 مايو سنة 1931 هو الذى علم نقطة البداية فى تاريخ الحركة الوطنية الجديدة . ه حرفيا .

قلت : يعلم مما سبق : ان الحركة السلفية كانت تهدف الى تطهير الشريعة الاسلامية من كل الطفيليين واعداد الشعب المغربى لتطهير الديار الاسلامية من رجس الاستعمار .

لذلك فان علماءنا ـ اذ ذاك ـ وخصوصا علماء الشباب ، لم يكونوا فى حاجة ماسة الى «اراء ومذاهب اسلامية جديدة . فيكفي ان تصحح افهام المسلمين للاسلام . وما دون فى مجالات الشريعة الاسلامية كان يكفى لان يكون منارنا للنضال قدما الى تحريرنا من النير الاجنبى .

وعندما نتحرر منه يمكن لنا ان نعيد النظر فيما يمكن اعادة النظر فيه من فروع شريعتنا الاسلامية ، لا من اصولها .

وذلك لانتلاءم مع طبيعة الشريعة الاسلامية التى تتطور فروعها بتطور الزمان والمكان وهو طابع خلودها .

وفى ضمن هذا الطابع الخالد : ان لانشرع القوانين الا حينما يقتضيها تطور الزمان والمكان ، وذلك لكى تكون مفاهمنا وقوانيننا الاسلامية ذات روح قرءانية على مدى العصور الى ان يطوى هذا الوجود طي السجل للكتاب .

اذن ، لم كنا في عهد السلفية في حاجة الى من ينصح عن شريعتنا الاسلامية جراثيم الطفيليات والطفيليين لتكون صالحة لبعث الروح الاسلامية الابية فى المسلمين اولا ، ولينضحوا عنهم الغرو الاستعماري بنوعيه : المادي والروحي .

وهذا ما دفع بعلماء الشباب ان يكيفوا السلفية بظروف العصر فيستعملوا الوسائل التى تلائم الزمان والمكان وتتمشى مع روح السلفية الاسلامية .

اما تفرغ طائفة من العلماء للبحث والتدوين في وقت تمس الحاجة فيه لجهادهم من أجل التحرير من رقبة الاستعمار بنوعيه ، فذلك ما يأباه الاسلام . وتأباه طبيعة تطور الحياة .

على أن سلفنا الصالح كان يجمع بين خدمة الاسلام من حيث البحث والدراسة والتدوين ومحاربة الطفيليات والطفيليين ، وبين المساهمة فى جهاد اعداء الاسلام .

قلت ايضا : ان الاستاذ علال الفاسى جمع الله له ما بين الحسنين حسنى الجهاد فى سبيل الله منذ اوائل شبابه .

وحسنى الدراسات الاسلامية ، وحسبه منها : «مقاصد الشريعة» و «دفاع عن الشريعة» و «تاريخ التشريع الاسلامى» وما سبق ولحق بهذه المؤلفات الاسلامية القيمة الخالدة علاوة على مؤلفاته الوطنية والسياسية ويكاد الجميع يصل الى المائة . والكل مطبوع فى متناول القراء .

أما خطبه المتنوعة فلا اخال انه هو نفسه يستطيع حصر عددها .

وأما دروسه الاسلامية ، فلا أخاله ايضا هو نفسه يستطيع حصر عددها .

وأما مجالسه العلمية والاسلامية ، والادبية ، والفلسفية ، والتى استفاد منها العدد الذى لايحصى من المعجبين بسعة علمه وثاقب فكره ودقة ادراكه . ورهافة احساسه ، ورحابة صدره ، وعظيم بداهته و . . . و فلا اخاله هو ايضا يستطيع ان يحصر عددها .

وأما الذين تخرجوا من مدرسته الوطنية الحق فى الشرق والغرب والذين لا يزالون يحفظون حكمه الجامعة ، ويتذكرون توجيهاته النافعة . فالله وحده الذى يعلم عددهم .

وأخيرا فانه من اكرام الله سبحانه لهذا الشعب ان الهم شباب عنمائه الى الجمع بين خدمة الاسلام مباشرة والذود عن دياره وأهله بعزائم تحطمت بها كل عزائم الاجانب الذين كانوا ـ ولا يزالون ـ يتربصون .لدوئـــر بالاسلام والمسلمين، ولكن الله سبحانه وله الحمد والشكر جعل لهم هؤلاء العلماء بالمرصاد لهم ولمن حالفهم من الذين يتطفلون على الاسلام والمسلمين والحمد لله رب العالمين .

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
الاهداء	3
تمهيد	7
قبل التحاقي بالقرويين	24
الى فاس	29
الى حلقات الدروس	34
من خلال سنى الدراسة	39
حاشية على ما سبق	50
في حضرت الشيخ العباس بناني	55
من الحجرة 6 الى الحجرة 34	63
اضراب الطلبة الاقليميين عن النظام القرويين	70
اضراب الاقليميين عن النظام	81
مع شيخنا المرحوم سيدي الحسن الزرهوني	83
مع شيخنا الخطيب سيدي الهادي ابن المواز	89
مع شيخينا السيدين مولاي العباس الامراني ومولاي رشيد الدرقاوي	97
مع شيخنا المرحوم سيدي بنسعيد المكناسي	106
مع المقدم الطلبة العام المرحوم السيد عمر بن احمد بن الخياط	111
مع ناظر الاوقاف المرحوم السيد الحسن بن ثابت	117
قصة تعرفي على الرئيس الاستاذ علال الفاسي	122

الموضوع	الصفحة
مع شيخنا العلامة سيدي محمد بن عبد القادر الصقلي	129
مع السيد محمد لحلو الفاسي رحمه الله	135
مع مجلة الرسالة لاحمد حسن الزيات	143
بين سوقي الجايك والصباط	149
مع شيخنا العلامة سيدي العربي الشامي	154
مع ضيوف المدرسة	158
مع المرحوم ادريس البرحيلي	163
خاتمة حول اثر حركة حكيم الشرق في المغرب	173
الاتجاه السليم للسلفية الجديدة	181
من السلفية الى الوطنية	184

www. Beniznassen. com